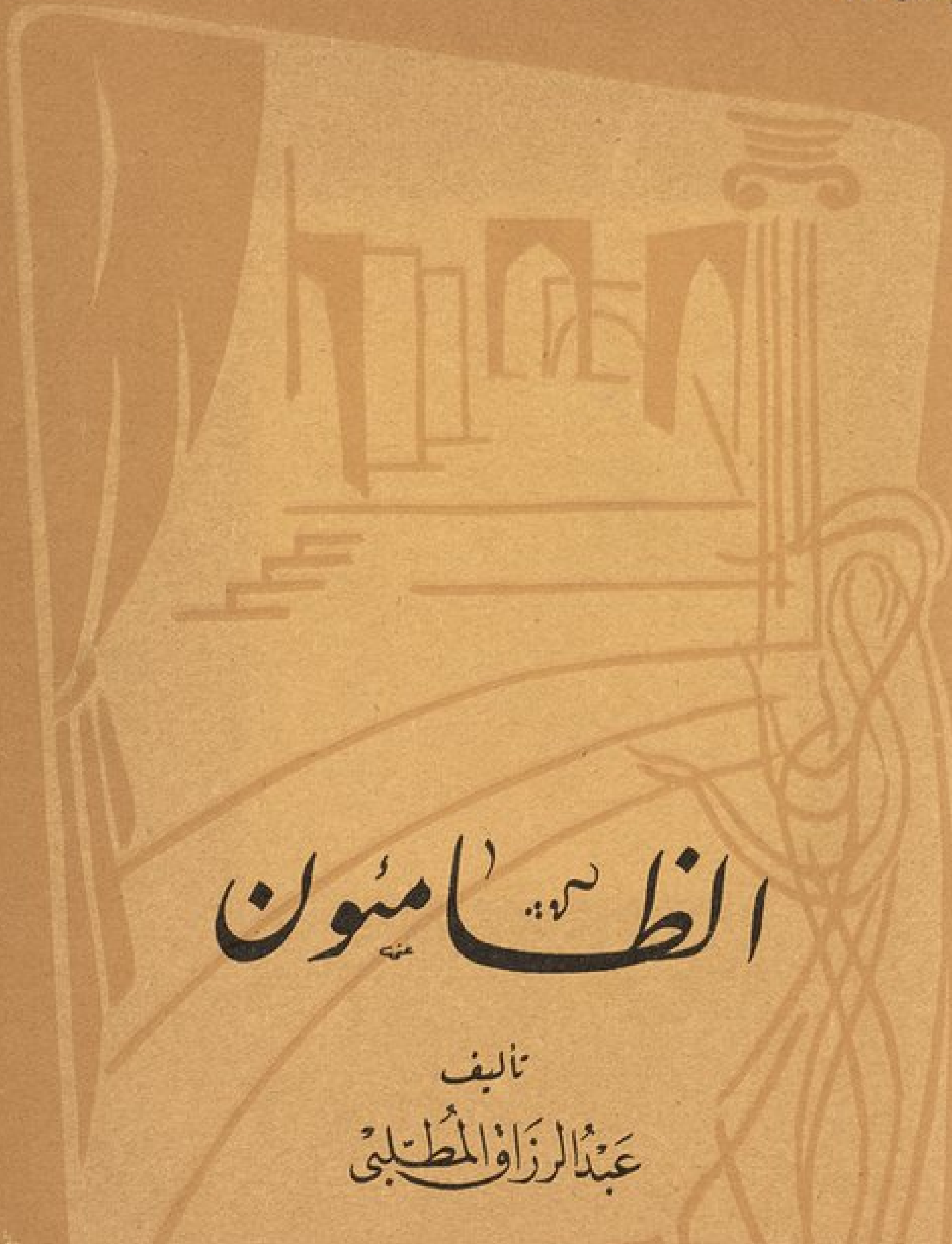
وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة



الظامئون

تأليف

عبد الرزاق المطلبي

سلسلة القصة والمسرحية ١

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

الظامئون

تأليف
عبد الرزاق المطلبي

سلسلة القصة والمسرحية
١

دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م

الأهداء

الى شريك ظمأي ورفيقي في الأزمة ...

الى اخي الشاعر محمد حسين المطلبي

عبد الخالق

المؤلف

المقدمة

بقلم

الدكتور ماهر حسن فهمي

ثلاثة تيارات تصب في محيط القصة العربية المعاصرة ، التيار التأريخي ونستطيع ان نعتبره تطورا للاسطورة العربية ، والتيار الاجتماعي ونستطيع ان نرده الى فن المقامة ثم التيار الواقعي الذي يمضي قدما قويا متدفقا ، تغذيه المنابع الغربية في تكنيك القصة •

ورواية « الظامئون » بكل جذورها وصراعها وشخصياتها ، رواية واقعية تصور قطاعا من حياتنا البسيطة المعقدة في آن واحد ، التي ورثت تركة ثقيلة بالمشكلات ، وهي وان كانت تركز أضواءها على قطاع معين من سكان القرى ، الا أن ظلالها تمتد بعيدا وتشكل دائرة أوسع ، تشمل مجتمعنا المعاصر الذي تنهار جماعات منه أمام أول صدمة ، ولكنه يبقى في مجموعه صامدا يعرف الاصرار ولا يعرف اليأس ، ويجابه المعضلة ولا يتهرب منها ويتماسك ولا يتحلل كما يحلو لبعض القصاصين الذين جذبتهم القصة الاوربية ان يصوروا حياتنا تصويرا مشوها فيه رائحة العفونة التي تنبعث

من تحلل الحضارة الغربية وليس فيه رائحة العرق التي تنبعث من حضارة جديدة تبنيها سواعدنا •

والحقيقة التي يلمسها الناقد ان الرواية تحمل كل مقومات العمل الفني الناجح ، فتبدأ بمنظر واسع عريض يشمل محيطا من الحي وقد التقت الافئدة وجمعتها الازمة ، أزمة الارض الماحلة ، وقد اصفر عشبها ، ولم تعد قادرة على العطاء •

ومنذ السطور الاولى للقصة حين « أطل عطار القرية برأسه من خلال الباب فأنكمشت عضلات وجهه ونبال الهواء البارد تنغرز فيها ، وامتد فمه الى الجانبين بألم » منذ هذه السطور ندرك ان كاتب القصة قادر على تصوير ملامح الشخصيات قدرته على تصوير المنظر ، ولاشك ان هاشم هو بطل الرواية ومن هنا يلقي الكاتب اكثر الاضواء عليه وان كانت اضواؤه القوية لم تكد تترك جزئية في الظلام • وتتحدد لنا ملامح البطل « هاشم » أعني ملامحه الخارجية في قامته المديدة وسمرته الشرقية وقوة ابن الريف وهو ليس تقريريا في رسم هذه الملامح وانما نحن نراها من خلال نظرة ابنة عمه له واعجاب فتيات القرية ، ثم تعود تتعمق حناياه ونفسيته على مدى الرواية وتتابع أحداثها في أفراحه وأحزانه وفي مشاكله التي يعرف لهـا حلا ومشاكله التي لا يعرف الحلول لها ، وفي كلا الموقفين لا يتخلى عن أمرين ويستخدم المؤلف « المنولوج الداخلي » استخداما حذرا موفقا ، فلا يسرف فيه الى الزلق الذي يبتلع الحدث ولكن الى الحد الذي يعمقه فعندما يقف أمام مشكلتي قلبه وقوته ـ وهل في القـرية أكبر من هاتين المشكلتين ؟ ـ يحس ان الاولى قضية فردية وان الارادة لا تلعب دورا خطيرا في حسمها فهو لا يملك ان يبادل ابنة عمه الحب طالما بقيت «حسنة» أمامه •

ويدور صراع رائع بين عقل الفتى وقلبه ينتصر فيه قلبه في النهاية ، وتطالعنا زوايا هذا الصراع المر من خلال المشاهد التي نلتقي فيها بحسنه وهي ترعى أغنامها ، أو ابنة عمه وهي تجتر أحزانها ويزيد الصراع تعقيدا تقاليد القرية التي تربط الفتاة بابن عمها وتربط الفتى بابنة عمه في ظروف معينة بل يزيد الصراع تعقيدا دخول « حسين » المعركة من أجل حسنه هذا الفتى « المدني » الذي فهم الحياة اكثر مما فهمها بطل الريف «هاشم» وفهم المرأة فأستغل كل اسلحته بينما وقف هاشم ببساطة الريف وذكائه عاجزا أمام هذا الفتى المغامر الجرىء ، يقنعه من حسنه ان تصرح له باعجابها ولا يدرك أن تتوزع نفسيةالمرأة بين رجلين، ويدركالمعنى المباشر لقولها « لقد انتزعت الحمل من الذئب وتركته جائعا » فيندفع وراء حسين في محاولة لانتزاع حسنه منه •

واذا كانت هذه القضية تركته يلهث ظامئا بينما النبع على بعد خطوات منه فأن قضية الارض من نوع آخر ، ترمز لقوت المجتمع الصغير كله ومن هنا كانت الارادة عاملا له حسابه وكان الاصرار حاسما فبينما يتساقط البعض ويتهاوون وتضعف ارادتهم ويبدأون بالهجرة من القرية ليجوبوا الآفاق مشردين ، يحاول هاشم أن يصل الى الماء حين يحفر البئر الاول «رمز العطاء» «فلولا العمل ما وجد انسان على الارض ، حتىالحيوانات السائمة تعمل وتأكل » وعلى الرغم من العناء الذي لاقاه وهو يحفر في برودة الشتاء القاسية ، وعلى الرغم من ضحكات السخرية التي كان يسمعها منأهل القرية ، فأنه لم يعرف اليأس حين وصل الماء فوجده مرا ومالحا في وقت واحد ، ومن الحق انه قد تزلزل حينا فهو بشر ـ خاصة وقد رحلت حسنه ـ ولكنه عاود البحث مرة ثانية حتى وصل الى الماء ثم بدأ ينزل البئر وهو يردد

من أعماقه « أرض واحدة يا أبي ومياه واحدة ، ولكنك كأي انسان يغمض عينه نصف اغماضة ويصنع سرابه ، فلولاه لما عاش منذ ذلك اليوم ولا بقي رجل واحد هنا ، ولكننا بشر ، كل حياتنا خدعة ورجاؤنا وهم ، وعيوننا لا ترى الا ما نأمل ونود والا لكان أبي قد كنس منذ البئر الاولى وكنت قد تزوجت زهرة فما كان لي أن أنخدع بحسنه ، وحينما لامست أصابع رجله المياه الباردة سرت في جسده رعدة وانحنى وأصوات ساخرة تصخب في أعماقه ومد كفه وهو ينحني ثم رفع رشفة الى شفتيه وعيناه ترمقان أباه بسخرية وبغتة تبدلت نظراته وصاح : أبي ، انه عذب •• هذا الماء عذب ••• »

وهكذا استطاع الكاتب أن يجوس خلال مشاعر البطل وان يستبطن زوايا النفس البشرية من خلال وصفه لاحاسيس هاشم على ان هذا السلاح له حدان فقد يستغرق الكاتب فيه الى الحافة الخطرة التي تحيل القصة الى دراسة نفسية ، ولكن الواقع ان الاستاذ المطلبي كان متنبها لهذا الموقف وكانت وسيلته للتخلص منه ترجع الى أمرين ، الحوار الممتع الذي أداره بين شخصيات القصة ، والحركة السريعة التي اتسمت بها تلك الشخصيات في صراعها وكانت عاملا جوهريا في جذب أنظار القارىء أو المشاهد وشد انتباهه الى نهاية القصة •

وقد استعان الكاتب بفهمه الواعي لهذا القطاع الذي صوره في قصته فهو يدرك في عمق احاسيسهم ومعضلاتهم ، ولكن صوره تمتد حتى تشمل مجتمعا أكبر ورموزه لها ايماءاتها البعيدة فهي ليست مسطحة تنكشف للوهلة الاولى وانما تعمل عملها التخميري على فترات متعاقبة من الرواية ، ويظل يتعمق ويتعمق في شخصياته حتى يربط بينهم وبيننا فنحس انهم قريبون

الينا نفرح لافراحهم ونحزن لمآسيهم التي يعيشونها ، وتلك أهم مقومات العمل الفني الناجح فهو ينثر ظلاله أو خيوطه هنا وهناك ولكنه لا يتركها وانما تتجمع ، في قبضته دون اكراه للشخصيات على السير في طريق معين . أقول ان فهم الكاتب لهذا القطاع الذي يصوره قد أمده بما أخصب به روايته فهو يستخدم المثل الشعبي استخداما رائعا يصور قيم القطاع الذي يرسمه فيترامى الى أسماعنا من حين الى حين قول عطار القرية « طالع سوء لابد أن يكون بوجه واحد منا » أو قول حليمة « ما كتب على الانسان لابد أن يراه ولكن الحظ الزين يحفظ من مهالك الدنيا » وتتجمع هذه الخيوط كلها كما قلنا لتتركز في نهاية الرواية مصورة ايمان القروي الذي لا تزعزعه النكبات على الرغم من بساطته ، وحينما طاف الجميع بأنظارهم في الحقول بعد أن نبعت المياه من البئر الثانية « ووجوههم تشرق بالامل ... فاطلت نظرات الاسى من الاحداق وهي ترنو الى أرض الراحلين الجرداء وعينا الزاير تهمس : الآن الآن يا رب بعد أن .. وكأنه استشعر اثمه فقال بصوت مسموع « حمدا لك ... وشكرا » ولن أتحدث عن قمة الصراع أو ما يسميه النقاد بالعقدة لافرض على القارىء رأيا معينا ، فالحقيقة ان القصة المعاصرة بدأت تتخلص من هذه العقد في بعض الاحيان لان الحياة لا تحل معضلاتها حلا منطقيا كل حين ولا تصل بصراعها الى عقد وقمم ، ومع ذلك فما زالت القصة المعاصرة تتمسك بهذا العنصر النقدي .

ولكننا نلاحظ في هذه الرواية نوعا من التطور في مفهوم هذا العنصر فقد تكون هناك أكثر من قمة وقد يكون هناك أكثر من حل حاسم .

والحقيقة الاخيرة ان الاستاذ « المطلبي » بروايته هذه يقف على قمة من قمم القصص العربي الحديث ومن الواضح ان هذه الرواية ليست

أول رواياته وان كان لم ينشر من قبل انتاجه الفني ، ومن الواضح أيضا ان موهبته ودراساته لفن القصة قد أعاناه كثيرا على الوصول الى هذا المستوى الذي يتبع فيه رائد القصة العربية نجيب محفوظ من حيث البناء .

١

أطل عطار القرية برأسه من خلال الباب الواطئة القائمة بجانب الكوخ الطويل ، فانكمشت عضلات وجهه ونبال الهواء البارد تنغرز فيها ، وامتد فمه الى الجانبين بألم •• نظر صوب الشرق فلمح الشمس ترتفع كثيرا فوق الهضبتين المتوازيتين ، والوادي الواسع يلمع ثلجه الطحيني الابيض بفعل أشعة الشمس المهتزة ، ثم حرك رأسه الى كل الاتجاهات ، وأحس بمشاعره تتجمد في اعماقه وهو يرى الاراضي من حوله وقد كستها خيوط الثلج مما تجمد من ندى ملونة العشب اليابس القليل •• والحجارة الكالحة تدس الخوف الى قلبه من حدقتي عينيه ، فتأفف حتى اكتسح ضباب زفرته كل الهواء أمامه ، وكان منخراه ينفثان ضبابا •• وعيناه تنغلقان على مضض •••

كان يحدث نفسه متطلعا الى السماء •• « يا رب •• ألا من غيمة تأتي لتغسل أرضنا وقلوبنا •• اللهم ارحم هؤلاء المساكين فما لهم حياة دون المطر •• » أرسل نظراته الخابية الى الارض الفضاء خارج القرية ثم زفر ضباب صدره متضجرا ، وكانت عدة مجموعات من الكلاب تنتشر في أنحاء القرية والدماء وقطع اللحوم من جثث الحمير والاغنام والعفن تملأ المكان

وتذكي حماسة بعض الكلاب فيملأ نباحها الاجواء •• سعيدة •• يتمطى النشاط في أجسامها في حين يأكل القهر قلوب الفلاحين وهم ينظرون أغنامهم يصيبها الهزال ، ويلتصق جلدها على عظمها •• وحميرهم تسير ببطء وكأنها لا تقوى على رفع أرجلها من الارض •• وزرعهم يذبل وينطوي بحزن على سيقانه الخاوية •••

كان يعرف ان لا حياة لاطفاله ان لم ينزل المطر ، فهو لا يعرف غير هذه المهنة ،عطاريبيع الشاي والسكر والتمر والدبس والبصل وبعض المواد والحاجات الاخـرى ، ويسكن كوخـا من القصب والبردي جعل نصفه لبضاعته البسيطة ونصفه لسكناه مع عائلته ، وكان منظر الكلاب أمامه يفت كبده ، فهو وان بدأ يأكل اللحم مما تمرض من أغنام لكن ما يأخذه من سمن بدل ما يبيعه ينعش دخله ، كما انه لا يستطيع ان يحصل شيئا مما يعطيه لهم ان لم تمطر الدنيا وتنمو الحياة في القرية ، ومعناه ان عليه ان يظل حتى الموسم الآخر •• هو واطفاله عليهم ان يقترضوا ويأكلوا ، أو يرحلوا الى مكان آخر •• « لا يا رب انت رحيم •• انت رؤوف بعبادك •• هؤلاء المساكين يصلون ويصومون وينتظرون رحمتك •• فارحمهم يا رب !! » كان يصعد صلواته من قلبه ويرفقها بحسرات روحه •••

ثم استرجع رأسه مقتربا من الموقد الذي تلهث نيرانه ، وجلس ينظر الى وجوه أطفاله وزوجه ، وقال بصوت عال دون أن يوجه كلامه الى احد :

ـ طالع السوء عندنا •• لابد أن يكون بوجه واحد منا ••

ودفن رأسه بذراعيه المعقودتين حول ركبتيـــه والدفء يســري الى جسمه حتى اذنيه اللتين كاد البرد يجمدهما ، وبعد هنيهة رفع رأسه وقال موجها كلامه الى امرأته :

ـ نسيت ألاحظ اتجاه الريح •• روحي شوفي ••

فنهضت المرأة تتثاءب متثاقلة •• راغبة عن مبارحة مكانها الى البـــرد وما ان اقبلت على الباب حتى صفع الهواء البارد وجهها واجرى دمع عينيهـا فرفعت كفيها تغطي وجهها وانفها والبرد يتسلل الى كل اجزاء جســمها من خلال فتحة صدرها •• ونظرت الى اطراف البردي العالية فلمحتها تهتز صوب الشرق فتأففت وقالت دون ان تغادر مكانها في الباب :

ـ شمال •• الهواء شمال •••

وسمعته يقول بغيظ :

ـ لن يتركنا هذا الشمال •• حتى ينتزع ارواحنا من عظامنـــا •• شمال •• شمال •• كل يوم شمال •• لا ادري اين ذهب هواء الشرقي ••

واسرعت الى داخل الكوخ متلمسة عباءتها وهي تقول :

ـ لقد أتى بعضهم •

ـ وماذا عندهم غير طلب القرض ••؟ أظل اقرضهم واقرضهم ولا غيمة •• ولا نقطة مطر وهم يأكلون بمالي •• أنا لا اعرف ما علي عمله •• فهؤلاء الناس ••

ونهض ابنه الاكبر وراح ينظر من خلال الباب •• يتابعهم وهم يقتربون •• ثم لوى رقبته يقول لابيه :

ـ انهم زاير راضي وابنه هاشم وجاسم بن علوان •• وزاير محيسن واولاده •• ومحمد وموسى وهامل وجمعة •

ـ هه •• كلهم •• أيريدون ان يقترضوا كلهم ••؟

ولم يطق •• فجر رجليه قليلا مادا ظهره الى الخلف ونظر •• فرآهم بجمعهم يتجهون نحو بيته يتقدمهم زاير راضي ومن ورائه ابنــه

هاشم •• وكان الزاير رجلا في نحو العقد السادس من عمره •• غلب بياض لحيته سوادها •• مبسوط الوجه رغم تجعداته التي بدأت تكثر •• كان يسير ويداه خلف ظهره بينا كان ابنه هاشم في العقد الثالث من عمره •• طويل القامة •• عريض المنكبين •• اسمر الوجه •• عقدت الشمس على وجنتيه بقعتين داكنتين •• مزموم الشفتين •• ينظر حوله باهتمام •• وكانت رؤوسهم بكوفياتهم المرقطة بالسواد تبدو وكأنها ظهور حملان صغيرة تشابه لونها •

اقتربوا منه والقوا التحية عليه فرد عليهم مرحبا ثم دعاهم للجلوس قرب النار •• فاتخذوا اماكنهم يفركون ايديهم امام وهجها •• وبعد لحظات صاح العطار :

ـ زنوبة •• اعملي الشاي ••

فنهضت زوجته متلفعة بعباءتها السوداء فيما تنحنح زاير راضي وقال :

ـ ابو حميد •• هات المصحف واكشف لنا •• نريد ان نرى طالعنا •

وكأنما أنسته هذه الكلمات ما كان يشيع في صدره من هم وهو يرى نفسه امامهم شيئا نادرا لا يمكنهم ان يأتوا بمثله ، فهو يعرف اشياء كثيرة لا يعرفونها ويعتز بهذه الميزة كثيرا •• أسرع الى مكان القرآن •• حمله بتؤدة مبسملا وفتح كيسه الاخضر المصنوع من حرير رخيص ثم قبله ووضعه على جبهته مرة ثانية وقال لزاير راضي :

ـ اسمع زاير •• انا رايح افتح القرآن •• وضع اصبعك انت على السطر الذى تختاره •

ـ لا •• دعني انا افتح الصفحة واختار منها سطرا •

ـ حسنا ••!!

وتقدم الزاير فأمسك القرآن بيديه الاثنين ثم قبله ووضعه على رأسه .. فتحه ببطء واشار الى سطر في وسط الصفحة .. وقرأ العطار « بسم الله الرحمن الرحيم .. الله يبسـط الرزق لمن يشاء ويقدر .. » (انـه سيبسط الرزق لنا ..) فافترت شفاههم عن ابتسامات رجاء فرحة ، وتراقصت ألسنة النيران في حدقات عيونهم ، وحينما بارحوا المكان كانت رؤوسهم ترتفع الى السماء باسطين اكفهم ودعاؤهم يطلق من بين شفاههم همسا رقيقا الى الله .. ليحن عليهم ويرسل غيمة تروي ظمأهم .

ثم تحرك الجميع سائرين كل الى جهته وما يزال نباح الكلاب يدوي في آذانهم ، وسياط البرد تضرب وجوههم بقسوة والصقيع يجمد اقدامهم .

٢

حينما وصل زاير راضي كان ابنه فقط يسير وراءه بعد ان ذهبوا كل الى جهته .. يمزجون امانيهم برجاء قلوبهم اللهفى وارواحهم الظمأى لقطرات المطر ..

أمسك بحافة البيت العليا فدغدغت خشونتها يده وأحس براحة عميقة وهو يحركها عليها ، ثم التفت الى ابنه قائلا :

ـ هاشم .. هات لنا الفأس والمسحاة والسطل .. هيا والحق بي ..

« نحفر بئرا .. قلت لهم وسأريهم .. » قال هذا في نفسه بينا تحرك هاشم دونما كلمة ، فدلف الى داخل البيت وبدأ يبحث في زواياه .. وكان بيتهم شأن جميع بيوت القرية الرابضة في صدر هذا الوادي الفسيح .. خيمة منسوجة من شعر الماعز المتين لتقيهم البرد والمطر ..

أخذت عيناه تقتنصان اشياء البيت البسيطة .. حيث تقوم في وسطه قطع اثاثهم القليلة من افرشة ومكان ملابسهم وبضعة أكياس مليئة بالحبوب فتنقسم الخيمة الى قسمين .. القسم الاول لجلوس النساء ونومهم جميعا .. والقسم الآخر للضيوف ، وتفصل بين القسمين ستارة على عرض الخيمة

وأحيانا اعرض منها ، مصنوعة من القصب المصفوف واحدة بجانب الاخـرى ومحبوكة بخيوط صوف قوية على نحو جميل •• مرتب •

أجال ببصره في كل زواياها فلم يجد الادوات •• وهم بالنداء على زهرة ابنة عمه ولكنه تذكر انها غير موجودة ، فاحنى جسمه وراح يبحث ، وما ان استدار حول الخيمة حتى وجدها في الجانب الاخر فالتقطها مـن الارض واضعا المسحاة على كتفه والفأس في يده اليمنى •• منطلقا الى خارج القرية حيث ينتظره أبوه •

كانت برودة الهواء تقرص اذنيه بشدة وتلسع وجهه ، وكان يسير بخطوات واسعة والبرد يتسلل من الارض المقرورة الى قدميه حتى لكأنـه سكاكين تنفذ اليهما •• وأحس بعد ان قطع مسافة كأن كفيه جمدتا ومـا يشبه الأبر الدقيقة تنفذ من الهواء الى كل جزء في جسمه بيد انه واصـل سيره موسعا من خطاه أكثر فأكثر ••

كان يسير وعيون أهل قريته تلاحقه عن كثب وهم ينعمون بالدفء على حرارة النيران المتأججة في المواقد وارواحهم منتشية بما يشيع فيها من لذيذ الدفء ، وخرج بعضهم امام الخيم وراحوا يمدون اليـه نظرا ساخرا •• وسمع احدهم يقول وكأنه يحرص على اسماعه :

ـ ما جدوى حفر البئر ما دامت الدنيا ستمطر ••؟!

بيد انه تابع طريقه دون ان يلتفت ، ومر من امام آخر بيت الى الجنوب •• وهو خيمة صغيرة تقطنها ارملة مع ولديها الصغيرين •• وغمغم كلبهـا قليلا حينما تجاوزه ثم صار خارج القرية •• فتوقف ينظر صوب والده •• ملتقطا انفاسه المجهدة •

اخترق حقلين تنتشر فيهما عيدان القمح الذابلة •• المصفرة قبل ان

يصل الى والده الذي اختار منخفضا واسعا بعض الشيء في طرف حقلهم الواقع جنوب المنطقة ليحفر فيه البئر •

ناوله المسحاة وبقي ينتظر في حين اختط ابوه دائرة على سطح الارض ثم أخذ يحفر بعد ان صاح بأعلى صوته « بسم الله الرحمن الرحيم •• » وحذا ابنه حذوه •

ألقى الابن بالفأس على الارض حينما رأى التراب يتجمع بكثرة داخل الحفرة وانحنى بملأ كفيه به ويلقيه خارجا بينما توقف الاب متكئا على المسحاة •• ينظر تارة الى القرية وأخرى الى الحقول ويده تمسح على جبهته وخديه وخياله ينطلق مجسما البئر المنتظرة والناس حولها يشربون وماشيتهم ترد •• وما لبث ان نظر الى ابنه قائلا :

ـ اذا تدفق الماء فانني ساصنع حوضا طويلا من طين البئر موردا للمواشي •

ورفع هاشم جسمه ببطء جاذبا انفاسه •• فأحس بتوزع الثقل الذي انعقد على ظهره •• وهو منهمك باخراج الاتربة ثم أجاب :

ـ نعم يا أبي

ـ سأحصل على ثواب عظيم •••

وأمن الأبن على كلام ابيه بهزة من رأسه وراح الأب يقول :

ـ يكفي انها ستسمى « عين زاير راضي •• »

وتراءت لهاشم بعض النسوة يخرجن من بيوتهن واحداهن تنادي صاحبتها تقول :

« ألا تمشين لعين الزاير •• نجلب الماء •• »

فابتسم يقول لأبيه حالما •• منتشيا :

ـ سيظل الناس يشعرون بفضلنا الى الابد •

ـ يا الله يا ابني •• وليساعدنا الله •

أمسك هاشم بفأسه مرة أخرى وراح الاثنان يضربان الأرض وهاشم يرتفع جسمه وينحني مع حركة الفأس في يده • وفيما كانا يجدان في الحفر مرت فتاة •• في الثامنة عشرة من عمرها •• لمحها الأب فقال بصوت منخفض :

ـ هذي حسنة بنت هامل •• من جاء بها •• هنا ؟

رفع الابن بصره ، واستغرق مدة طويلة في النظر اليها ثم رده حياء من ابيه مجيبا :

ـ أظنها جاءت تلتمس نارا عندنا تتدفأ بها •

ـ ها •• حقا •• لقد انهمكنا بالعمل ونسينا اشعال نار لنا •• يا الله يا ابني قم واجمع قليلا من الحطب واشعله •

والقى عليها نظرة اخرى •• فلمحها تشد طرفي عباءتها الصوفية السميكة حول رقبتها وعلى رأسها ، تستند الى عصا بيدها ناظرة اليهم •• وما ان التقت نظراتهما حتى ابتسما ابتسامتين عريضتين •• ثم قالت :

ـ الله يساعدكم ••

ـ اهلا •• انت مبترده •• أليس كذلك ؟

ـ البرد شديد هذا اليوم •• جدا ••

ـ حسنا •• ابقى فسنشعل نارا :

قال الأب هذا والتفت صوب ابنه الذي أخذ ينحني ملتقطا بعض الاشواك الجافة •• وما هي الا فترة قصيرة حتى جمع منها كومة كبيرة واشعل فيها النار فارتفع اللهب عاليا والتمعت عينا الفتاة وتوهجت وجنتاها وهي

تبسط يديها تتدفأ ، ثم استدارت قائلة :

ـ يا له من برد شديد •• أدفىء يدي ووجهي ويبترد ظهري •

وضحكت وهي ترى الأبن يلتفت اليها بين الفينة والاخرى •• وفركت كفيها متلذذة •• ثم جلست قرب النار ••

وقالت وهي ترنو الى ألسنة اللهب المتراقصة امامها :

ـ يقولون انه لا رجاء من وجود الماء هنا •••

فأوقف الأب مسحاته •• ونظر اليها •• ثم قال :

ـ أبوك قال هذا ؟! كل أرض مليئة بالماء ••

وعاد بعد فترة يقول :

ـ انني ادرى انهم يقولون اشياء كثيرة •• ولكن سيرون •

ـ انهم يقولون هذا لانهم يعجزون عن اخراج رؤوسهم من خيامهم •• ولكنهم لن يردونا عن عزمنا ••

قال الابن •• بينا كانت تنظر اليهما باهتمام •• صامتة •• وما لبثت أن تحركت قائلة :

ـ ظلوا أنتم وسآتي بحطب للنار

وقال الأب وكأنه يحادث نفسه :

ـ لقد توكلنا على الله وعملنا ولا أظن الله يضيع تعبنا •

ـ لا شيء يأتي بلا تعب ••

ـ مثل النار •• اذا لم نلق لها حطبا لن نحصل على شيء من الدفء ••

وكانت النار قد بدأت تخبو والفتاة تبتعد باحثة •• متفحصة الارض بنظراتها الهادئة •

كان الأبن يختلس النظر اليها •• مستشعرا رغبة قوية في ارتشاف

ملامح وجهها الفاتنة •• متعجبا •• فانه لم يحس بما يحسه تجاهها ازاء أية فتاة اخرى •• يتمثل خيالها في اكثر خلواته •• تلتقط اذناه نبرات صوتها مهما كانت ضعيفة ويميزها دون اصوات جميع الفتيات •• وكيفما يكون الامر فانه يشعر بميل جارف نحوها • بينما كان الأب يتخيل بئره والماء يتدفق منها بغزارة مزهوا بين اصحابه الساخرين •• قائلا في نفسه « سأريهم كيف تكون الرجال •• » وذهب بخياله الى أن مياه بئره ستكون من الغزارة بحيث تروي جميع الحقول •• « ولماذا ؟! أليس ما تحت الارض من ماء يساوي ما على سطحها » وايقظته الفتاة من احلامه وهي تضع الحطب قرب النار قائلة :

ـ جمعت لكم حطبا كثيرا ••

ثم رمت ببعضه الى النار •• وقال الأب هامسا :

ـ ما ألذها ••!! لقد ثقلت اصابعي حينما خبت •

وحينما اشتعلت النار ثانية وارتفع لهيبها أمسكت الفتاة بعصاها ناهضة وهي تقول :

ـ سأذهب •• لا ضيع الله لكم تعبا •••

استدارت •• وكانت عينا الابن تمرح على ظهرها تلامسه برفق وهي تبتعد قليلا •• قليلا •• ورأسه تميل نحوها حتى اختفت بين الخيام •

وكانت شمس ذلك اليوم ضعيفة جدا حتى لكأن شعاعها قد تجمد شأن كل شيء حولهما •• وقد بدأ الصقيع يسري في اعضائهما رغم ارتفاع الشمس •• وقال الأب متذمرا وهو ينظر الى النار الخابية بحسرة :

يا له من برد يجمد كل شيء •• حتى الهواء الذي تتنفسه

ـ شتاء •• وبلا مطر !!

ـ المطر •• آه ••

ـ لا تيأس يا ابي •• فرحمة الله واسعة ••

وادار الأب بانظاره حوله •• فالفى احد جيرانه يتقدم منه •• سلم عليهما وهو يدنو من النار الخافتة •• وشرع يحرك عصاه بها يلتمس جمرا ينشره ، بيد أنه لم ير غير الرماد الناعم •• فرفع وجهه نحوهما وقال :

ـ أهذه هي النار التي تدفأون بها ••؟

ـ كانت مشتعلة •• ومثلما ترانا نعمل ولا نتمكن من جمع الحطب لها

ـ لو تشعلونها تعملون أحسن •

ـ لا نستطيع ترك عملنا ••

فقال وهو يضحك ويهز يده :

ـ انني أرى انكم تلهون انفسكم بالحفر في أرض جافة لا أمل وراءها واراهن انها خالية حتى من القطرة الواحدة • فارسل الأب نظراته الى الارض حوله متضايقا ثم قال :

ـ اننا لن نفقد شيئا •• ولكن نتلهى على أمل خير من أن نجلس في بيوتنا بلا أمل ••

ـ أمن هذه الارض تأمل ••؟ انني لم أر أكثر منها عطشا •

ـ انها طيبة رغم عطشها •

ـ تستطيع ان تقول هذا بمجرد ان تريد

قال هذا وهز كتفيه •• فارتفع صدر الأب وهو يأخذ نفسا طويلا وقال بنبرات يهزها غضب مكظوم :

ـ تذكر انك اكلت منها •• ولولاها لما صرت بكبرك هذا وطولك •• صنعت لحمك ودمك منها •

ـ ومع هذا فبامكاني ان آكل من أي مكان آخر

ـ كلا •• لانك ستضطر للتوسل والاستجداء ان قصدت ارضا غيرها•• أما هي فتمنحك •• تعطيك ••

وضحك الآخر •• ثم قال بلهجة باردة •• هازئة :

ـ حسنا •• احفر •• فسيخرج الماء قبل الظهر ••

واحتدم الغضب في صدر الأبن فأخذ يعلو ويهبط •• وأحس برغبة لضربه بالفأس لو لم يخف من أبيه •• وقال وهو يزفر :

ـ يسخرون منا بدل أن يعينونا •

وأومأ له الأب ليواصل الحفر بينما كانت نظراته تتابع الرجل الآخر•• وهو يبتعد منكمشا من البرد كحمل ضعيف مقرور وابتسامة حانقة ترتسم على شفتي الأبن ••!!

٣

بعد أيام •• تناثرت عدة سحب في السماء •• بيضاء كنتف من الصوف المنفوش •• فارتفعت الرؤوس تتطلع اليها ودعاؤهم الخالد يتراقص على كل الشفاه •• « ارحمنا يا رب •• ارحمنا •• » وشيء من الأسى يسري مع خيوط اليأس الى ارواحهم •• تكاد اعينهم تجهش بالبكاء •

وحوالي بعد الظهر بساعة اقبلت غمامة صفراء ، كتراب عاصفة •• فتطلعت العيون اليها •• كانت تختلف عن قطعات الغيم البيضاء الاخرى •• وأوجست القلوب •• ولكن احدا منهم لم يتفوه بشيء غير الامل ومع مرور الدقائق بدأت الغمامة تكبر وتمتد في السماء وازداد لونها دكنة •• فبدت وكأنها تبشر ولا تنذر ••

وبانفعال •• صاح زاير راضي محاولا جعل كلامه يحمل التأكيد والعزم :

ـ هيا يا رجال •• اعملوا التراب حول خيامكم ••

ولم يتحرك احد منهم •• فاردف :

ـ لسوف تغرق بيوتكم ان لم تعملوا •••

فرد هامل ببرود :

ـ لكم وددنا هذا ..

واكد على كلامه شاب كان يقف معهم يدعى حسين :

ـ اين المطر حتى تريدنا ان نعمل ...

وهم هاشم بالكلام ليذكرهم بأقوال عطارهم .. لكن اباه لم يدع له الفرصة لذلك فقد تحرك وامسك بمسحاته .. وتحرك الباقون خلفه رغم ما قالوه ، يقلبون التراب حول بيوتهم عاملين جداول صغيرة حولها يجري فيها ماء المطر مبتعدا عن الخيام ...

ومن بعيد .. رؤي العطار مشمراً عن ساعديه يعمل بمسحاته هو الآخر .. يصيح بين الفينة والاخرى :

ـ انها رحمة الله يا رجال .. اسرعوا بعملكم .. ها هي قادمة سوداء تحبل بالمياه ..

ويصيح بوجه ابنه البكر ، فيسرع الاخير يلبي طلباته ، ومن حوله زوجته وباقي أطفاله الاربعـة ينظرون وكأنهم امام امتحان ينتظرون اداءه بخوف .. وكان يتحرك بكثرة ما يصيح ..

وبدأت بعض الاصوات وصياح الاطفال تختلط بنباح الكلاب في انحاء القرية ، وفي بيت زاير راضي قفزت دجاجة معتلية الاثاث وراحت تقوقو وقد ازعجتها الحركة فمنعتها من وضع بيضتها .. وبعد لحظات خرج جمع من الاطفال يتصايحون ويدبكون على الارض الصلبة حتى كان لوقع اقدامهم صوت قوي ، ثم انطلقوا يهزجون واعينهم تتردد بين العصي المرفوعة بايديهم والناس قربهم وكان كل واحد منهم منتشيا لان هناك من يراه وهو يقفز ويغرد ، وابتعدوا عن باحة القـرية وما زالت اصواتهم تتردد في جنبأتهـا

باهازيجهم الرقيقة يتوسلون الى الغيمة لتمطر لهم ...

وظللت الغمامة الصفراء الداكنة القرية .. فتطلعت الرؤوس اليها متلهفة .. وتحركت بعض العيدان بفعل ريح الشمال فاوجفت القلوب .. وتساقطت قطرات كبيرة جدا .. بحجم البصقة وتركت اشكالا غير منسجمة على الارض الجافة .. وتنهد الجميع ..

كانت الغمامة تسير ، والعيون ترقبها ، والأخيلة تمتلىء بغدران واسعة .. تزدهي امامها خضرة واسعة ممتدة .. والقطرات تنزل بتؤدة .. متباطئة .. وهتفت العيون وهي تنشد في السماء : « يا رب .. يا رب .. يا رب .. » ثم خرج الجميع من بيوتهم .. حتى الكلاب وتجمعوا ينظرون نحو الغمامة بضراعة .. وما عتمت الضراعة ان تحولت الى انقباض وخوف .. ثم الى يأس مر .. وألم حاد ينزرع في قلوبهم المحرورة .. وكانت قد تخطتهم هاربة بفعل ريح الشمال التي بدأت تشتد .

وغاض النور في العيون .. وانقبضت الوجوه .. وكل واحد منهم يرسم خطوط الاسى بنظرته المنطفئة على ملامح الآخر .. كانوا صامتين كل الوقت فلم يجرؤ احد منهم على الكلام حتى ابتعدت الغمامة .. ولحقتها النتف البيضاء .. وبانت السماء صافية من ناحية الشمال .. فغمغم زاير راضي مستغفراً ربه وهو يدفن نظراته في التراب الظامىء .. وكانت قطرات المياه الكبيرة ما زالت تبلل الارض وبعضهم يحسها ترطب وجهه .. وتلاقت العيون للحظات يتبادلون نظرات تشوبها المرارة القاتلة ثم قال حسين .. وكان واقفا الى جانب هامل :

ـ لقد عرفتها .. فما هي بغيمة ماطرة ..

وأمن آخر على كلامه قائلا :

ـ كانت رحمة منها حينما لم تمطر ترابا •••

ورفع زاير راضي كفيه الى السماء وقال بصوت مهتز :

ـ أهكذا يا رب •• تمر الغيمة فتبصق على وجوهنا بدل أن تغسل ارضنا وقلوبنا •• ؟ تمر ولا غير البصاق •• حكمتك انت يا رب •• !

وقهقه هامل وهو يتلفت الى من معه :

ـ ما كان علينا ان نمسك مساحينا •••

ورد آخر بكلمات بطيئة تكمن السخرية في ثناياها :

ـ نعم •• فقد جفلت الغيمة منها وابتعدت خائفة •••

وضحك •• ها •• ها •• ها ••

واحس زاير راضي بالغضب يتحرك في صدره « يحملونني سبب ابتعاد الغيمة •• !! » لكنه اطبق شفتيه على مضض وسار الى بيته •• وفيما كان في طريقه سمعهم يقولون بسخرية :

ـ أطار هذا الزاير رزقنا بمسحاته وبثره •••

فعض على نواجذه غيظا وود لو يرجع لهم •• قائلا في نفسه •• « بل انتم الذين أطرتم رزقنا •• ولكن الله حكيم •• هؤلاء الناس يغضبون مع ان الامر بيد الله •• يا لهم !! حسين هذا •• الآن عرف كيف يتكلم !! »

وأقبل على البيت •• وكان ابنه قد سبقه اليه •• فولجه دونما كلمة ، وجلس على حافة السجادة تاركا أنظاره تمتد الى الخارج والهموم تتجمع وتتكاثف على صدره حتى كادت تخنقه •• وتكتم انفاسه •

لم يستقر به المقام حتى سمع نواحا •• فارتجف قلبه ونظر الى ابنه فالفاه يرفع رأسه ويرهف اذنيه هو الآخر •• ثم أتاه صوته :

ـ بكاء !! ألا تسمع يا ابي •• ؟!

– نعم اسمع

– كأنه آت من بيت حليمة ..

وقفز واقفا على قدميه وهو يقول :

– من بيت حليمة .. ؟ ماذا أصابها ؟

ولم ينتظر رد ابنه .. بل امسك بعباءته وراح يوسع من خطواته صوب الجنوب .. يردد في نفسه « ماذا حدث لها ؟ .. ماذا يمكن ان يحدث ؟ » غير عابيء بالهواء البارد .. وابنه يسير خلفه دون أدنى فكرة في رأسه فقد اعتاد الصراخ هذه الايام والمواشي تتساقط واحدة بعد أخرى ، وافــواه الكلاب تنتظرهــا مشرعة انيابها .. وقــال في ســره وهو يلمح كلبا يدور على نفسه متلمضا .. باسطا ذراعيه في فيء الخيمة « هذه الحيوانات الملعونة هي الوحيدة التي تعيش حينما تجدب الدنيــا وينقطع المطر » ومع هذا فهم يحبونها حبا عظيما .. فهي الوحيدة التي تلازمهم في السراء والضراء كائنة منهم مكان سلاحهم في هــذه الاماكن المزدحمــة بالحيوانات الضارية ..

ورأى فيما أتاه ابوه شيئا غريبا .. فهو وان كان يغتم كثيرا ويملأه الهلع كلما وقعت رزية لكنه يتماسك دائما بصلابة نادرة .. فما باله الآن ؟ ولكنها امرأة مسكينة وابوه طيب القلب .. رحيم !!

وطول الطريق ظل الاب يفكر فيما عساه ان تكون قد تعرضت له ، وخشي ان يكون قد اصيب احد ولديها بمكروه .. فهو يحبهم ويرى فيهم ما لا يراه في بقية الصغار .. وكان قد سبقه بعضهم الى خيمة المرأة الارملة ، فما ان دنا منهم وسلم حتى بادر هامل بلهجة متهكمة :

– ها هي ماشيتنا تقضي واحدة اثر أخرى .. ونحن ننظر ..

وتنهد الاب من اعماق مذبوحة وهو يسمع الكلام •• وحينما وقعت عيناه عليها ممدة رجليها تبكي حظها العاثر أحس كأن قلبه يتقطع •• وكلماتها تنفذ الى روحه •• فقال لها :

ـ انهضي يا ام سالم •• الله يعوضك •••

فتطلعت اليه بعيون خابية ثم ارتدت نظراتها الى نعجتها الميتة وراحت تذرف الدمع •• وقال حسين في نفسه « يعوضها الله بشرك المنحوسة !! » وبصوت عال :

ـ الله يرحمنا ••• الله يساعدنا على هذا الضيم •

وساد الصمت بعض الوقت ثم بدأ الرجال يتحركون الى بيوتهم وسمع هامل يقول « ماذا ننتظر غير موتنا هنا •• ؟ نعم •• وليس لنا غير الرحيل الى مكان آخر ان كنا نريد الحياة •• » ورد عليه آخر « ونترك زرعنا ••؟! » « أي زرع •• ؟ لن نترك غير هذه الحجارة الجرداء والعيدان الميتة •• الحقيقة انني لا أستطيع ان أبقى هنا انتظر موت غنمي •• » فانتزع رأسه واستدار نحوهم بخوف وكلمات هامل تضرب برأسه •• ومد الأبن نظراً جزعا نحو هامل •• مرددا « انت ابو حسنة •• تهاجر •• انت تهاجر ••!! يا أسفي عليك !! » وحينما جاءه صوت حسين يقول : « صحيح اننا لا نستطيع البقاء هنا والموت والعطش يذلنا ويحرق كل ما عندنا » هتف « مالك •• ؟ أأنت أيضا تقول هذا ؟! » وتعثرت نظرات الاب بين الجمع الذاهب والارملة المسكينة وهز يده قائلا « يرحلون !! هـه !! » ثم انتبه الى نفسه وقال لحليمة :

ـ يا الله يا ام سالم •• الله كريم ••

ـ انت تعرف ابا هاشم •• ليس لدي غير هذي النعجات وغصبا

عني ابكي ..

وكانت تملك خمس نعجات .. فبقت عندها أربع بعد ان ماتت هذه ..

ـ كلنا لك يا ام سالم .. يجب ان لا تخافي ونحن قربك ..

ونهضت ودلفت الى داخل خيمتها فولجها الزاير وراءها وبقي الابن خارجا ، وما ان اطمأن عليها حتى خرج وصحب ابنه الى خيمتهم .. والتفت ابوه اليه قائلا :

ـ يقول انه يرحل .. واذا رحل !!

وكانت كلمات هامل ما زالت تلعب في صدره ، ثم صمت ونظرات الابن تزيغ .. وما لبث ان عاد يقول :

ـ ولكنهم لن يرحلوا .. أنا أعرفهم .. انهم لا يجرأون على تركها .

وقال الابن وهو يفرك أصابعه متأففا :

ـ نعم يا ابي .. ليس لهم ان يرحلوا عن ارضهم وزرعهم .

٤

مغرب ذلك اليوم •• عادت زهرة بصحبة قطيع غنمهم الى البيت بعد ان قضت النهار كله في المرعى مع الراعيات والرعاة الآخرين •• وثغاء الاغنام يتجاوب في كل مكان من القرية حتى كأنها غرقت في لجـــة من الاصوات الممدودة بعد ان كانت جاثمة في حضن الهدوء الشامل •• وتقاطرت قطعان الماشية من كل حدب وصوب كأمواج سيل كثيرة الزبد تصب في القرية •

وكان الاب وابنه جالسين داخل الخيمة يصطليان نارا اوقداها للحظات خلت ، فلم تنقض على رجوعهما من عملهما في حفر البئر وتفقد الزرع الا ساعة •• اسرع الابن الى مربض الحملان الصغيرة ووضع الحبال في رقابها لئلا ترضع امهاتها بينما قصدت زهرة بالاغنام الى حضيرتها مباشرة •• وهي مكونة من ارض فسيحة مفروشة بفضلاتها الصغيرة الحجم •• ومسيجة بسياج عال من الاشواك •

وما ان لمح هاشم ابنة عمه تقف حتى خف لها يساعدها بان يمسك لها الحيوانات لتأخذ الحليب منها بآنية من النحاس التي تعلو ظاهرها طبقات

القار المتصلبة •• كان يعرفها جميعا ويردد أسماءها في نفسه •• بينما كانت تراقبه وهي تحلب من تحت اهدابها •• تمتع عينيها بمنظره الآسر •• قامته المديدة •• سمرته •• قوته •• واحست بالدم يتصاعد الى رأسها •• وصدغيها يدقان بعنف •• ممتلئة زهواً به •

وفيما كانت تستشعر ظله الكبير فوق رأسها كانت صور فتيات من صويحباتها تتمثل في مخيلتها وهن يرددن بحياء •• « انت لديك أحسن ابن عم •• » وتذكرت احداهن التي قالت لها دونما خجل « انني احسدك عليه يا زهرة •• » ولم تكن لتتفوه بشيء امامهن •• بل كانت لا تأتي بغير الابتسامة العريضة التي تسبق اصطباغ وجنتيها باللون القاني •• كانت تعرف انهن يحسدنها بل هي نفسها تتذكر فتشكر ربها حيث جعل هاشم بن عم لها ، وانها لتحس سعادة سابغة وهي في مكانها منه تسمع صوت أنفاسه ورفيف ثيابه •• وتتمنى ان تضمه في قلبها وتنشق ريحه •

وحينما انهت آخر نعجة رفعت رأسها اليه •• كان ينظر بعيدا صوب بيت هامل •• تهوم في صدره كلمات متوجسة « أحقا يرحلون ؟ وترحل حسنة ؟! لا •• ليس لأبيها ان يرحل •• » حتى مزق صوتها الحنون عشاوة ذهوله وهي تقول بنبرات هادئة دافئة :

ـ انتهيت •••

وبقيت واقفة ريثما تحرك هو فتبعته الى داخل الخيمة تمتاح من عرض ظهره وثبات خطواته طمأنينة المستقبل •• فتشعر بالرضاء التام واللهفة على المستقبل الحبيب الذي يحمل لها أجمل ما عاشت له في عمرها •• وأحلى ••

وضعت قدر الحليب على النار ثم استخرجت طحين الحنطة وراحت تعجنه •• « عوضني الله عن يتمي حينما جعله يحبني •• وانا احبه •• ولن

يطول اليوم الذي يصير فيه رجلي •• » ورنت اليه من تحت اهدابها المسبلة « سوف لن تعرف خبز غيري •• ستأكل من يدي فقط ما دمت حية » وتذكرت ذلك اليوم الذي جلست فيه قرب ابيها قبل ان يقضي باشهر •• وتمثلته وهو يرفع رأسه من وسادته ليقول :

ـ اسمع يا ابني هاشم •• هذي زهرة بنت عمك لك •• تتبعك على لقمة الخبز وجرعة الماء ••

« نعم •• اتبعه واتبعه حتى لو التهمت الحجارة وتوسدت ذراعي •• فليس لي غيره •• أبن عمي هاشم •• » وتنهدت ••

وكان جالسا على البساط الصوفي الجميل يقابل أباه وظهره لها •• ابوه يدخن سيجارته التي لفها بيده ويرمي نظراته الى خارج الخيمة •• حيث يهدهد احلاما بدأت تنسج خيوطها حول شغاف قلبه •• وصورة حليمة تملأ المكان امامه حتى لكأنه لا يرى سواها ابدا •• وقال وما يزال يحلم :

ـ ابني هاشم •• عليك ان تتزوج ابنة عمك •• فقد كبرت ••

وكأنه يؤكد لنفسه بان عليه ان يتزوج حليمة ثم اردف :

ـ كان عليك ان تتزوجها في الموسم السابق •• ولكن •• آه •• لو نفلح في بئرنا •• اذاً لأستطعت الزواج ••

وصمت قليلا ثم استلى ونظراته تجتاز الخيام :

ـ هي ابنة عمك وانت ابن عمها ••

وتذكر ان حليمة ابنة عمه هو •• فما دامت من بنات عشيرته فانها ابنة عمه •• تجري في عروقهما دماء واحدة ••

ولم يبد على الابن انه سمع كلمات ابيه •• كان ساكنا يدفن نظراته في أشكال البساط الملونة امامه •• حاسا بالضيق •• فان زهرة وان كانت

ابنة عمه لكن هذا لا يعني ان قلبه يميل اليها •• حقا انه احبها يوما •• ولكن ألا يكون من تأثير كلمات من حوله •• ؟ كان الجميع يرددون •• زهرة لك وانت لها •• وهكذا وجدها امامه وخيل له انها اجدر فتاة به •• اما الآن •• فانه يتشوف بروحه الى حسنة بنت هامل التي احتلت كل قلبه ، وتركته لا يقوى على نسيانها لحظة •• لقد اسرت روحه وجعلتها تنتفض كلما جال اسمها في ذهنه او طاف خيالها في رأسه •• ولكن ماذا لو رحل ابوها وتركه يلوك لواعج حبه •• ؟ « آه يا رب •• لو مطرت السماء •• لو رحمتنا •• لما رحلوا أو فكروا بالهجرة •• لا •• لا •• يجب ان لا يرحلوا •• انهم لن يرحلوا •• قلبي يقول هذا •• آه يا حسنة اسمك يعيش في قلبي •• اما انت واما فلا اريد الزواج •• أبدا »

ودفعت الطبق العريض أمامهما والخبز الساخن يملأه •• خافقة القلب •• تبتسم بمرح وهي تتنسم انفاسه الحبيبة •• !!

٥

كان الاب وابنه منهمكين في الحفر رغم البرد والتعب ، وبعض الرجال يتحلقون حولهما ينظرون بصمت وبين الفينة والاخرى يشرئب أحدهم بعنقه ملقيا نظرة الى داخل البئر الذي توغل في قلب الارض دون ان يظهر ما يبشر بشيء .. حجارة رطبة فقط .. ولكن هذا لم يثبط عزيمة الاب ، وكذلك لم ينل من حماس الابن الذي تحمس اكثر ..

وقد عرف ان هامل يتردد ولم يصل الى قرار حاسم بعد ، رغم امتلاء روحه باليأس وتيقنه من عدم جدوى كل ما يبذلونه من جهد ، فصارت عيناه تتوسلانه بالعدول بل تضيقان أحيانا وتستعطفانه للتريث .. فماذا يجني لو اسرع .. ؟ لربما تدفق الماء من البئر .. ولربما أمطرت الدنيا ورحمة الله ليست بعيدة عن عباده .. فلِمَ يتعجل الهجرة .. ؟

كان يحس بالحيوية الدافقة والنشاط الفياض يغسل ركام التعب من جسمه .. يملأ السطل من قاع البئر ويصعد على الحفر الصغيرة بجانبيه التي كانا يستعملانها كسلمين يرتقيهما بكلا قدميه .. والتراب يعلو حول حافة البئر حتى صار مثل تلال صغيرة تدل عليه من بعيد !!

وتقدمت منهم امرأة تحمل كيسا مليئا بروث الحيوانات وبعض سيقان الاشجار الجافة لتجعل منه وقودا ، وحيتهم •• فابتلع صوت الزاير جميع الاصوات وهو ينبعث من اعماقه هاتفا بتحيتها دون ان يعبأ بنظرات القوم المتطلعـة ••

كانت امرأة في منتصف العقد الرابع من عمرها ممتلئة الجسم سمراء تميل وجنتاها الى الاحمرار •• عسلية العينين •• تضحكان بمرح وجذل •• تقدمت من البئر مطلة برأسها على اغواره •• ثم قالت بنبرة ضاحكة ••

ـ الله يساعدكم •• بشرونا ••

ـ يبشرك الله بالخير يا ام سالم •••

ألم تقربوا من الماء ••؟

ـ بعد •• ما زال أمامنا الكثير من الحفر ••

ثم ارتدت متفحصة وجوه الرجال من حولها •• وكان حسين يتابعها بنظرات واسعة •• ثابتة •• « يا لك مني •• ويا بخت من ينالك يا حليمة •• » وقال هامل بتذمر :ـ

ـ يتعبون فقط ••

ـ نعم •• يتعبون فقط •• فليس في هذه الارض قطرة ماء •••

قال حسين هذا وما يزال يصب نظراته على حليمة •• وحينما التقت عيناهما •• اسرعت تهرب بهما من عينيه اللتين خيل لها كأنهما عيني نسر جائع •• وكأنما أحست خجلا من وجودها معهم •• وان كانت قد تعودت الانضمام اليهم دونما حرج •• فقالت :

ـ تركت نعجاتي مع زهرة •• وأتيت أجمـع الحطب لأشعل نارا للصغار ••

ـ مسكينة •• الموت لا يأتي الا للفقير مثلك فيأخذ النعجة التي تعيشك ••

ـ هذا أمر ربي •••

ـ نعم انه امر الرب ••

قال هامل مجيلا بصره في انحاء المكان •• والحجارة الكالحة تطالعه مستلة نور عينيه •• ثم صفق بيديه قائلا :

ـ لا •• لا تساوي هذه الحجارة بقاءنا هنا •• نتحمل العطش والبرد •• الهجرة أحسن لنا بكثير ••

وكانت حليمة قد ابتعدت عنهم حينما قال حسين بصوته الخشن وكأنه يقرر حقيقة كبيرة ••• :

ـ نعم •• هذا هو العمل الصواب •

وتلفت حوله •• كان الجميع مطرقي الرؤوس يفكرون •• فان هجرتهم من هذا المكان الذي احبوه ليست بالامر الهين •• فلا يمكنهم ان يجدوا أرضا غيرها •• ولكن ما عساهم ان يأكلوا ان بقوا هنا •• ؟ وحيواناتهم تتضور •• وجثث حيواناتهم تملأ أرض القرية •• !!

كان امرا محيرا حقا •• فان هامل وان بدا اكثر الجميع ترحيبا بفكرة الهجرة ولكن قلبه يقرصه وهو يتكلم •• ان الارض عزيزة عليه ولن يستطيع مبارحتها بسهولة •• ولكنها اقفرت ، وليس امامه غير الحجارة يلتهما واصحابه •• وفيما كان يفكر بهذا اذ بحسين اقترب منه وقال هامسا « ليس لنا غير الهجرة يا ابا حسنة لنحفظ انفسنا ومواشينا من الموت جوعا •• » ولم يكترث هامل لكلامه •• ظل يفكر ويسرح انظاره في امتداد الارض •• وتذكر انها كانت ولعام خضراء زاهية يرقص في جنباتها الخير ••

وجاءه صوت احد اصدقائه :

– ومن يضمن لنا عيشنا ان تركناها ؟

فانتهز هاشم هذه الفرصة وقال :

– نعم من يضمن لنا •• ؟ فاننا لا نستطيع الاستجداء •

وبقي هامل صامتا •• وفجأة دارت برأسه فكرة وجد نفسه يتشبث بها فردد في نفسه « نعم •• لأبق مع الجميع •• وحظي من حظهم •• » وقال آخر :

– يجب ان لا نيأس من رحمة الله ••

وتنهد هاشم وهو يلمح هامل غارقا في صمته •• فعرف انه يفكر وانه لم يقطع برأيه بعد •• وابتهل الى الله في سره ليرده عما ينتوي •• وكأن فجراً جديدا أطل على حياته بعد أن كاد مستقبله يغرق في ظلام افكاره •• فنظر اليه شاكرا •• وحبه له ينمو ويزداد !؟

٦

أسرع حسين بتناول عشائه دون أن تثبت عيناه على الطعام أمامه ·· يأخذ لقمة اثر اخرى وكأنه يسابق اباه ·· وكانت الآنية الكبيرة أمامه قد بدأت تفرغ مما أثقلها من طبيخ الرز ·· يفكر وفمه منتفخ ·· يحشوه ورأسه ممتلئة بالافكار · فكان بعيدا عما حوله ·· يهوم خياله حول بيت هامل ويدنو من خيال حسنة دونما حذر ·· يحاكي اباها ويطرف عينه لأمها · « أنت تودني يا هامل ·· أنا أعرف هذا وان جهدت لاخفائه ·· تتمنى ان اكون زوجا لابنتك ·· اعتقد انك تعرف اني اريدها ·· حسين بن جاسم يريدها ·· وانت لا تمانع ·· هذا ظاهر من حكيك معي وترحيبك بي ·· معك حق فلا يمكن أن تتزوج حسنه باحسن مني ·· فأنا لا أبالي ان مطرت الدنيا ام لم تمطر ·· انني أعرف فانت قلت هذا بنفسك يوم كنت مع زوجتك تتحدثان في ركن الخيمة ·· حسنة نفسها هي التي اخبرتني ·· واذا اردت اكثر اقول لك انني اعرف ما تقوله عني امام سكان القرية كلهم ·· فانت تمدحني على الدوام ·· واذا لم يكن لرغبتك بي فلِمَ يـ ··· »

وشرق بلقمة وأخذ يسعل بشدة حاسا باللقمة تخترق صدره وتجرحه

•• ودمعت عيناه •• فاشاح بوجهه يمسح دموعه بكفه اليسرى وكفه اليمنى تقبض على لقمة كان قد كورها ليحشو بها فمه •

وتوقف ابوه عن ازدراد طعامه ونظر اليه •• ثم قال :

ـ ما لك يا حسين ••؟ كل باتزان •

وقالت امه ووجهها ينقبض :

ـ قلبه يحكي ••• علام يا ابني صدرك يوسوس ؟

ـ لم اتكلم في قلبي •• ولكني ••

وبقي قليلا ثم نهض يغسل يده مما علق بها من حبات الرز واللبن الرائب •• وجلس تاركا انظاره تجوس امام البيت •• وكانت ليلة مقمرة يغمرها ضوء باهت •• تنهد ثم تحرك خارجا •• فصاح به أبوه :

ـ هه ••• اين ؟

ـ هنا •• لبيت هامل ••

ـ تطلع يا ابني بهذه الليلة الباردة !!

ـ بعضهم يأتي هناك وانا اريد ان اشاركهم ••

وقال في نفسه « رباه •• لا اريد ان يأتي أبي •• » ورماه بنظرات وجلة •• وتنحنح ابوه ثم قال :

ـ ليل •• وبرد •• وتطلع ••؟

ـ انا اخاف عليك يا حسين •• الدنيا غدارة ••

ـ لا •• هل انا صغير لتخافي علي !!

وضحك ثم خرج وصوت امه يأتيه مرتعشا :

ـ هذا ماء لو صقيع •• آه •• تكسرت اصابعي من برودته ••

سار متمهلا يخطو بحذر شديد ويحملق امامه بقوة ليميـــز بـــين

الاشباح •• اذناه مرهفتان لتلقف ما تصدر حوله من اصوات •• وبانت الخيام وكأنها كتل من عتمة قاتمة تسبح في موجات الليل الرقيقة ، ونباح الكلاب المتصل يترامى اليه فيزيد في انتباهه ويجعل روحه مستوفزة •• ويحرك وساوس كثيرة في صدره •• فهو وان حرص على الظهور امامهم كمن لا يخشى شيئا •• ولكنه كلام لسان وهذه الكلاب لا يؤتمن جانبها•• « عظتها قاسية » وأخذ رأسه يتحرك الى كل جهة واضعا أقدامه بهدوء مخففا من سرعة انفاسه •• تراءت له اشياء لا وجود لها فأحس بالخوف•• وحتى لو لم يخش الكلاب فيمكن ان يظنه احدهم سارقا ويرميه بطلق ناري ويفقد حياته ، وهو لا يريد هذا •• فحسنة •• والحياة •• لا •• انه سيصيح بمجرد أن يلمح أحدا •• ولا بد ان يهتف من يراه « من ؟! » قبل أن يطلق النار ، والدنيا غدارة كما قالت امك يا حسين •• عظيمة امك •• ألا ترى ؟ فهذه الكلاب لعينة لا تأبه لاحد ••

وسمع حركة خلفه •• فانتفض وقلبه تتسارع ضرباته وانفاسه توقف •• ثم سقطت يداه آلى جانبه •• وجذب نفسا طويلا وهو يتبينه شبح انسان •• فاسرع يتماسك ويبلع ريقه ليرطب حلقه الذي جف •• وتوقف ريثما دنا منه •• حملق •• فالفاها امرأة •• ثم قال بصوت جهد ان يكون ثابتا :

ـ حليمة •• لِمَ انت هنا ••؟

ـ كنت عند بيت موسى اطحن للاولاد طحينة •

وركز نظراته في وجهها وهو يقول :

ـ اتريدين ان ارافقك ••؟ الدنيا ظلام •

ـ لا •• بفضل القمر الطريق ظاهر

ـ ألا تخافين من كلاب •• من غيرها ••؟

ـ لا •• طول عمري ما خفت من كلب •

وتجاوزته وما تزال نظراته تلتهمها •• وبحنق قال في نفسه وهويزم على شفتيه •• « أمرأة تسترجل •• شجاعة •• لا تخاف من الكلاب •• » وصورتها ماثلة امامه تحتل الظلام ثم ابتسم وهو يقول « عيناها •• فمها •• وجنتاها المتوردتان •• كل شيء فيها يثير الشهوة •• انها امرأة ولا بد ان تكون قد سئمت وجودها بلا رجل اؤكد انك ترحبين يا حليمة •• فانت امرأة وأنا أعرف بكن •• اتعتقدين ان شيئا يمكن ان يخفى علي •• اعرف الانسان من نظراته •• فانت تكادين تلتهمين وجوهنا بنظراتك النهمة •• لا •• لا •• انا لست غافلا لهذه الدرجة •• فانا على الاقل عشت في المدينة وعرفت أشياء كثيرة لا يعرفها كل من في القرية •• وربما حتى عطارنا المغفل •• ايه يا حسين •• انها تريد •• واي رجل كان •• فلتكن أنت •• وتذكر حسنه « لأذهب الآن •• اقضيها مع حليمة حتى اتزوجك يا حسنة •• آه •• الواحد هنا لا يعرف ما عليه ان يعمل •• »

ومال الى يساره •• وتجاوز مربض الحمير فالفاها ممددة على الارض من الضعف والهزال والحبال في ارجلها •• وازداد حذره وهو يتحرك صوب البيت •• وعيناه تبحثان عن مكان الكلبين الكبيرين اللذين فاقا كل كلاب القرية بقوة جسميهما وفيما كان يقترب من باب الخيمة لمحهما يربضان على جانبيه •• فتوقف وقال في نفسه « لابد انهم ما زالوا يتعشون » ظل واقفا مدة وعيناه لا تفارقانهما •• وارتجفت اعماقه حينما التفت احدهما •• وجزعت ملامحه وهو يسمعه يزأر ويضرب الأرض بذيله ثم تشجع وصاح :

ـ ها •• اسكت ••

وقفز اليه الكلبان •• وأخذ يهشهما بيديه ويصيح بصوت عال : « ها •• ها •• اسكت •• اسكت سبع •• » وسبع هو اسم احد الكلبين •• حتى خرج ابو حسنة وخلصه منهما فدخل وركبتاه ترتجفان •• اسرع يجلس قرب ابي حسنة وهو يردد « كادا يعضانني •• لم استطع تخليص نفسي منهما •• » فقال هامل :

ـ انهما قويان •• اقوى كلاب القرية ••

ـ حقا •• فما رأيت كلبا يقف بوجهي مثلهما •• يكفي للكلب ان اشير عليه بيدي ليهرب •• اما هذان ••

فابتسم هامل وقال وهو يدفع بجسمه الى الخلف :

ـ كادا يأكلان كلاب محيسن الثلاثة يوم تعاركا معها •

ـ انهما يأكلان فاي كلب لا يرتد من الصيحة والضربة ••

ـ لقد ربيتهما وتعبت عليهما •• وكم ارتحت حينما طاردا الذئب دون جميع الكلاب •• لم يضع تعبي بهما •

ـ انت تحسن التربية يا ابا حسنة ••

وكان قد هدأت نفسه وتلاشى فزعه ، فأخذ يبحث عن حسنة وخشي ان تكون نائمة فيذهب ما كابده هذه الليلة بلا شيء •• ولكنه لم يستطع ان يسأل •• وامتدت يدا هامل تضعان بعض الاخشاب في النار وتلمان ما تناثر من جمر ، وقال حسين في نفسه « لو ادري ما اتيت •• لن آتي في الليل بعد •• » وفرقع اصابعه وأم حسنة قبالته تدير مغزلها •• ورفع بصره اليها وهي تصيح فاتلة رأسها الى داخل البيت :

ـ حسنة ما لك ؟ الشاي قربك في الصندوق •• والفناجين قرب

الموقد ..

وجاء صوت حسنة رقيقا .. هادئا :

ـ وجدت الفناجين وما وجدت الشاي ..

ـ قلت لك في الصندوق في مؤخرة البيت .. وجدتيه ؟!

ـ نعم .. وجدته .

وارتدت فزعة وهي ترى الرجل قرب ابيها ، فصاحت بها أمها

ـ تعالي .. ليس هنا غريب ..

ثم تقدمت حينما عرفت به حسين وجلست قرب أمها ، فضحكت اساريره وراح ينظر صوب ابيها متحاشيا النظر اليها وابتسامة صغيرة ترتسم على شفتيه .. اختلس نظرة اليها فاطرقت مبتسمة ووهج النار يزيد في حمرة خديها .. فرقصت روحه جذلى وهو يقول « انت امرأتي وليست غيرك .. » ثم التفت الى ابيها قائلا :

ـ أبا حسنة .. ماذا تقول والمطر ينحبس ..؟ هل نستطيع ان نعيش ..؟ انها سنة سوداء .. سنة قحط ..

ـ والله يا حسين ما ادري .. القضية صعبة ..

ـ صحيح صعبة ..

وساد الصمت قليلا ثم اردف حسين :

ـ ولكن يجب ان نعرف طريقنا ..

ـ هذا امر بيد الله .. آه هذي الدنيا تحير ..

ـ الله كريم ورحمته واسعة .. ولكن الانسان ما عنده صبر .. يتعجل الامور دائما ..

قالت أم حسنة فأجابها ابو حسنة :

ـ والله يا ام حسنة مثل ما تقولين •• الله كريم •• ولكن زرعنـــا يموت كما ترين •• وماشيتنا تهلك ••

فقال حسين وهو يهرب من عيون الكلبين القداحة :

ـ نحن قادرون على عمل كل شيء ••

ـ الصبر احسن •• الصبر احسن يا ابني ••

« يا ابني ، هذا هو الكلام •• انا ابنك مثلما حسنة ابنتـــك •• وسترين كيف اكون ابنا بارا لك •• على الأقل لاجل عيون حسنة » وقال :

ـ لا نستطيع ان نصبر اكثر •• هه •• ما قولك ابا حسنة ••؟

وظل ابو حسنة صامتا فترة •• قال بعدها وعيناه تشردان جائستين خلال الظلام •• وكأنه يحاول النفاذ الى الغيب :

ـ تعني ما نرحل ؟

ـ لا •• الآن لا استطيع ••

ـ ولكنك قلت •• والحقيقة انا ارى الرحيل عملا صائبا •• فلـــن نحصل هنا على شيء غير البرد والعطش والموت •• نرحل ونحافظ عـــلى حيواناتنا وأرواحنا •• ابي نفسه وافق ••

ـ انا ارى ان الهجرة نهايتنا •• ولكن نستطيع البقاء الآن •• فلعل الله يرحم المسلمين ••

والتقت عيناه بعيني حسنة •• وقال « آه •• عيناك تذوبان في عينـــي •• انا اعرف !! » وأحس بالبرد يلسع ظهره •• فتذكر ان عليـــه ان يرجع ، والخوف يتسلل الى قلبه فيهرشه •• التفت الى الباب فالفى الكلبين يراقبانه ويصعدان نظراتهما المخيفة من اسفله الى رأسه •• وندم عـــلى مجيئه •• فمن يخرج معه ؟ وكيف يميز طريقه في هذه الليلة ••؟ فلـــن

يفيده القمر والكلاب تتربص ، وامام كل خيمة .. ء يا الله يا حامي انـــا ألوذ بك .. ما كان لي ان اخرج .. آه لو أخذت كلام أمي .. ولكن ! » وقال ابو حسنة

– نصبر ونشوف تالي صبرنا ..

– حسنا .. أنت أعرف !!

وازدحم رأسه بصور كلاب القرية .. وتذكر الكلب الذي عضـه في فخذه وكد يمزق بطنه .. وفوق هذا كله انه لم يأت حتى بعصـــا في يده « استطيع ان آخذ عصا من هنا .. » وقال ابو حسنة :

– تقول ان اباك سيهاجر ...؟

– نعم ...

« ماذا اقول لهم ..؟ اريد عصا .. نعم .. ولا شيء بها .. ولـكن سيتساءلون في انفسهم : كيف أتى ؟ لا .. لا .. كلنا لا يستطيع ان يسير قدما واحدة بغير عصا .. (نعم) اطلب منهم » ونظر الى حسنة فالفاها واضعة خدها على كفها تنقل نظراتها بينه وبين ابيها .. وقال هامل وكأنه يخـاف من شيء بعيد :

– ليبق .. كلنا نهاجر مرة واحدة .. أحسن

– سأخبره بهذا ..

« لن آتي بعد هذه الليلة .. فانا استطيع ان أراها في النهـــار .. اراها متى أريد .. ولكنني .. آه .. الليل مليء بكل شيء وخاصة الكلاب .. في المدينة الواحد منهم يصرخ عند رؤية الكلب .. وهنا أيضـــا .. يخافون في حقيقتهم ويتظاهرون بالشجاعة .. أوه .. احصل على عصـــا وليكن ما يكون ..!! لابد انهم جميعا يحسون ما احس به الآن عـنـدما

يكونون وحيدين •• وان كنت قضيت عمري في المدينة •• انا اجزع الآن وبعد قليل اكون في البيت مرتاحا وقد انزاحت هذه المخاوف •• »

وما ان انتهى من فنجانه حتى نهض قائلا :

ـ ظلت العافية عندكم •• اريد عصا •• الدنيا ظلمة ••

ونادى هامل على ابنته :

ـ حسنة •• ناولي أخاك عصا ••

فنهضت متاقلة وهو يرقبها •• فأتت له بها •• وابتسم لها وهو يأخذها منها •• بينا خرج هامل معه ليخلصه من كلبيه •• وفيما هو يشير عليهما بالصموت •• قال :

ـ كلبان عظيمان ••

ـ حقا ••

واسرع يحث خطاه ووساوس صدره تلعب زارعة طريقه اشباحا كثيرة •• وجهد ان لا يثير صوتا مخفيا عصاه بجانبه حتى لا يراها كلب عابر فتثير غضبه •• يتوسل الى الله في سره ليقيه شر هذه الليلة •• فما هو من رجال الليل !! وكل انسان يخاف ان يصيبه مكروه •• وهؤلاء الفلاحون من ابناء عشيرته لا يبالون سواء خرجوا جماعات او منفردين •• ولكنهم تعودوا •• اما هو فما يتذكر منذ أتى من المدينة مرة استطاع ان يهزم كلبا حتى لو تجمعت بيده مئة عصا •• ألم يعضه ذلك الكلب الاسود الكبير ويقعده اياما ••؟ « الانسان يستطيع ان يتحمل كل شيء الا عضة الكلب •• ومرات يقتل اناس •• هكذا يسيرون ولا يدرون بشيء مثلي وفجأة تنطلق رصاصة تسكت قلوبهم •• آه ها انذا اصل •• » ولم يستطع ان يسير كما كان يسير بل صارت مشيته بين الركض والسير المعتاد ••

وقفز الى داخل الخيمة فقال ابوه وكان ما يزال يقظا :

ـ حسين ..؟!

ـ نعم يا ابي ..

ومثلت حسنة في مخيلته وهو ينفث نفسا طويلا كان قد انحبس في صدره شاعرا بالارتياح !!

٧

لم يدر هاشم الا وهو بين اليقظة والنوم حينما احس بحركة في حضيرة الاغنام ، ففرك عينيه وفتح اذنيه ليسمع •• ومرت لحظات خيل له ان ما سمعه شيئا من وحي الوهم فأراح رأسه على الوسادة وبقي يفكر •• « انني لا استطيع ان اتزوج وزهرة هنا •• فهي تحبني •• وابي يردد على مسامعها امر تزويجي بها •• وانا لا أريد يا الهي •• ولكنني لن اتزوج •• سابقى لعل الله يأتي لها بمن يتزوجها وحينذاك أقدم •• فحسنة جميلة ومرحة وانا احبها •• نفسي تميل اليها رغما عني •• والأمر أمر نفوس ••» وسمع الصوت مرة ثانية •• فهب واقفا بسرعة وأمسك ببندقيته •• صوت ارتطام بالأرض •• اخرج رأسه من الباب يتطلع •• بحث في المكان بعينيه القويتين •• وغمغم •• « يستطيع ان يتوارى خلف خروف •• » ثم ترك البيت وتقدم الى الغنم •• وشعر بحركة بينها •• فهي جافلة •• يبدو عليها الخوف ••

ولم يتقدم غير خطوتين حينما شعر به يخترقها ويقفز من الحضيرة حاملا حملا صغيرا •• فذهل للحظة ثم اسرع يزيح الشوكة الكبيرة التي

تسد باب الحضيرة وانطلق يعدو في أثره بكل سرعته .

وكان الفجر ينير الافق وتباشيره تتغلغل في احشاء الكون مخفتة الظلام .. فافلح في رؤيته وهو يسابق الريح بعيدا عنه .. وكان ذئبا كبيرا .. فعض هاشم على نواجذه يقول : « لابد ان يكون قد اخذ كثيرا منا .. لربما كان طول الليل يأخذ وانا نائم .. » وبكل قوته أخذ يعدو باتجاهه ..

وكانت الارض فسيحة .. معتدلة .. تمتد مع النظر .. تتناثر فيها هنا وهناك اشجار النبق البرى .. يركض عاضا طرف ثوبه والبندقية في يده تتحرك حركة سريعة مع حركة يده اليمنى .. الى الأمام والى الخلف .. والذئب يعدو امامه ملتفتا بين لحظة وأخرى .

لم تكن المطاردة تجديه .. فهو وان كان سريع الركض لكن الذئب كالسهم . فتوقف ينظر اليه .. مبهور الانفاس ، والاخير يعدو وما يزال حاملا الخروف الصغير ثم رآه يعرج ناحية مجموعة من الاشجار الجرداء .. وعندئذ تحرك من طريق آخر ليفاجئه في تلك الاشجار .. وتساءل وهو يعدو : وماذا لو لحقته لأجده قد فرغ من التهامه ؟ فاسرع في عدوه يبتهل الى الله لئلا تسبق انياب الذئب اليه ..!!

وزاد من سرعة أقدامه مقتربا من الاشجار .. وحينما رفع الذئب رأسه رمقه بنظرات نارية غاضبة .. فجلس هاشم على ركبتيه وصوب بندقيته الى صدره ، وقبل ان يضغط على الزناد كان الذئب قد وقف على قائمتيه الخلفيتين .. ومع انطلاقة الطلق .. كان الذئب يجري بعيدا .. تاركا الحمل في مكانه ..

اسرع هاشم اليه .. وبلهفة امسكه وأخذ ينعم النظر به فأحس

بروحه تزهق وهو يراه مذبوحا والدم يتدفق من عنقه •• ونظر الى جهـة الذئب والغضب يلهب جبهته •• ثم تأفف وارتد راجعا ••

وما ان اجتاز المكان ببضع خطوات حتى لمح جمعا من القرية يتجـه نحوه فعلقت عيناه بهم وقدماه تثقلان •• وكان ابوه يسير في المقدمة ••

وقبل ان يتفوه بكلمة كان ابوه يقول بصوت متقطع وهو يلهث :

ـ تخرج هكذا •• لوحدك ••؟

ـ وماذا في هذا ؟

ـ لا يا ابني لا •• كان عليك اخطارنا على الأقل ••

ـ لم استطع •• ألا ترون مع سرعتي لم ألحق به الا وهو يذبحه

ـ الذئب اهون •• فقد خشيت ان يكون غيره •• لو كانوا لصوصا مثلا فهل تطاردهم لوحدك ؟ لا يا ابني •• لا ••

ـ كنت اعرف انه ذئب •

وتقدمت زهرة منـه •• رنت اليه وابتسامة حلوة تنطبع على شفتيها من خلال انفاسها المبهورة •• وتناولت الحمل منه ثم قالت :

ـ لو كنت قد قلت كلمة واحدة •• لكنت معك ••

ـ لا حاجة لي بأحد ••

ـ مهما يكن الأمر فان الواحد يحتاج لغيره ••

ولم يجبها بل مضى يسير بينهم •• ثم قال :

ـ تأخرت •• فلو اسرعت اكثر لما ذبحه ••

ـ الموت يأخذ •• والذئب يأخذ •• ونحن ••

قالت زهرة هذا فرد الأب :

ـ امر الله يا ابنتي •••

لم يعرها التفاتا ونظراته تنشد الى امام متجهما •• يفكر في الحمل الذي راحت حياته لدقائق ، وقابل الناس بنظرات منطفئة فقالت زهرة في نفسها « هكذا دائما •• يكاد يقتل نفسه كلما راح منا خروف •• ولكنه أمر الله •• » وما ان اقتربوا من القرية حتى التفت اليها قائلا والاسى يعتصر ملامحه :

ـ اعطيه للكلب ••

وكان بعضهم قد خرجوا من القرية على الخبر الذي تناثر فيها متأخرين •• وكل واحد منهم يتخيل سببا لمطاردته حتى عرفوا •• وحينما قابله حسين قرب بيتهم قال :

ـ لم تلحق به •• لو كان احد معك لانقذته ••

ـ لا •••

ـ لا ••؟ كيف ؟ كان يمكن ان يراكم من جانبيه فيلقيه ارضا ويهرب •

ـ لو كنا عشرة لما استطعنا •

ـ لا •• الواحد عن الجماعة فرق ••

وهنا ضحك بألم وهو يرد عليه

ـ ألأجل حمل صغير خطفه ذئب اجمع الناس ؟•• اذاً لالتهمه وما عثرنا على غير جلده •

ثم هز كفه متأوها ومضى •• وفيما كان يأخذ مكانه قرب ابيه قال ودون ان يوجه الكلام لأحد :

ـ لم يكفها ما تسلبه من الكلاب من الحيوانات الميتة •

فرد ابوه عليه :

ـ الذئاب تعاف الميتة حينما يتيسر لها اللحم الساخن

ـ يتيسر لها اللحم الساخن ••؟ نحن نيسره لها بغفلتنا •• لو كنت حرست لما استطاع ان يدخل •• لكن ••

وقدمت امامهما الطبق العريض وعليه أقراص الخبز الطازجة ثم أخذت تملأ فناجين الشاي وتدفعها اليهما •• لم تنظر اليه فقد بدا عابس الوجه منقبضا •• وسرى شعور الانقباض اليها هي الاخرى •• ونظرت اليه وكأنها ترغب في استكناه حقيقة شعوره من تقاسيم وجهه قائلة في نفسها •• « انه يحب الحملان مثلي •• يقتل نفسه عليها حزنا •• » وكان الأب يرتشف شايه ويدفع بقطع الخبز الى فمه •• حزينا •• احتفر الألم في ملامحه غضونا كثيرة •• وكأنه يجيب احدا قال :

ـ مكتوب علينا هذا الامر •• التي لا تموت تخطفها الضواري ••

ومرت كلمات الأب مرور السهام على ابنه وهو يداري مشاعره ويفكر في أمر نفسه •• فامور الدنيا تأتي من حيث لم يحسب الانسان •• ولربما أتى من يخطبها منهم •• وهو قد احبها وانتهى الأمر •• ولكن هل في مكنته ان يطلع احدا على ما في قلبه ••؟ وابوه لا يني يصرح بانه سيزوجه من زهرة •• « آه •• هذا يعني حتى لو كان هناك من يود الزواج منها فسوف يمتنع •• ولكن الله كريم •• الله كريم •• »

ونفض ثوبه امامه ثم استوى قائما •• تاركا البيت •• فصاح ابوه :

ـ الى أين ••؟

ـ هنا •• ابي ••

ـ السنا نريد التوجه الى البئر ••؟ فلم تذهب ؟

ـ قليلا وارجع ••

واكتفى الأب بان غمغم : « مل الحفر وهؤلاء الناس يثبطون من همتنا •• » ثم الى زهرة :

ـ زهرة •• شوفي لي المسحاة والفأس والسطل ••

ـ تلك هي جميعها ••

وادار رأسه مع اصبعها فوقع نظره عليها وما يزال بعض الطين اليابس عالقا بها •• وقالت :

ـ يبدو ان الماء قريب ••

ـ لا أدري •• لقد حفرنا لعمق كبير ••

وكان الأبن قد ابتعد عن البيت شاقا طريقه الى جهة الغرب متخطيا بيت هامل •• وعرف ان حسنة قد تركته مع غنمها حينما ألفى الحظيرة خالية •• وأخذ يرسل النظر بعيدا •• وحينما لمحها تظاهر بانه لا يعلم بوجودها •• مواصلا سيره يتعثر ببعض الحجارة •• ثم نظر اليها فشعر بانها فطنت له •• وحاول ان يعرج الى جهة أخرى ولكنها صاحت به بصوت صداح :

ـ هاشم •• طلعت زهرة بغنمها ••؟

ـ لا •• تركتها في البيت ••

فاتجه اليها وكانت واقفة تنقل نظراتها بينه وبين القطيع السائر وبين الفينة والاخرى تصيح هاشة لغنمها •• « هووو ••• ها •• » وما ان دنا منها حتى بادرته :

ـ لقد رأيتك اليوم وانت تلحق الذئب ••

ـ وما الفائدة •• لقد ذبحه ••!!

ـ انتزعته منه وتركته جائعا •• وهذا افضل بكثير من ان يأخذه ويتمتع بلحمه ••

وكان ينظر اليها غارقا في صمته •• وارتعاش قلبه يـزداد •• فضحكتها •• حلاوة صوتها •• وجنتاها •• كل شيء فيها يجعل القلب يخفق خفوقا شديدا •• حسنة الحلوة •• تكون امرأتك يا هاشم اذاً لما طلبت شيئا آخر •• رغبتك في الدنيا هي •• تحبها وتحبك •• وتكون امرأتك•• شيء عظيم •• وقالت :

ـ أنت شاب دونهم كلهم

فنظر اليها •• ولمس صدقها من التماع حدقتي عينيها ••

فقـال :

ـ كلنا هكذا •• ابناء العرب ••

ـ لا •• انت غيرهم ••

اسمع يا هاشم •• انت غيرهم •• حسنة تقول هذا •• « يا رب من اين طلعت الشمس ••!! انا غيرهم فهي تحبني •• وانا احبها حتى جذور الاعماق •• » ومد نظرات مرتعشة اليها ثم قال وشفتاه تنفرجان عن ابتسامة مرحـة :

ـ وانت غيرهن يا حسنة ••

فضحكت ملء فمها وقالت :

ـ حقا ••؟ من كل قلبك ••؟

ـ نعم يا حسنة •• من كل قلبي •• فانت احلى ••

وضحكت ثانية ملتفتة الى كل الجهات ، وهم ان يقول لها :

انا احبك يا حسنة •• احبك بقلبي وروحي •• ولكنه لم يستطع •• ثم بدأت تتحرك وهي تقول :

ـ ابتعدت الغنم •••

بقي واقفا •• يرسل اليها نظرا متلهفا •• ثم وسع من خطواته صوب البيت •• فالتقت زهرة به في الطريق وقالت :

ـ هاشم •• عمي ينتظرك ••

وحينما دخل البيت كان ابوه جالسا يتطلع اليه •• فبادره :

ـ من وقت وانا اعاين لمقدمك ••

ـ هاقد أتيت يا أبي ••

ـ هيـا ••

وحملوا الأدوات متخذين سمتهم صوب البئر !!

٨

« لولا العمل ما وجد انسان على الأرض •• حتى الحيوانات السائمة تعمل وتأكل •• » فكر بهذا ثم قال في نفسه : « هاشم راح •• اتعبه العمل وآلمه البرد ولكني انا الذي يجب ان يعمل •• حتى أريهم انا ابو هاشم •• ما قلت عن شيء الا وكان صوابا •• ولكني أتسرع أيضا •• لما قال العطار ستمطر الدنيا آمنت به وامسكت المسحاة •• هي مطرت حقا •• بضع قطرات •• لهم الحق •• من قدَّر ما قدر •• ولكننا في الشتاء الماضي خربت بيوتنا حينما مطرت دونما انذار •• آه لو مطرت وخربت بيوتنا •• لا •• لا •• نحن نسبق الأمور ونجلب النحس •• يا ابني يا هاشم لو تتحسن صحتك وتسترد عافيتك •• انت لا تعرف ان قلبي معك الآن ، ولكني مع هذا أحفر •• وأخرج الطين بالسطل •• انا ابوك لا اعرف التعب •• ولكن لو كنت معي لكان افضل لنا •• يا رب اشفه لي يا رب •• هذي الأرض تريد والعيشة تريد وانا وحيد •• فهاشم لن يبقى معي طويلا يتزوج ويروح وانا أظل •• لو تمطر الدنيا •• لو يطلع الماء اذاً لتزوجتك يا حليمة •• تنظرين للرجال واللهفة تلعب بعينيك •• والدنيا تدور حولك

وانت وحيدة •• انت تريدين •• اعرف هذا من عينيك الحلوتين واخاف عليك من الرجال •• امرأة جميلة وشابة وبلا زوج •• يصعب عليك يا حليمة •• ساعدك الله فالوحدة لا تحتمل •• ها انذا ابقى وحيدا نصف نهار واجزع فكيف أنت ••!! لا •• سأتزوجك فقط ادعي الله •• ابتهلي اليه •• فعليك ان تهتمي بي وليس هناك من يفكر بك غيري •• وانت لا تدرين بان وجهك طالع امامي طول النهار •• انا احب ان اساعدك وأخف لك بكل مناسبة وانت لا تهتمين •• امسك اطفالك واقبلهم ولا ارى منك شيئا •• كان عليك ان تعرفي باني اقصدك •• أعمل كل شيء لأجلك •• فقط تحركي وافتحي عينيك •• فالدنيا لا تؤتمن •• وانت وحيدة بلا زوج •• لا •• سوف لن تكوني وحيدة •• انا لك •• انا لك •• آه حينما سمعتك تبكين أول من أمس تمزقت روحي •• وخفت ان يكون احد الاولاد قد اصابه أذى •• حتى قلبي تقطع وانا اسمعك تصرخين « يا دهر ياما حاربتني » وقلت « اسكتي يا حليمة ولا تتألمي •• فسأغسل دموعك بحب قلبي •• ولن يحاربك الدهر وانا اهتم بأمرك » مالك يا حليمة ؟ انا لا استطيع ان اقول لك شيئا •• اخاف ان يقولوا : رجل كبير يهتم بنفسه ويخلي ابنه •• ولكن هاشم سيتزوج •• وانا ايضا •• حينما طلعت علي من وراء الهضبة ذاك الصباح دق قلبي وهرعت عيناي اليك •• ام سالم امرأة نادرة •• قلت هذا والكل جالسون •• وانت تأتين وتروحين دون ان تهتمي بامري •• لا يا ام سالم انا اعتب عليك •• »

ورفع السطل مليئا بالطين •• ووضعه على كتفه وفتح ساقيه وأخذ يتشبث بالدرجات على جانبي البئر صاعدا •• وعضلات ساقيه تتكور وتتصلب وما ان القاه على الارض حتى اتكأ على راحتيه وراح يتنفس بسرعة

« عمرنا كله نقضيه بالتعب والضيم •• ولكن ساعة فرح واحدة تكفي لجعله كله جنة •• آه يا حليمة •• تعصبين رأسك وتلبسين السواد حزنا•• انا اراهن انك وجدت نفسك اكثر جمالا بملابسك هذه •• حنون رجلك أخي وأمرك انت يهمني •• صحيح هو زوجك ومن حقه عليك ان تحزني عليه •• فهو يستأهل الحزن واكثر ولكني اعرف انك امرأة •• والمرأة لا تصبر •• تخرجن حنطة وتبعن شعيرا •• معروف يا ام سالم ومثلك لا تبقى بلا زوج وهي متعدية الثلاثين بقليل •• فلو خطبتك الآن لرقصت جذلا •• فان وراء اعراضك عن الرعي مع بناتنا اشياء •• انت تقولين « هن بنات وانا امرأة كبيرة •• » ولكنك تتظاهرين فقط !! »

وكان يعرف ان حليمة لا تأخذ نعجاتها الى نفس المرعى مع الفتيات • بل هي تعتزلهن دوما •• ترعاها وتجمع ما يقع في طريقها من روث الحيوانات وجذور النباتات توقده في البيت •• ولكنها كانت لطيفة مع الجميع •• ومثل ما قالت ام جبر لزوجها « عساك ان تقصدها بامر •• » فهي تبذل جهودها لمعاونة الجميع ••

وهم بالنزول والسطل في يده •• حينما اتاه صوتها :

ـ أبا هاشم ••؟

فالتفت اليها مبتسما •• وقد انبسطت ملامحه خجلا وكأنه خشي أن تكون قد سمعت ما هجس به صدره •• واردفت :

ـ الله يساعدك •• هه اين هاشم ؟

ـ هاشم موجود في البيت ••

ثم تابع :

ـ رأسه آلمه قليلا فراح لينام ••

- الله يساعدكم •• تعب وبرد •• هذا البرد لا يطاق ••

- مثل ما ترين يا أم سالم •• فما نريد غير عون الله •• نتعب ونحتمل البرد لعل الله يرزقنا بالماء •• لنا ولهذي الحيوانات التي اكل الجفاف لحمها •

- طول عمري ما رأيت مثل هؤلاء الناس •• كان عليهم ان يساعدوكم على حفره •• بعد أيام يأتون كلهم ••

- تريدين يا أم سالم أن أعتب عليهم ••؟ انهم يضحكون منا قبل ان نطلب منهم معونة •• والله لو يتركوننا فقط لما اردنا منهم شيئا •

أحس بالحرج من وجودها معه •• وحيدين ، فأخذ يلتفت يمنة ويسرة •• ها هي أمامك يا زاير راضي •• وليس معكم احد ، وانت روحك تغوص في مخاوفك •• احزم امرك وقل لها ما تريد •• انت مع من تود فقط •• بعيدين عن عيون الناس •• فماذا تريد اكثر ؟! لو كان واحد غيرك لما ضيع فرصة كهذه •• ولكنك أنت دائما هكذا •• لا تعرف لسانك الا حينما تكون لوحدك •• تجلس في بيتك وتتصور نفسك مقداما •• تقول سأقول لها وسأمسكها من يدها •• اذهب لبيتها •• ها هي تنتظر ولا تحتاج منك الى جهد •• قل ما تريد •• تشجع وقل •• والا فانك لن تعرفها بعد الآن •• لا •• لا •• يا عيب !! ماذا يقول الناس ؟ زاير راضي بكبره وهيبته ووقاره امسك بيد حليمة وقال لها •• « استغفر الله •• لأنتظر أحسن •• فماذا يضيرني اذا صبرت ••؟ نعم •• الزرع لا ينضج بيومين •• ومن الآن لبكره مئة امر يحدث !! »

وتحرك قليلا مستديرا حول نفسه ليمسك بالسطل •• ووقعت أنظاره على قدميها الحافيتين •• « اجل من الحكمة ان اترك الأمر الآن •• فلو حدثتها الآن ورفضت او شهرت بي •• لصاحوا كلهم •• « الله •• الله كل

يوم يطلع جديد •• زاير راضي يعمل مثل صبي مغرور ، لا والله لا اتكلم الا اذا رأيت منها ما يضمن لي رضاءها •• والناس في هذا الزمان يتشممون اشياء الناس •• والانسان الخير من حفظ نفسه من السنة الناس •• آه » •

وتأوه بصوت مسموع •• فمدت نظرتها اليه بعد ان استرجعتها من التطواف في الحقول وحول نهايات الأفق •• وقالت وهي تنظر تارة اليه وأخرى الى السطل :

ـ انت تحفر وانت تخرج الطين ••!! الله يساعدك !

ـ وماذا اعمل وهاشم مريض ؟

ـ انت رجل شغل يا ابا هاشم ••

ـ الدنيا تريد •• يا أم سالم

ـ صحيح •• نغسل احزاننا بعرق اجسامنا ••

وترك السطل على حافة البئر ثم نزل فاتحا ساقيه واضعا قدميه في المدرجات على جانبي البئر •• وتلفتت للحظة « زاير راضي رجل لا يبالي بالتعب •• وليس مثل باقي الرجال استمرأوا الاستلقاء حول النار حينما ينزل المطر •• وهي تأكل الحطب وتأكل من اعمارهم الكثير • وهو لا يريد أن يضيع شيئا من أيامه •• لكن لو يكافئه الله ويتدفق الماء •• وهؤلاء الناس بدل مساعدته يسخرون منه •• » وتقدمت فامسكت بالسطل قائلة :

ـ خذ زاير ••

ـ لا حليمة •• لا •• روحي اجمعي الحطب لكم ••

ـ جمعت كثيرا •• دعني اساعدك ••

- لا •• نار الشتاء آكلة ••

- نساعدك يا زاير حتى لا يكون شربنا حراما علينا ••

« حرام عليكم •• انت حليمة !! والى هذه الدرجة لا تفكرين بي مع اني افكر بك ليل نهار •• آه لو تعلمين •• اني لولا هاشم لكنت قد تزوجتك من زمن •• حرام عليك ؟ ابدا •• الا اذا حرم طعام الرجل على أهل بيته •• لا •• لا •• يجب ان لا تفكري هكذا •• فانا لو نجحت في حفر البئر وتدفق الماء لما حرمته على احد •• والله يعلم اني ما فكرت بمثل هذا ابدا •• والايام تدور وسترين •• »

كان ثوبها قصيرا •• يبلغ منتصف ساقيها السمراوين متمزقا من طرفه فوق الركبة اليمنى •• وشريحة طويلة منه تتدلى على ساقها تلك وقد تمنطقت بعباءتها الصوفية السوداء •• تقدمت بحذر مشرفة على حافة البئر •• وفرجت ساقيها وانحنت قليلا وهي تجذب السطل بالحبل •• ورفع رأسه اليها في تلك اللحظة ثم ردّ بصره فزعا •• امتلك الخوف حواسه •• فسمّر عينيه الى الأرض لئلا ينظرها مرة ثانية •• وارادت ان تعيد السطل •• لكنه لم ينتبه لها •• فقالت :

- خذ يا زاير ••

ورفع رأسه مرغما •• ورأى فخذيها البضتين للمرة الثانية •• فاسرع يدفن نظراته في الطين •• « يا الله •• من أين أتت هذه المرأة •• لو تذهب •• لو تتركني وتذهب •• » ساقاها •• بياض فخذيها العاريتين ينطبع امامه على الطين •• » « رأيتها وهي لا تدري •• رباه •• أخاف ان

تفطن •• فماذا تقول ؟ لا •• يجب ان لا انظر •• حرام عليك يا زاير •• اعراض الناس غالية •• ولكني لم انظر •• يا رب انت تعلم اني لم اتعمد النظرة •• » واضطر الى رفع نظراته اليها وهو يدفع السطل •• فخـذاها سمينان •• بياضهما يسرق العيون « •• ما هذا ؟ هل فقدت شعوري حتى افكر بهذا ••؟ المرأة لا تدري وأنا افكر •• علي اللعنة •• وهي ستصبح زوجتي بعد أيام •• امتلكها كلهـا •• واذاً فمـا في نظـرتي ما دمت سأتزوجها ••؟! »

وارتفعت نظراته من فوق اهدابه ولامسـتا الفخـذين برفـق •• « يا ساتر يا رب !! احمني من نفسي الساقطة •• عيب •• عيب •• والله عيب •• رجل بكبري وشيبتي ويفكر بهذا •• علي ان استحي •• فـلا يجب ان انظرها حتى تنضم تحت جناحي •• فلو فطنت لربما صـرخت بوجهي •• « يا سافل •• يا كلب •• انت زاير ••؟ لا •• انت ساقط •• لا عرض ولا شرف •• اردت مساعدتك وانت تنظر الي بسوء •• استح •• استح •• كان علي ان لا اجيء قربك •• انت السافل •• المنحط •• مثل ما قالوا •• تراه كبيرا وهو حقير •• هذي هي الدنيا •• ان تعمل خـيرا يأتك شر •• رجل ووقور •• ماكنت أدري ان الحية موجودةبكل جحر •• وبخوف ردد في نفسه : « لا ياربي •• ادركني •• فماذا اقول لو فطنـت لنفسها ••؟ » فقال :

ـ ام سالم •• أرجوك خلي السطل ••

ـ ابو هاشم •• صدق تحكي ••؟ انت تعبان ••

ـ خلي السطل •• فانا أريد العودة ••

ـ ما زالت الشمس مرتفعة ••

ـ لا يضر •• اريد ان استريح ••

ـ حسـنا ••

وانهمكت تنظف السطل وهو يصعد الى الأرض •• قائلا في نفسه « الناس لها الظاهر •• فما يهمهم باطن الانسان •• فمن يدري ما الذي سيحدث لو بقيت ••؟! »

٩

ما ان دلف هاشم الى البيت واحتواه عندما اعتذر لأبيه بمرضه حتى وجد الضيق يتسرب الى اعماقه ويعتصر روحه .. فظل واقفا في وسطه وعيناه تجولان في انحائه « كذبت على ابي وتظاهرت بالمرض وتركته وحيدا يعمل في البئر .. » لماذا يا هاشم تعمل هذا العمل ؟ غيرك لا يترك اباه لوحده لا .. خاصة وانت لست كالشبان الآخرين .. انت مثل ابيك .. هو عجوز ولا يكل ولا يمل .. حياته بالعمل .. وانت تتركه .. خيانة هذه والله .. وجريمة لا تغتفر .. ولأي شيء ..؟ لتبقى هكذا تدير انظارك في البيت كأبله ..؟ لا .. لم تعمل خيرا .. خدعتك اوهامك يا هاشم .. فاين تذهب ..؟ ألم يكن خليقا بك الآن ان تكون بجانب ابيك ؟ تخفف عنه وتحمل قسما من العمل بدل ان تتركه للتعب والوحدة يلتهمانه .. فليس هذا من عمل ابناء الخير يا هاشم .. زعمت انك تذهب الى حسنة وتخبرها بحقيقة شعورك .. تقول لها انا احبك يا حسنة وارغب في الزواج بك .. هيا اذاً تحرك وقل لها بما تريد .. أم انت الآن كما كنت دائما .. تحجم .. ولكن لربما كانت في البيت مع

اهلها •• لربما كانت خارجة •• او •• لا •• انت تختلق الاعذار •• انت دائما تتصور اشياء وتعمل غيرها •• كان عليك ان لا تترك اباك وانت تعرف نفسك ان ليس بمقدورك عمل شيء •• « اوه •• يا عيب فلو رآنا احد نتكلم •• او فاجأنا ابوها •• فماذا اقول ••؟ علي ان اتصرف بحكمة •• العقل زين يا هاشم •• ولِمَ لم تفكر بهذا قبلا ••؟ كان عليك ان تعرف هذا من زمان فلا تترك اباك وحيدا •• لا •• ليس هذا عملك •• عملك انت هناك بجانب ابيك •• ولتترك الايام لتعمل ••

وانتبه لوجوده واقفا قرب العمود ممسكا به بيمناه وكأنه يتبرك به •• ثم تركه وتحرك خارجا •••

اتخذ سمته صوب الجنوب متخطيا بضعة بيوت •• وسلم على محسن ، وكان الأخير يطعم حصانه شعيرا وواصل سيره ثم عرج الى الغرب وترك عينيه تتسللان الى داخل بيت هامل باحثة عن حسنة •• وقبل ان يتجاوزه سمع هامل يناديه ، فاستدار على عقبيه دونما التفاتة وسار الى مكان الضيوف حيث كان هامل مستلقيا يتكيء على وسادة مرسلاً أنظاره الى الطريق « هذا الرجل يودني كثيرا •• سيعطيني ابنته ولا يمانع •• » وحياه ثم اتخذ مكانه الى جانبه •• فنظر هامل اليه لحظة ثم قال :

ـ تركتما بئركما اليوم ••؟

ـ لا •• فابي يعمل به وأنا ••

ـ مللت •• اليس كذلك ؟

« يقول هذا الرجل اني مللت •• يفرحون لو تركناه وآمنا مثلهم بلا جدوى العمل •• يا لهم من قوم فما يضيرهم ؟ لو كان غيرهم مكانهم لتعاونوا معنا •• ولكن هؤلاء الناس •• يا رب •• لو تساعدنا وتفجر

الارض بعد ان منعت السماء •• يا رب لو عوضتنا وجعلت هـؤلاء الناس يعرفون •• » وقال :

ـ لا •• ابا حسنة •• ولكني أحسست برأسي يؤلمني ••

ـ يؤلمك •• وكيف لا وانت تقف في هذا الهواء البارد ••؟ أنت رجل قوي حينما لم تمرض من أول يوم •• كيف انت الآن ••؟

ـ اشكرك •• لقد ارتحت كثيرا ••

ـ اذاً ابق هنا •• حتى يزول ألمك ••

وصمتا لحظة •• عاد هامل بعدها ••

ـ لا يوجد من يحرم لذة النار في هذا الشتاء •• وانت تقضي وقتك في الخلاء •• تحفر لتبحث في الأرض الصلدة عن الماء ••

ـ هل تقول انه لا يوجد ماء ••؟

ـ نعم فلو كان موجودا لعثرتم عليه ••

ـ انه موجود يا ابا حسنة •• ولكنه بعيد ••

« أهكذا يا ابا حسنة ••؟ أرضنا هذه تريد ان نتخلى عنها •• آه لو تعرف » •• ثم بصوت عال :

ـ أرضنا طيبة يا عم ••

ـ صحيح ارضنا طيبة •• ولكن اذا نزل المطر فقط •• انه المطـر يا هاشم وليست أرضنا ••

ـ ولو حصلنا على الماء من غير المطر •• ألا تعطي ••؟

ـ كل أرض تعطي لو تجد الماء ••

ـ الايام ما زالت امامنا يا ابا حسنة •• ولسوف يرحمنا الله ••

ـ اما البشر فاني لا اعلق عليها املا •• اما الدنيا •• فعساها ان تمطر

ـ اذاً لِمَ تهاجرون ..؟

ـ لأن زرعنا وحيواناتنا تموت .. وبغيرها لا بقاء لنا .. فتأوه هاشم وهو يعبث باصابع يديه .. ثم قال :

ـ الناس ينقصهم الصبر ..

وتأفف .. « لولا حسنة لما خشيت رحيلكم .. ولكنك ابوها .. وانا لا أريد ان ابتعد عنها .. حسنة التي دخلت قلبي وجعلتني اتطلع اليها بعيون خائفة .. لولاها لما اكترثت » وقال هامل وهو يمرر اصبعه على شاربيه :

ـ أنا لا أرحل الآن .. ولكني اقول اننا لو نرحل لكان احسن لنا من بقائنا هنا ..

ـ لأي مكان ..؟

قالها ونظراته تلعب بين اخاديد جبهته .. « اني اعرف انكم لا تجرؤون على ترك المكان وغيركم باق .. فانتم تريدون الناس كلهم يرحلون معكم .. لئلا تمطر الدنيا ويصيب الخير غيركم .. فتموتوا ندما وحسرة .. واين يمكن ان تجدوا مكانا ..؟ كل الأراضي لأهلها .. » واجابه هامل :

ـ نشتغل في أرض اخرى .. نشارك اصحابها بعملنا وعمل حيواناتنا .. فنبقى على البقية الباقية منها ..

« واذا لم تجدوا ..؟ تظلون تطرقون الجهات تتوسلون .. وحينذاك تعرفون قيمة الأرض ، وما تمنحه لكم من عزة وكرامة وشرف .. انتم بدونها لا تساوون شيئا .. »

ـ لا ابا حسنة .. قيمة الانسان بأرضه ..

ـ صحيح .. وانا نفسي تركت هذا الأمر الآن .. الى ان ..

ـ حسنا .. فلعل الله يعجل برحمته ..

« انت لا تدري اني أحب ابنتك •• فلو عرفت •• لـــو استطيع أن اقول لك •• لا •• لا •• الا اذا جننت •• لا مال ولا زرع والمـوت يخيم واقول ••؟ انا أعرف •• وسوف لن أتفوه بشيء الا بعد ان يكون لدي ما ألبي به طلب مثل هذا الرجل الذي سوف يغالي بكل شيء •• فانا اعرف ما سيطلبه مهرا لأبنته •• كذا نقود •• وكذا رؤوس غنم •• و •• و •• لا •• هذا الرجل يحلم •• فاني سأقنعه وآخذها منه فقط لو تتزوج زهرة •• فلو تكلمت الآن لقالوا لي •• اذهب لابنة عمك •• أ لاتستحي ؟ »

ووضع كفيه على ركبتيه وقال :

ـ يا الله ••

ـ هه •• ذاهب ••؟

ـ نعم •• فسيعود ابي ••

ونهض ابو حسنة يشيعه بنظراته •• « هذا الولد هالك •• ابوه يريد دفعه لنهايته •• » وكانت الشمس ما تزال مرتفعة حينما لاحت له حليمـــة آتية من جهة البئر فوقف يجيل النظر حوله •• ثم سار دون ان يعبأ بشيء •• والمكان مقفر من وجود حسنة •• ضيع وقته وكذب على ابيه دون ان يجني شيئا حتى حسنة لم يحصل منها على نظرة •• وحدث نفسه « ماذا يحدث لو قصدت اليها الى المرعى ••؟ » وتراءت له حسنة بين كثير من الفتيـــات في المرعى •• فترك قدميه تقودانه الى البيت •• وصاحت حليمة حينمـــا صارت بموازاته :

ـ مريض ويخرج يتفرج •• ها •• ها •• ها ••

فرمقها بنظراته •• « ماذا تظن هذه المرأة ••؟ اصمتي •• كان عليك

ان تتركي شؤون الناس وتلتفتي لاطفالك يا ارملة •• »

وقصدت اليه تقول وهي تقترب منه :

ـ لقد قال ابوك بانك مريض ••

ـ نعم ••

ـ ولِمَ لم تسترح في البيت ••؟

ـ حاولت فلم استطع ••

ـ هذي حيلة •• تريد ان تتهرب من العمل ••

« أهرب •• أهرب •• احقا ••؟ لا أدري ولكنهم جميعا يقولون هذا •• وأكاد احس بهذا •• أفلست هاربا وقد قضيت وقتي بلا فائدة ••؟! »

ـ الآن فقط فارق الألم رأسي ••

ـ مسكين ابوك •• رأيته يحفر ويحمل الطين بمفرده ••

ـ لقد أراد الله هذا ••

« واكذب ايضا •• فمتى اراد الله ••؟ أم انني زغت منه وكذبت عليه لاجل اوهام سرابية •• هكذا دائما نحن •• نفعل الفعل ونصيح الله •• الله •• انت صبور يا رب !! ولكن ابي •• آه تعذبت كثيرا يا ابي •• ولكن لو تعلم ان ابنك هاشم كان يكذب عليك •• انت بكبرك وهيبتك اكذب عليك •• علي اللعنة •• فانه يأخذ منه القلق علي اضعاف ما يأخذه التعب •• يهون كل شيء لو نسيتني •• وماذا تقول يا ابي ••؟ ابنك عاشق ويتحين الفرص ، يحاول ان يكلم بنات الناس •• هذا ابنك هاشم •• لو دريت يا ابي •• لو دريت •• » ثم تركته قائلة :

ـ اذهب •• فانه سيصل للبيت ••

فاسرع الى البيت ليسبق اباه •• فليس من الأمر السهل ان يعرف انه كان يكذب عليه •• واستدار حول عدة بيوت ليدخل من الجانب الآخر • وما ان وجد نفسه داخل الخيمة حتى تنفس بعمق مريحا رأسه على العمود •• ممددا رجليه على الأرض الباردة •• ينظر من خلال الباب •• مستلقيا على ظهره ••!!

١٠

« كل جوانب الحياة حلوة •• ولا يسع المرء ان يترك منها شيئا •• فهؤلاء الفتيات كلهن جميلات •• تزخر عيونهن باللذة ، ويصاب المـــرء بالدوار قربهن •• لا يكاد يرغب في التنازل عن احداهن •• الروح تهفو والقلب يرقص •• وما في اليد شيء •• هذي مصيبتنا نحـــن الرجال •• نحاول امتلاك كل ما تقع عيوننا عليه حتى نفلس من الجميع •• » فكر بهذا رانيا اليهن من بعيد •• والمسافة تقصر •• رويدا رويدا ••

كان مختفياً في طيات عباءته وقد جمدت اذناه •• فلم يعــد في طوقه الصبر •• ولكن ماذا يعمل ••؟ ولم ترك الموقد الدافيء وانى هنا يغــرس رجليه في طحين الثلج الذي يكسو العشب اليابس ؟ ماذا جرى له ليخرج في يوم كهذا ولا يبالي بعينيه اللتين غدتا تدمعان ••؟ كان عليه ان يبقى في بيت ابيه •• وحسنة ؟! أيترك اليوم يذهب ولا يراهــا ••؟ انه سيهلك ان حاول الخروج في ليلة كهذه ! سيجمد ويموت •• تنقلت نظراته بينهن •• كانت زهرة مع اثنتين يلعبن معا •• وحسنة وفتاة اخرى تتعاركان بالعصى•• وضحكتهما ترن في جنبات المكان •• ويردد السكون صداها بجذل ••

اقترب منهن •• حياهن مبتسما •• « تنظرني بغيظ •• زهـــرة •• يتيمه وتنظر الى الناس بغيظ •• يا لها فماذا تفعل لو كان عندها أهل ••؟ لكن الله يعرف ••• » تخطاها مسرعا الى الفتاتين يصيح بابتسام :

ـ ماذا حدث ••؟ ماذا دهاكما ••؟

ـ أنت ••؟•• امش

ـ ما لك يا حسنة ••؟ كنت فتاة عاقلة •• و ••

ـ تتكلم ••!؟•• اذاً قف ••

هجمت عليه بعصاها •• وهجمت صاحبتها وهما تصيحان •• « يا لهما •• فتاتان مثل عفريتين •• انا اقبل بهذا •• تريد اللعب معي •• هيا •• »

ـ آخ •• حسنة •• لقد آذيتني ••

ـ لا •• لا •• اذا كنت رجلا فاثبت ••

واغمض عينيه ورمى بنفسه عليهما •• ثم قبض على عصويهما فارتد رأساهما الى الخلف تضحكان •• « يا له من وجه •• عنق جميل •• اما حياة كهذه واما فلا •• أرأيت يا حسين ••؟! انها تودك وتحب لو تلهـوان انتما فقط •• يا لي كيف لم آت قبـــلا ••؟ أنت وحبيبتك تلعبـــان •• وتضحكان !! »

ـ اذهبا عني والا ضربتكما ••

ـ ها •• ها •• ها •• أنت ؟!

ـ نعم •• أنا •

واشرعتا عصويهما بوجهه •• فتقدم •• وتراجعتا •• ثم هجم عليهما فصرختا •• وبضحكة طويلة •• أمســـك برأسيهما ولـــم يضربهمـــا •• وظل لحظات ينظرهما وهما تنحنيان امامه •• وما لبثت الفتاة الأخرى ان

تخلصت منه متجهمة الوجه .. مكفهرة القسمات فقال باستحياء :

ـ يُخاف منك .. يا حسنة ..

ـ وماذا قالوا لك عني ..؟ انا حسنة بنت هامل !

ـ على العين والراس حسنة وابو حسنة ..

مطت شفتيها وحركت ذقنها الى امام .. قائلة :

ـ تريدني اتركك .. تدير رأسي بكلماتك هذه واخلي سبيلك ..؟

ـ ها .. ها .. لا ..

« الافعى ... » بقيت الفتاة الأخرى واقفة تراقب .. ثم انسحبت ببطء وانضمت الى الأخريات .. حيث قالت زهرة .. بنفور :

ـ هذي البنت .. بنت هامل .. لا تعرف الحياء ..

وكان قد قبض على معصمها صارخا ..

ـ امسكي والا آذيتك ..

ويضحك .. ويضحك .. وكأنه في حلم .. قال :

ـ يا قلبي يا حسنة ..

فنظرت اليه نظرة طويلة .. ضاحكة .. فاستدرك :

ـ كفى عن لعبك يا حسنة .. الفتيات ..

« آه .. لم ار فتاة مثلك .. ولكن لو لم تكوني تحبينني لما جمحت هكذا .. وصدقوا لما قالوا .. الذي في القلب يظهر .. » وتركته راجعة الى حيث تجلس الفتيات الأخريات .. فوقف غير بعيد عنهن وراح يداعبهن بنظرات ضاحكة .. كن يلعبن لعبة العريس والعروسة .. وقد صنعن دمى كثيرة من الطين .. على هيئة رجال ونساء وأواني وحيوانات واشياء أخرى رتبنها على هيئة بيت .. ثم رحن يغنين بصوت مسموع « جبنا

عروسك يا حلو جبنا •• » وأخذت حسنة تصفق صائحة •• « زفوا العروس الحلوة زفوها » ورنا اليها بهيام •• « انت احلى عروس يا حسنة •• لو تدرين ما في قلبي الآن •• انت تصيرين عروسي ••؟! اذاً لملأت الدنيا فرحا •• رباه ماذا أعمل لو قدم أحد وأخذها ••؟ » وقال :

ـ حسنة •• ابتعدت غنمك ••

ـ لا عليك •• ولتبتعد !!

« يا لك من شقية •• » والتقت نظراتهما فابتسم مديرا رأسه وردد الفضاء صدى ضحكتها الرنانة فأخذ ينظر اليها بعتاب ثم قال في نفسه " من تكونين زوجته لا يريد من الدنيا شيئا ابدا •• » كان قلبه يضطرب بخفوقه وسخونة لذيذة تتمطى في اعماقه •• « انا لا اعرف لماذا لا أعترف لها بما في قلبي •• ولكن لا •• لو كنا وحدنا لقلت لها ولكنهن الآن معها •• هؤلاء الثقيلات •• »

ولمح شبح امرأة من بعد •• تنحني الى الارض بين الفينة والأخرى •• تقترب •• فعرف بها حليمة •• اطلق آهة طويلة •• « هذي الحياة لا تساوي بذرة دخن •• ان لم نحتوها كلها •• عمرنا كله ليس غير بضع سنين ونتركه يذهب هكذا ؟•• لا •• لنحتلب كل لذة ونكرعها •• » تحرك صوبها •• وكانت قد اختفت وراء الهضبة •• رأسه مطرقة الى الارض •• لا يكاد يرفع انظاره •• اقدامه تدوس الحصى الصغيرة دونما شعور بشيء •• شأن الجميع •• ثم ارتقى الهضبة من جانبها القريب •• وراح يرسل انظاره لتبحث عن حليمة حتى اقتنصتها في بداية الوادي الضيق تنحني الى الأرض •• « لا خير في ان لم انلك يا حليمة •• فانا فقط الذي يفهم معنى نظراتك •• وجهك •• ابتسامتك •• كلها اعرفها •• ومن لك غير

حسين ••؟ نعم •• وكل من حولك لا يفهمون لغة النفس العطشى •• واني اراهن انك ستعبين من اللذة بقدر ما حرمت منها في هاتين السنتين •• هيا اذاً •• هذه فرصتك يا حسين •• المرأة وحيدة •• »

أخذ يتسكع وكأنه لا يعرف بوجودها •• وما ان قرب منها حتى انطلق يغني•• « يا ويل•• يا ويل•• آ •• ه •• » فرفعت رأسها صوبه •• نظرت اليه طويلا •• ثم احنت رأسها ببطء وأخذت تلتقط قطع الروث •• حدث نفسه « حتى لو امسكتها هنا وصاحت لما سمعها احد •• » وانخذت ابتسامة فرحة سمتها الى شفتيه •• وكمن تذكر قال : « يا لي من غبي •• أنسيت البنات خلف هذه الهضبة ؟ » وما أن دنا منها حتى صاح •• ويداه ترتعشان :

ـ الله يساعدك أم سالم ••

رفعت رأسها وابتسامتها ترف على شفتيها القرمزيتين :

ـ اهلا •• وسهلا •• حسين ••

ـ تعالي هنا •• هذا روث كثير ••

ـ آتية •• آخذ هذا وأجي ••

تناول بعض الروث ومد يده به اليها •• فتناولته •• ومس كفه راحة يدها •• فاحس بخيط قشعريرة يسري في عمود ظهره •• واضطرب •• ثم قال مبتسما :

ـ انت مظلومة يا حسنة •• النساء في بيوتهن وانت تدورين في هذا البرد ••

وكان أنفها محمرا من شدة البرد •• وخداها متوردان •• فابتسمت وهي تجيبه :

ـ هذي قسمتي ..

ـ نعم .. كل شيء بالقسمة والنصيب ..

ـ سوء طالعي .. جعل زوجي يموت ويخلفني للضيم والعذاب

ـ الله كريم .. الدنيا لا تساوي ما تحمله من هم .

ـ الله كاتب علي هذا .. يموت زوجي وأحرم من كل شيء . كل ما في الدنيا انا بعيدة عنه .. غير التعب والكدح ..

« حقا انك محرومة .. انا اعرف كل ما تجاهدين نفسك لأخفائـــه تحت عبوس ملامحك .. فجسمك يشتعل بالرغبة .. » وقال :

ـ اصبري .. فمن يعلم ما يأتي به الغد ..

واراد ان يقول لها « لا تهتمي .. فانا لك .. » ولكنـــه صمت . ثم قال وهو يضحك ضحكة عريضة :

ـ مثلك تخلق لمثل هذا التعب ..؟!

ـ وماذا اعمل ..؟ أمر ربي ..

ـ التعب ليس لك يا أم سالم ..

وواصل ضاحكا :

ـ انت لك تتزوجين وترتاحين ..

ـ اوه .. أين انا من الزواج ..؟

ـ لمـــاذا ؟..

وصمتت .. فقال :

ـ والله انت المرأة التي يتمناها الكثير ..

نظرت اليه نظرات مضطربة .. « انا امرأة يتمناها الكثير ..؟ لا .. » فالحقيقة انا عجوز تزيغ عن مرآها العيون .. انني اعرف ما عنـدكم ..

أفيوجد غير السخرية ..؟ » وكأنه عرف ما يجول في دخيلتها من انكسار نظراتها وابتئاس ملامحها .. فقال :

ـ انت لا تدرين يا حليمة بنفسك .. انت احسن امرأة هنا ..

ـ دع عنك هذا .. خليني لضيمي ..

فأمسك بكفيها تاركا عينيه تتغلغلان في اغوار عينيها العسليتين وقد تسارعت انفاسه وراح صدره يعلو ويهبط .. ولاحظت ماعراه من اضطراب فشحب وجهها .. وسحبت يديها برفق واسرعت الى بيتها مبلبلة المشاعر والانفاس بينا بقي هو واقفا في مكانه يشيعها بنظراته النهمة .. " هذه البداية يا حليمة .. وسأقبض على يديك ثانية .. فان وراء هذه اللهجة الخافتة نارا تلتهب .. فلأنتظر .. والدنيا طويلة .. آه .. يا يديك البضتين .. امرأة محرومة مثلك لا تملك ما تقاوم به .. فلو أخذتك في تلك الساعة لما قلت شيئا .. ولكن علي أن اخطو بتؤدة حتى لا يكون ما من شأنه ييسر لك الافلات .. فهذه فرصتي وفرصتك أيضا .. »

١١

غزت اصوات الثغاء اذنيه •• فامتدت نظراته مجتازة باحة البيت عابرة الى الجنوب •• وتلامحت امام خياله صورة حسنة •• تأفف •• « لا أدري لِمَ أمسك عن الكلام •• هي نفسها تود لو احادثها •• ألم تتوقف لتبدي اعجابها بي ؟ فما هذا الجمود •• ومن جانبي ؟ ستقول في نفسها انه غبي ثقيل الاحساس •• أود التقرب منه ويهرب •• نعم هي تود التقرب منك يا هاشم •• فلا تكن بليدا •• تهرب منها مثل امرأة خائفة •• أنت رجل عليك ان تفرض حمايتك عليها •• ولكن هناك زهرة •• وابي •• فلو اخبرت امها •• ولو انتشر الخبر في القرية •• وسمع ابي •• فماذا أقول ؟ دع عنك هذا •• كلمها فقط •• ابنة عمك تتزوج وابوك يرضخ •• فقط كن رجلا •• فهي فتاة ناضجة وهنا شبان كثيرون •• وهي أجمل من ابنة عمك •• وتكلمهم جميعا •• الفتاة تريد من يسرع فاسرع انت يا هاشم •• وابوها •• وامها ؟ ماذا لو اعطوها لغيرك ؟ افهم جيدا •• ان احدا لا يفكر فيك •• هي نفسها ربما لا تفكر •• فانت لديك ابنة عمك •• وابوك لا يكف عن اخبار كل احد عن زواجك منها •• أفهل نسيت هذه

الحكاية التي ملأت سمعك وانت بعد صغيرا •• اذاً فما عليك الا ان تقف لهم •• قل لأبيك انك لن تتزوج واجترىء امام حسنة واخبرها بما يبثه قلبك في خفقاته •• قل لها اني احبك واريدك ويجب ان تنتظريني •• أقول هذا حقا ؟ ولكن لو سخرت •• انها فتاة وليس بيدها شيء •• كله بيد ابيها •• حتى لو كانت تحبني فما عساها ان تقول لو تقدم احد ورضي به ابوها ••؟ امها •• امها هي التي تكفل كل شيء •• فقط لو اقترب منها •• هي تحبني •• آه •• يجب ان لا اكون مثل شامل •• انتظر حتى تزوجت نعيمة وراح يبكي بعدها كالطفل المخبول •• انا لا ابكي مثله ولكني اقتل نفسي •• »

كان يفكر بهذا وهو يمضغ طعام افطاره وعيناه شاردتان وفجأة •• كف عن الطعام ونهض « لأذهب •• علي ان اجدها فأقول كل شيء •• » وخرج ••

في الطريق قابله بعض الرجال •• لوى قسم منهم رقابهم بتساؤل •• وصاح واحد يسأله بينا كان جالسا امام خيمته :

ـ هاشم •• الى اين ••؟ ما زال الصباح في أوله ••

« وما لك انت ••؟! ألا يمكن ان يفعل الانسان هنا امرا دون ان تستفهموا ؟ » وقال :

ـ هنا •• لبيت محيسن •• لغرض ••

ـ ما هذا الغرض ••؟

« يا الله !! ماذا اقول له ••؟ عليكم ان تدعوا الانسان وشأنه أم تريدون مشاركة كل الناس ••؟ » قال مجيبا :

ـ غرض صغير •• بيني وبينهم ••

تابع طريقه ونظرات الرجل تشبك رجليه •• « أليس سكوتي احسن لي ••؟ تر ى لو ضحكت هازئة واعرضت عن كلماتي ••؟•• آه ليتني أعرف !! لا اعتقد ان احدا مثلي يفكر هكذا ••! أبوها لا يعطيها حتى لو رضي بي وهو يرى اصرار ابي على تزويجي من زهرة •• انهم سيعرضون عني قائلين " وما لنا نزج انفسنا والشبان كثيرون •• ؟» ومن يدريني ؟•• فلعلها احبت احدا غيري ؟ »

تلصص بعيونه وخفق قلبه •• كانت خارجة ، فاسرع بخطواته مبتعدا عن بيت أهلها لئلا يدعوه أبوها •• « أليس من الافضل ان اجتذب امها واباها ••؟ ها •• لا •• انها هي أولا •• هي الاصل •• فلن يمانع احد اذا ابتسمت هي •• لا بل اتركها هي تخبر أمها لتقف معنا ليتني فعلت هذا من زمان •• » انعطف الى الشرق ودخل الوادي « اظنها هي •• ماذا اقول لها ؟ أي شيء •• فقط قل لها •• والا رباه •• أيمكن أن اتكلم ••؟ أنا هاشم اتكلم ؟ لا أظن ان الكلمات ستخرج من فمي •• اقتل نفسي ان انتشر الخبر •• وعرف الناس •• هاشم بن زاير راضي عشق حسنة •• يا للهول !! ولكني اموت ان بقيت هكذا •• اقول و •• لا •• هي تحبني•• وحتى لو امتعضت اطلب منها ان تنسى وينتهي كل شيء •• احقا ؟! ألا يمكن أن تذهب باكية لأهلها لتقول لهم •• يا ساتر ! يا ساتر ! مثل حمدية حينما طاردها سلمان •• ابوه المسكين اضطر لدفع الدية من غنمهم•• ارجع احسن •• اسكت حتى يأتي اليوم •• ولا بد ان يأتي •• اوه •• واذا خطبها احدهم ••؟ هل ابكي ام اقتل نفسي •• لأفعلها حتى لو ••

كان قد قرب منها •• أجال ببصره في اطراف المكان فالفاه خاليا ثم اتجه به صوب القرية فلمح قطعان الاغنام قادمة •• احس برعدة خفيفة

تسري في بدنه وهو يقترب .. « هذه هي .. حتى عينيها تضحكان .. سأخبرها بما في قلبي .. » وقفت تنظر اليه مسندة يدها اليمنى على عصاها والريح تعبث بثوبها .. « لو تزوجتها لما تركتها تخرج بالغنم الى المرعى .. بهذا البرد .. » صاحت :

ـ هاشم .. ماذا تعمل هنا ..؟

« اعمل ..؟! اعمل ..؟ لو تدرين انت نفسك مقصدي ..!! » وقال :

ـ لا شيء .. جئت أتمشى فقط .

ـ مسكين !! ربطك ابوك بالبئر ..

وغاصت روحه في اعماقه وهو يتشمم رائحة السخرية من بين مقاطع كلماتها .. ولم يجب .. فاردفت :

ـ ابي يقول ان بئركم فاشلة ..

ـ **بيد الله ..**

ـ الله يساعدكم ويعطيكم الخير ..

ـ اشكرك .. نحن نحفر ومن الله العون ..

ـ الله يعينكم ..

« انت يا حسنة .. انني احبك .. احب فيك كل شيء .. ولكني .. آه .. »

تقدم منها .. ابصرت ارتجافه فقالت مبتسمة :

ـ انت مبترد .. كل جسمك يرتجف ..

ودونما التفات له ، اسرعت تجمع النبات والاشواك الجافة واشعلت النار .. وقالت :

ـ تعال دفيء جسمك .. تكاد تجمد ..

ـ اشكرك •• حقا ان اليوم شديد البرودة ••

نظر الى عينيها وهي تحرك العيدان في النار •• ثم اسرع يبتعد عنهما••

« لا استطيع ان اقول لها •• ولكنها تحبني •• هل أقول ؟ أأتكلم ••؟ ومن هنا ليسمع •• لا احد •• » وتلفت فلم يلمح غير قطعان الغنم •• وهـــي ما تزال بعيدة •• اطرق برأسه فاتحا كفيه للنار •• قال :

ـ لِمَ كلفت نفسك هذا التعب ••؟

ـ تعب ••؟ ها •• ها •• لو كان اشعال النار تعبا لقضي علينا ••

« حقا •• ليس فيه أي تعب •• ولكن هل اشعلها ••؟ ناري أنـــا وامدها الى قلبك •• لا •• لا •• ان ناري أكثر من تعب •• اشعالها يعني الكثير •• يعني اما فرحي واما موتي •• آه •• كيف نســـيت ان أبـــي سيطلبني •• وهؤلاء القادمون ••!! واذا لم أقل لها الآن علي ان اصمت •• ان اتوارى الى الابد عنها •• »

« تقدم •• امتدت يداه الى امام •• وقال بلهجة مرتبكة :

ـ حسنة •• انا اريدك ••

فتوقفت عن تحريك العيدان •• ونظرت اليه بعينين مضطربتين قـد امتص الذهول اشراقهما مرتدة الى الوراء •• فتقدم اكثر •• وحـاول ان يمسك يديها قائلا :

ـ انا اريدك يا حسنة لي •• اريد ان اتزوجك ••

ظلت تتراجع خائفة •• ولما رأته يتقدم منها •• قالت :

ـ اذهب يا هاشم •• اذهب •• ها هم قادمون ••

ـ ولكنني أحبك •• أحبك هل تعرفين ••؟ طول هذي السنين وأنا صابر على حبك •

ـ أنت تحبني ••؟ لا •• لا •• يا هاشم ابتعد عني ••

وأمسك بيديها •• فتملصت منه بقوة وانفاسها تتسارع •• « مـــاذا تظن ••؟ تبتعد ••!! ترى ماذا دهاها ؟ لم أعمل لها شيئا •• » تقدم منها أكثر •• وقال :

ـ اسمعي يا حسنة •• انا ما قصدت ••

ولمحها تضطرب شاحبة الوجه وعيناها تشخصان الى الاعلى •• فنظر هو الآخر •• التقت عيناه بعيني حسين •• فأسرع يشيح بوجهه مستشعرا ألما شديدا مشوبا بالخجل •• « ماذا سيقول هذا الكلب ••؟ وماذا أقول له ••؟ انه لن يصدق •• ولعله سمع ما قلته •• » وكان حسين يسير هابطا حتى صار قريبا منهما •• وصاح :

ـ السلام عليكم ••

ـ وعليكم السلام ••

رد هاشم عليه • •وحاول ان يتحرك •• رمق حسنة بطرف عينيـه فالفاها ما تزال شاحبة •• متألمة •• وقال حسين :

ـ انتما فقط هنا ؟؟

« ترى ماذا يفعلان ••؟ حسنة !! كلا انها لاتغلب••هذه الشيطانة•• » وعرف هاشم ما يدور في ذهنه من نظراته النافذة •• فأجابه وقد تيقظت روح الاحتقار لـه ••

ـ اتيت ابحث عن زهرة •• اقول •• هل رأيتها ••؟

ـ تبحث عن زهرة ••؟ ها هي ••

واشار الى بداية الوادي •• وارتجف هاشم وهو يراها تتقدم نحوه •• فتحرك اليها •• وكانت قد رأته من بعيد •• عيونها تنطق بالألم العميق ،

وهي تقول بنبرات منكسرة :

ـ هاشم •• عمى يبحث عنك ••

ـ ها انذا ذاهب اليه ••

وجد رجليه تثقلان كثيرا •• وهو يترك حسنة مع هذا الذئب حسين •• فمن يدريه ••؟ ولعلها تحبه ••!! لعله يحبها !! وماذا يعنيه شأنها اكثر من كونه فردا في القرية ••؟ ولكن لماذا فاجأهما ••؟ لا •• انها لا يمكن ان تحبه •• ولكنه يتشمم اخبار الناس هكذا •• جلب هذه العادة القبيحة معه من المدينة •• اذاً عليك ان تبقى •• فلربما •• وماذا تقول لأبيك ••؟ لا •• لا •• اسرع أحسن !!

١٢

« لقد خرج الطين مشبعا بالماء أمس •• وكون الطين وحلا معناه ان الماء قريب •• هذا واضح ، والماء كل شيء •• معناه ان حياتي ستزهر ولن يهاجر الناس•• وكذلك تزهر حياتك يا هاشم •• » رفع رأسه فلم يره « •• ماله ••؟ هل يصدق ما يقولون ويخذلني ••؟ لا •• لا •• انه ابني وانا اعرفه •• ولكن لو خذلني ••؟ أقصم قفاه ان فعل •• انا نفسي حينما كنت بكبره كان أبي يحطم عصاه على ظهري •• وصدق من قال « لا يفيد الولد غير العصا •• » لا •• هاشم ليس •• ها هو أتى •• لقد قلت انه ليس كغيره •• تربيتي انا ويعصيني ••؟ كلا •• مالك يا هاشم ؟ اليوم فقط وينتهي كل شيء •• ها هو الماء يلتمع فوق الطين •• ها هي البرك الصغيرة •• »

وحينما اقترب هاشم من ابيه كانت عينا الاخير تلتمع •• ووجهه مبسوطا •• يسرح الامل بين ملامحه •• « انه غير غاضب مني •• فلو كان لتجمعت تقاسيم وجهه وتعمقت أخاديد جبهته •• لا •• لا •• انه يضحك •• ولكن لعله عرف شيئا •• ابنه هاشم العاقل •• يقول لبنت هامل إني احبك •• آه •• كيف تجرأت وقلت •• سيعرف كل الناس

ما دام أبي قد عرف •• و •• » وصاح :

ـ اسرع هاشم •• اليوم فقط نحفر ••

فتقدم متوجسا •• واردف ابوه جذلا :

ـ تعال ••• لقد بانت تباشير الماء ••

وقف ينظر « حقا •• انه بات قريبا جدا •• لا يعدو ضربة أو ضربتين من المسحاة •• » قال الاب :

ـ هذه البرك الصغيرة •• هي من ماء البئر ••

ـ نعم •• هي من ماء البئر ••

ـ ارضنا طيبة يا ابني •• كما قلت •• لم يصدقوني •• الحمقى !!

رمى المسحاة وفرج ساقيه وفتح ذراعيه وراح ينزل بتؤدة •• وفي منتصف البئر زلت احدى قدميه وكاد يسقط •• فقال هاشم :

ـ اتئد يا ابي •• انظر موضع قدميك جيدا •• المسحاة تحتك ••

" سيطير هذا الرجل فرحا •• حقه •• فهو يحب دائما ان يعمل أعمالا يقصر عنها الاخرون •• ابي عظيم •• ما كان لي ان اعصيه واذهب هناك لاقول ما قلت •• ترى هل تخبر حسين ••؟ أيمكن ان تفضي للبنات معها ••؟ لا اعتقد •• ومن يقول ••؟! فهن غير مأمونات الجانب •• هـذي غلطتك يا هاشم •• انت دائما هكذا •• تخطىء وتعتذر •• فغيرك لا يعملها •• ولكنها لم تقل الآن !! و •• اني احبها وعلي أن أقول •• كل من يعشق يقول مثلي •• بل واكثر •• يقولون ••ولكن هذا الملعون •• لولاه لانهيت كل شيء •• لعرفت على الاقل ما ستعمله •• لو تصمت لصمت انا الاخر •• رباه انت منقذي فاني لا احتمل ان يقال ••• وماذا اقول لاهلها ••؟ ولابي ؟! لو علم الناس لضحكوا •• وللطمني ابي على فمي••

اوه لا علي بزهرة فانها لن تقول شيئا •• وماذا رأت لتقول ؟! »

وانتبه على نفسه فخشي ان يفطن له أبوه •• وعندئذ راح يسحب الدلو •• مليئا بالوحل •• « اليوم وينتهي كل شيء وعندئذ •• لا •• لا •• لن أعاود فعلتي تلك •• لن اقترب منها •• فقط لو ينتهي الامر بسلام ••» وبدأ رشح الماء يسيل نزرا قليلا جدا ولكنه جعل قاع البئر تلتمع •• وصاح الاب من اعماقه :

ـ الماء يا ابني الماء •• يقترب ••

ففرك هاشم كفيه سرورا •• « لو تدفق الماء حقا لعرفت كيف احوز حسنة •• فان أبي •• لا ليس له ان يقسرني على الزواج من ابنة عمي •• وهي نفسها لا تود هذا •• مسكينة •• انني اتألم لها •• ليتني استطيـــع افهامها لئلا تبني آمالها علي •• حقا سيفاجأ الجميع بما تضمره يا هاشم •• فتاة صغيرة تذهب بعقلك وتترك ابنة عمك •• هذا انت •• لا لب •• ولا احساس •• فلو كنت تفهم لما احببت تلك وتركت زهرة ابنة عمـك مثـل الوردة الحيية •• لو كان غيرك لما خطا ما خطوت اليه •• ولكن ما ذنبي انا ؟ قلبي مال وروحي هفت •• لو بيدي لما فكرت ولكن الافكار تغـزو رأسي رغمـا عني •• انـا نفسي لا أعرف كيف ••!! الا اني احبها ولا أرغب في سواها •• كثيرون من عشقوا قبلي ولست الاول » وارتفع السطل للمرة الثانية •• حاملا الطين •• وارتفع صوت الاب :

ـ هذا الماء •• هذي رحمة ربنا ••

« آه •• الماء •• نحن عظيمان •• حفرنا البئر واخرجنا الماء لوحدنا •• سيذكر الجميع هذا •• سيقولون •• « بئر زاير راضي » لتكن باسم ابي •• ولكنهم سيذكرون اننا حفرناها معا •• الله •• الله •• سأزهو بين

الجميع بقدر ما تعبت •• يا له من يوم سعيد •• فانهم لن يرحلوا •• وستبقى حسنة قريبة مني •• حمدا لك يا رب ••!! »

تلفت حواليه وهو يسمع صوت اقدام تقترب •• وبهت حينما عرف به حسين •• « ترى لِمَ قصد الى هنا •• ؟ هذا الوجه الشائه •• أثمة ما يريد أن يقوله ..؟ لربما باحت له •• لأستعد ••• يبدو ضاحكا •• آه •• انه يسخر •• اظنها اعترفت له •• لو تكلم فسأهشم رأسه •• انه يرمقني •• » اقترب محييا •• ثم جلس قريبا منه •• حدجه هاشم بنظرات قاسية ما لبثت ان طاشت •• فلم تقو على مجابهة نظرات حسين النافذة •• ولعل لشعوره بالذنب شيئا في استخذاء عينيه •• « الكلب •• تبعنا الى هنا•• ليتني لوحدي الآن لاملأ فمه ترابا •• » وقال حسين برنة ساخرة :

ـ اصبح البئر عميقا جدا ••

ـ نعم ••

أجابه هاشم بخشونة •• مفرقعا اصابعه •• فنظر حسين اليه بينما اردف هاشم :

ـ وسنظل نعمقه حتى ••

وقبل ان يكمل صاح الاب •• فضاع صوته بين نبرات أبيه الراقصة :

« ها هو الماء ينز قليلا •• انني أراه •• هاشم ••

ـ حقاً ••؟!

هتف حسين غير مصدق •• وترك عينيه تجوسان خلال ظلمة البئر •• وكأنه انبهر لرؤية لمعان القاع •• فقال :

ـ يبدو ان الماء قد تدفق ••

ـ ولِمَ لا ••؟ ووراؤه رجال ملئنا ••

ـ لقد تدفق حقا •• تدفق ••

ـ مثـل ما ترى •• نفذنا اليه بقوتنا حتى جعلناه يتدفق ••

وأتى صوت الاب :

ـ انني اول من سيشرب منه •• سترون وستقولون•• لقد عطش زاير راضي وارتوى من ارضه كما شبع منها صبرا ••

ورد عليه حسين :

ـ انت عظيم يا زاير •• هذي البئر بئرك •• انت ••

قالها بلهجة تتضوع روائح الحسد منها •• وخيل لهاشم انه يعني انه لم يعمل شيئا فيها فقال :

ـ لم يتدفق الا بعد ان أكل الحبل لحم كفي •• ونالت المسحاة من كف ابي •• وها انت ترى ••

ـ هذا لكم •• انها بئركم انتم ••

كان صوته مهتزا •• فانه وان كان يرحب بالماء ولكن ليس الان وهو يريد الرحيل •• ويعمل له •• ومن بئر زاير راضي !! غمغم :

ـ تعبتم كثيرا ••

وبصوت عال ليسمع الزاير :

ـ هل هو كثير ••؟

ـ سأحفر اكثر •• ليتدفق بكثرة •• يا رب •• هذي رحمتك ••

وقال هاشم بلهجة متشفية :

ـ لقد عرفنا ان ارضنا تخفي بجوفها الكثير من الماء ••

ونهض حسين متلفتا •• قاصدا القرية •• مرددا في نفسه : « حقـا لقد امتلأت البئر بالماء •• ولكنهم قالوا انها ارض عطشى !! ها هو الماء وقد

رأيته بعيني ينضح منها •• » ولم يلتفت الزاير لشيء •• جذب المسحاة وراح يحفر •• « لن اتركها الا والماء يجري جريانا •• لتمتلىء بالطين •• انا ابو هاشم وهذي بئري •• » وصار الطين كومة كبيرة •• اخذت تعلو وهويجمعها بالمسحاة •• وما ان أحس انه كثر حتى صار يملأ السطل وهاشم يرفعه بالحبل •

انتهى الطين وبدأ الماء يسيل منبجسا من جوانب البئر •• « لا •• لاحفر اكثر •• اريده يجري وليرَ هؤلاء الناس كيف انهم بلا عقول •• والا فماذا يقولون وهم يرونها تمتليء ؟ ألا يندمون على كل ما قالوه ••؟ هامل يرحل •• سيرى كيف ان سواعد الرجال لاتني تستخرج الماء من اعمق اعماق الارض •• حقا لقد ساعدنا الله •• شكرا لك يا رب •• حمدا •• » وكان يحفر بسرعة •• وما ان رفع قامته ليمد ظهره مريحا اعصابه المشدودة حتى هتف هاشم بنبرة مسرورة :

ـ لقد جاءوا •• حتى العطار ••

ـ كنت قدرت •• ان حسين سينشر الخبر وسيتراكض الجميع :

وطفقا يعملان بجد وهمة •• واخيرا وصلوا وقصدوا توا الى فوهة البئر ملقين السلام بعجلة •• ومد العطار يده يساعد هاشم في جذب السطل •• فقال الاخير :

ـ لا •• دعه فان من جمع كل هذا الطين لا يعجز عن القليل ••

ـ حقا •• انتما عظيمان •• أنت وأبوك ••

والتمعت عيونهم ببريق الاعجاب المشوب بالحسد فقد صار زاير راضي مالكا لبئر تطفح بالماء •• وتفيض بالخير •• ونظر الواحد منهم الى الاخر يقول له بعينيه « حظه كبير •• » وخلت ارض القاع مما بها من

أوحال •• فبدت وكأنها أرض بلاط غسلت لتوها •• تلمع والماء يبجس من الجوانب ويسيل بغزارة •• حتى اخذوا يحملقون بوجوههم المنعكسة على قاعه متعجبين وقال احدهم لآخر بجانبه « لقد حفرا كثيرا •• انظر الى الزاير كيف يبدو ••!! » «ولكنه حصل على ثمرة تعبه •• » رد عليه الآخر ، وتكونت بركة ماء في مركزه •• اخذت تتسع •• وعينا زاير راضي تراقبها باعجاب •• واوداجه منتفخة فرحا وسرورا •• وكان هاشم فرحا هو الآخر •• ترقص الآمال على شفتيه بابتسامة حلوة •• وبدا كأنه نسي ما كان يشغله •• فستتناقل نساء القرية خبره مع ابيه •• وسينظر اليهما الصغار باعجاب •• ويتشبهون بهما في لعبهم كما كان يتشبه بالرجل الذى قتل الخنزير البري بمنجله ويده القوية ••

ساد الصمت •• والكل يتأهبون للحظة الحاسمة •• واعلن الزاير قائلا : « انني اول من سيشرب من هذا الماء •• » ونظر هاشم حوله وقال « وانا ثاني من يشرب •• » وردد الباقون •• « ونحن سنشرب ايضا •• » فجاء صوت الزاير من الاغوار :

– كلكم تشربون •• فالماء غزير يكفي عشر قرى مثل قريتنا ها انتم ترونه كيف يسيل !!

وبرقت عيون الجميع وتأهب هاشم •• ونظروا الى الاب وهو ينحني متأملا الماء •• ثم يقول :

– انه صاف •• مثل عين الديك ••

وامتلأ قاع البئر بالماء الصافي •• فجمع الزاير كفيه وانحنى يغترف بهما أول غرفة منه •• كانت شفتاه تبتسمان بجذل وهو يرفع الغرفة الى فمه •• وضعها •• ثم رماها بسرعة الى الارض •• لا يدري لِمَ بهذه

السرعة ..؟! وتبلد وجهه .. تغضنت ملامحه .. وفاضت عيناه بالدموع .. فصاح الجميع !

ـ هه زاير .. لِمَ ..؟

وارتعب قلب هاشم .. وارتجف وهو يرى اباه يشيخ أمامه .. ولا يدري ما الذي قبض على قلبه يعتصره بعد أن كان وللحظات أسعد من على سطح الارض .. وصاح الجميع كرة ثانية بقوة .

ـ ماذا يازاير .. ؟ بالله تكلم !!

ماذا يقول لهم ..؟! تمنى لو لم يكن حياً تلك اللحظة .. لو لم تكن له عينان .. رفعهما يرمق حسين .. " أسرع يدعوهم .. فلو لم يدعهم لكان الخطب أهون .. أما وهم هنا .. » وقال هامل :

ـ هل الماء مرّ أم مالح ...؟

ألقى هو نفسه هذا السؤال على نفسه فما وجد الجواب .. فهل هو مرّ أم مالح حقاً ؟ لا يدري .. وتلاقت العيون .. وتحركت ابتسامات السخرية .. وقال آخر :

ـ تكلم يازاير .. هل هو ....؟

فأجاب :

ـ لا أدري .. ولكن الذي أعرفه أن لن يتمكن أحد من شربه

فذهل الجميع .. ولكنه تابع :

ـ انه مالح .. ومرّ .. لم يرد الله لنا أن نشرب الماء ..

« هذه هي الحقيقة التي ندير ظهورنا لها .. لم يرد لنا أن نذوق الماء العذب هذه السنة .. فان كل شيء يبدو ساخطاً »

وتحرك واحد من بين الجمع كالمصعوق •• انه العطار •• وقال وكأنه فجع بأحد أطفاله :

ـ لقد راح تعبك يا زاير •• ورحنا نحن ••

وأحس هاشم بالبرد يلسعه بقسوة •• فتقدم بقدمين متخاذلتين يعين أباه على الصعود •• دون أن يقوى على النظر الى شيء !!

١٣

« يا لسرعة ما ينقلب الانسان •• تبدلت وجوههم وضحكوا •• كأننا نريد الشر لانفسنا •• هامل يريد أن يرحل •• ويجعل الناس يرحلون معه •• وحسين !! هفت روحه للمدينة •• لا أدري ماذا يشتغل هناك ••!! يرجعون لصيد السمك •• يارب •• لو كان الماء عذباً لنحن الآن •• بل الجميع في أعظم سعادة •• ولكن !! لن تقول شيئاً فأنت الحاكم العادل ••»

ـ من لا يساعده الله لا يسعد •••

قال الأب وهو يبسط الورقة الرقيقة أمامه ويملأها تبغاً •• نظراته زائغة مشتتة •• يطلق الحسرات •• والكآبة قد خطت ملامحه بخطوط مظلمة •• ولم يقابل أحداً •• فكأنه قد فقد أحد أفراد عائلته •• ينظر نظرات أسيانة للجميع ويرتجف ازاء صورة حليمة •• فلربما هي الآن تسخر منه شأن الجميع •• « لو يفهمون حقاً لما سخروا مني •• فهل كنت في بطنها •• ؟! لا •• هذي الأمور بيـد الله •• ويا خسارة التعب الذي تعبناه •• !! »

كان الوقت مساءً •• غربت الشمس ونشر الليل ظلاله الباهتة على

الكون •• وراحت الكلاب توصل نباحها الى جوفه الساجي وتتسمع صداه يضرب في أعماقه •• مختلطاً بالثغاء الممدود حينما وقفت زهرة بباب الخيمه تنظر كاتمة أنفاسها متحاشية النظرات •• تختلسها بين فترة وأخرى الى الوجهين المكتئبين أمامها •• « لقد قال الناس ولكنكم لم تنتهوا •• تسدرون بعنادكم دائماً •• والواحد لما يسمع كلام الناس يعرف • ولكنهم هكذا •• لا يقتنعون الا برأيهم ••• »

رفع الأب كفه وأمرر أصابعه خلال لحيتـه متحسساً وجهه •• ثم قال :

ـ كتب علينا يا ابني •• نعمل ويضيع تعبنا ••

ولم يجب •• كانت روحه تكاد تنخلع ، فلو كان الامر بالنسبة للبئر فقط لهان الامر •• فما يتذكر انه ندم على تعب تعبه أبدا •• ولكن ماذا يخيل لحسنة ••؟ لقد عاد يتذكر ما قاله لها •• ووجهها المصفر •• انها لا شك ستذهب •• أبوها •• أبوها المتجبر •• يرحل وترحل معه •• ليتـه يعلم اني سآكل قلبي ان رحلوا وحسين !! الـكلب •• ترى ماذا سيقول •• ؟! أظنه نسي •• أو لم يفكر بشيء •• أظنه •• فما بدر منه ما ينم عن ظن سيء •• » وتذكر مجيئـه قرب البئر •• سيلان الماء •• جموع الناس •• « كلهم تمنوا لو كانوا قد حفروا آبارا وهم يرون الماء يتدفق •• ثم انقلبوا هازئين •• لا •• ليسوا كلهم ولكنه هامل !! أظنـه يريد الرحيل لأمر في نفسه •• ومع هذا فلا يريده لوحده •• يريد أن يأخذ الناس معه •• رباه ليته لا يرحل !! »

وكانت عينا زهره تبثان ما بأعماقها من خوف من خلال نظرات منطفئة ووجهها الشاحب ينم عما تعـانيه •• تقدمت وقالت في نفسها « لا أدري

كيف أقول لهم •• حظي أتى بها في مثل هذا الوقت وهم جازعون •• لو أقول لزدت ألمهما •• لربما ضرباني ليشفيا قلبيهما •• ولكن لو أترك الأمر لازداد سوءا ولظنوا الظنون •• » اقتربت قائلة :

ـ عمي ••

رفع نظراته اليها •• فهالها ما لمحته على وجهه من غضون•• وارتبكت ولما رآها تكاد تتكوم على الارض والخوف يمتص نور عينيها صاح بها :

ـ هه •• زهرة •• ماذا ؟!

ـ عمي •• ضاع خروف •••

ـ خروف ••؟ كيف •• كيف ضاع ••؟ وأين كنت انت ••؟

ـ لا أدري ياعم •• انظرها طول الوقت •• ولما رجعنا افتقدته فلم أجده •• انا نفسي اتعجب ••

ـ اعرف •• انت تتركين الغنم وتلعبين •• سوف تضيع كلها •• ما دامت عندك ••

ـ والله يا عمي ما تركتها لحظة ••

ـ اذاً كيف ضاع ؟؟ كيف ضاع ؟

صرخ بها •• مقتربا •• ثم ضربها بجمع يده على رأسها •• فطفرت الدموع من عينيها فزعا •• بينا واصل كلامه :

ـ يضيع وتأتين الى هنا !! أنا اعرف •• لقد اختلط مع غنم غيرك ••

ـ لا ياعمي •• فتشتها كلها •• غنم كل من يرعى هناك ••

ـ اسكتي •• أنت مغفلة •• تريدين ان اصدق كلامك ؟!

وكأنه يبث كلامه الى الله •• قال :

ـ هكذا •• هكذا •• تأتي المصائب متتالية •• واحدة اثر اخرى

•• ومادام الانسان هنا ، فسيرى من المصائب ما لم تره عين ••

انتحت جانبا •• تبكي •• « ما كان لي ان العب •• فسيظل هذا الخروف عاراً علي الى الابد •• حقه عمي لو ضربني •• لو قتلني •• الموت ••والذئاب •• وفوق هذا انا أضيع لهم خروفا •• وهو ما يزال يمضغ حزنه •• يارب •• هو يتعب دائما دون ان تريه فرحة ولا ليوم واحد •• وبعد برهة صمت •• قال الاب لابنه :

ـ اسمع هاشم •• تعش واذهب فتش عنه ••

ـ أين ••؟

ـ في كل مكان من المرعى •• انحدر جنوبا وغربا الى حيث المرتفع في الجانب الآخر من الوادي •• الى مكامن الذئاب ••

ـ وماذا تظن يا ابي ••؟ لو كان قد أخذه ذئب فهل يبقيه الى الآن ؟

ـ لا يهم •• اذهب يا ابني لعلك تجده •• دائما نجد ما تتيه من الغنـــم •

وتلفت يمنة ويسرة فلم يسعه الا الرضوخ •• وبعد العشاء تنـــاول بندقيته ، وقبل ان يخرج •• سألها :

ـ اين كنت ترعين •• ؟

ـ جنوب الوادي •• قرب ارض موسى •

تحرك •• كان الليل شديد الظلام •• شق طريقه الى الغرب •• وما ان ترك البيوت وخرج الى الارض الفضاء حتى سار نحـــو الجنوب والهواء البارد يثلج وجهه •• عيناه تحاولان النفاذ خلال العتمة دون جدوى •• صوت تكسر قشرة الارض الجافة تحت قدمية تشكل نغما رتيبا ظل

يتسمعه •• وكانت بندقيته معلقة على كتفه الايمن ويداه مضمومتين •• ترقدان الى جانبه •• دافئتين بفعل عباءته الصوفية السميكة •• كان المكان موحشا •• مقفرا •• وكأنه يسير في أرض خراب •• تذكر •• لو كان الوقت صيفا لكانت احلى نزهة •• حيث الليل الجميل واصوات الجنادب والحيوانات الصغيرة تؤنسه وتشغله عن الارتداد الى نفسه •• اما الان •• فالصقيع يتجمد في جسمه وينسحب الى اعماقه •• والظلام الشديد •• والسكون الذي يمزقه بضربات أقدامه كل هذا جعل مشاعر الرهبة تتسلل الى حناياه •• « أتعب بلا فائدة •• انا اعرف انني سأجوب الارض ولا أحصل على شيء ابدا •• ولكنه أبي •• لو جاءت الدنيا باسرها لما افلحت في اقناعه •• » وقف •• تلفت •• لم ير شيئا •• فكل ما هناك متوار خلف سجوف الظلام القاتمة •• ضحك هازا يده « يريدني ان اجده في هذا الظلام •• يا للعقل !! الا اذا مددت يدي وحبوت على ركبتي أتلمس اشياء الارض يا للعنة !! اذا أراد الله ان يعذب احدا لن يريه راحة ابدا •• لا •• هذا جنون •• لارجع واقول له فتشت كل مكان وما تركت شبرا من الارض•• ومن يدريه ؟ فلا سبيل لقهر الظلام والعثور على أشياء ابتعلها في جوفه المعتم •• لا •• لا •• علي ان امضي لعل الله يوفقني فاعثر عليه •• مسكين ابي •• هد البثر كيانه •• ولكنه عنيد •• يقول اننا لن نرحل حتى لو هلكنا هنا •• »

عرج الى الغرب دائرا مع دوران المرتفع ، ثم اشرف على الناحية المقابلة للقرية تماما •• فكم مرة حينما كان القمر طالعا رأى القرية تربض تحته الى الشرق في هذا الوادي الطيب •• استدار « أرجع •• أرجع •• أحسن فما فائدة وقوفي هنا أو سيري ؟! » أحس بحركة قربه •• فجفل

وجعل يرمي أنظاره بلا جدوى •• سار بتؤده •• صوب الصوت •• خيل له ان الحركة قريبة جدا منه •• نظر بقوة حتى كادت عيناه تجحظان •• استطاع ان يلمح ثلاثة اشباح لحيوانات لاهية •• كتم انفاسه وراح يرقبها بحذر •• ويقترب محكما قبضتيه على بندقيته •• عرفها من حركتها •• ثلاثة ثعالب •• ذكرين وانثى •• اقترب اكثر •• ثم توقف خشية انتباهها •• كانت الانثى تقف مبتعدة والذكران ينظران الى بعضهما •• احدهما يرمق الاخر بغضب •• تحرك احدهما صوبها فخف الاخر معترضا طريقه •• يزمجر مكشرا عن أنيابه •• نسي كل شيء وانصرف الى تأمل المشهد •• « ترى من ينالها ؟ لم يعبأ ذاك بزمجرة الثعلب الاخر •• وتقدم منها •• نهشه الاخر من الخلف •• فاستدار نحوه وصرخ في وجهه •• أجابه الاخر • فقفز عليه وولى ذاك هاربا أمامه •• صوب هاشم •• فخشي ان تكتشف وجوده وتهرب ، وظل ساكنا ••ثم عاد الثعلب الاول الى الانثى التي كانت ما تزال تنتظر •• وعاد الآخر مسرعا •• لم يمكنه منها •• فقد عضه من عجزه ، واستدار الاول اليه ينهشه •• عند ذاك استدارت الانثى وصارت تنهشه هي أيضا ، تعاونا عليه فولى هاربا •• ردد « كان هذا اقوى •• وأثبت منه •• أخذها بجرأته وحماسته •• » ولا يدري لم تذكر حسنه •• فقال « لا •• ليس هناك من يحبها غيري •• أنا فقط •• البنات في قريتنا كثيرات •• وستكون سعيدة لو أقدمت عليها •• » طمأن نفسه فتنهد بارتياح ثم تحرك •• « هذه هي مغاور الذئاب ولابد ان يكون جلد الخروف في واحد منها •• » وأتاه عواء الثعلب المطرود •• وخيل اليه انه ينتحب • (ولكن ما يجديه النحيب وقد استلبها غيره ؟ لا •• الافضل له ان يبحث عن غيرها ••

وجاوبه عواء من جهات عدة •• « لا ادري ان كنت في مملكة الثعالب ام الذئاب ••!! ماذا سيقول لو رآني احد •• ؟ لص ؟! لربما •• لو قلت لاحد اني ابحث عن خروف لما صدقني •• وانا في أرض للذئاب •• » تحرك •• « حدست هذا من اول ما جئت •• فماذا تراني أفعل والظلام يبتلعني •• حتى انا نفسي •• كان خروجي جنونا •• هذا هو ابي •• لا يريد الا أشياء بعيدة •• تغوص في أعماق الظلام •• »

وصل جنوب القرية •• وهم بمواصلة السير لكنه عدل وآثر السير من خلال البيوت وقد انتصف الليل •• حدث نفسه « لو رأتني حسنة الآن لفزعت •• لتوهمت اني •• يا الله !! كيف نسيت ؟ ولكني لا أظن انها ستعتقد في مثل هذا الامر •• انها أعقل من ان تظن هذا الظن •• ولكن ألم أرها تفزع وانا اقول لها •• « حسنة •• انا اريدك •• » اذاً فهي ظنت بي سوءاً •• »

اقترب من بيت حليمة وعيناه تتلمسان طريقه •• ثم توقف فجأة •• وهو يلمح شبحا يخرج من بيتها •• أذهلته المفاجأة للحظات •• حاول أن يهتدي لما يوضح له ما رأى •• ثم وجد نفسه ينطلق في أثره يطارده •• « من •• ؟ من هذا ؟! لسوف اتبعه الى بيته •• الكلبة •• يأتون لبيتها هنا •• ولم تحترم ذكرى المتوفي •• المسكين •• صدق من قال : النساء شر على الارض » وعثر بحبل خيمة ووقع على الارض •• فانتبه الرجل الآخر وفر هاربا •• وسرعان ما نهض ولكنه لم ير شيئا أمامه •• « آه •• لو كنت رأيته لعرفت كيف اكلمه ••اما الان فلن يصدقني احد ـ لو قلت •• انا نفسي لو أتاني احد وقال لي لما صدقت •• فمن يتصور •• حليمة يقصدها الرجال ؟ حليمة تسقط !! امر مريع يارب !! ولكنها امرأة

.. ترى من يجرؤ منهم ؟ يا للساقط .. عديم العرض والشرف .. حليمة ويعمل معها مثل هذا العمل ..؟ ولكن لعلها هي التي قبلت فلا أظن ان احداً يمكن ان يجرؤ دون رضاها .. هكذا تضيع كرامات الناس .. وعزة نفوسهم .. ولكن ألم تخف ؟ لو سمع ابي لقتلها وقتله .. لو قلت له سيجعل من نفسه أخاً لها .. وسيقتلها .. ولكن من هذا الذي غرر بها ؟ لا .. لا .. لا يمكن ان يغرر أحد بأمرأة .. بـــل هي التي ... » تذكرها .. « انا نفسي رأيتها تنظر الي بوقاحة .. عينهـــا جريئة .. لا تحجم عن مخالطة الرجال .. الساقطة .. آه لو تمكنت من امساكهما معا .. تستحق القتل العاهرة .. كثيرات هن اللواتي يفقـــدن أزواجهن دون أن يعملن عملها .. ولكن السقوط بذرة في النفس .. »

وأقبل على بيته .. دخله وألقى ببندقيته الى مكانهـــا ثم اقترب من أبيه ونظرات زهرة تتكسر على وجهه المظلم .. حاسة بحلقها يجف .. « هذا حظي .. ماكان لي أن ألهو .. » قال هاشم لابيه :

ـ لم اجده .. جبت كل الارض فلم أعثر له على أثر ...

ـ أين تجده .. !! فلا يمكن أن يظل الميل ..

ورنا بنظره الى زهرة .. وهي تلتف بغطائها .. وتدفن وجهها في ملمسه الدافيء .. ثم قال متأوها بحرقة :

ـ حظنا هذا .. مصيبة فوق مصيبة !!.

١٤

« لا شيء أشد مرارة من الفشل •• » فكر الزاير بهذا وهو يبتلع ريقه بصعوبة •• بينا نظر اليه هاشم من بين أهداب مسبلة •• فأحس بهبوط في معدته وألم يسـري ليترع أعماقه بالحزن العميق « لم تر من الدنيا غير قليل •• عش ياراضي وشوف •• الواحد من النـاس الذين لا يعرفون غير الوفاء ومحبـة الاخرين لا يرى منهـا غير الصدمات المتلاحقة •• » ولكن ما يضيرك منهم ••؟ ان رحلوا على انفسهم وان بقوا لهم •• المهم انك ستبقى •• وستريهم كيف ستبقى •• ولكنهم لن يذهبوا غير هذا الموسم فقط •• ويرجعون في العام القادم •• يحافظون على حياتهم وحيواناتهم ويحصلون على ما يعيشون به •• وأنت تبقى لتفعل ماذا ؟ حظك وحظ حيواناتك يجعلك تصر على البقاء •• اعـرف يا راضي ان العناد لا يؤدي الا بصاحبه •• وأنت رجل كبير وعاقل •• « ولكنهم لم يرحلوا بعد !! لم يرحلوا •• » وحتى لو لم يرحلوا فالواحد لما يعمل الشيء لاينفع غير نفسه « لا •• لا •• يجب ان لا أرحل •• يجب ان اعمل لنبقى•• نعمل ونعمل حتى نعثر على ما ينقذنا •• ويمنعهم عن الرحيل •• » واذا

جفت الدنيا وانقطع المطر لسنين •• نموت جوعا •• هه ؟؟ « لا •• ليس هذا بالرأي الصحيح •• عليك ان لا تقوله أنت •• سواعـــد الرجال تصنع المحال •• » وأين هم الرجال •• ؟ هامل ؟ •• ها ها •• لو كانوا رجالا حقا لتعاونوا لحفر عدة آبار •• لعل واحدة تنجح •• لا •• ليس هؤلاء رجالا •• الرجل الذي يعمل » واذا عملوا وضاع عملهم مثلك ••؟ أنت ايضا عملت يا راضي •• ولكنك لم تحصل على شيء •• « الله كريم •• الله كريم •• » •

رنا هاشم الى ابيه •• وهز رأسه « هؤلاء دائما هكذا •• يأكل روحه ويجتر احزانه •• اشياء كثيرة تحدث عند الناس •• يفقدون الاعمال ولا يحزنون حزنه •• لم تخرج •• ولم تر الناس •• ليس هذا عملا يا أبي •• تخاف ان تسمعهم يقولون « هه •• أين بئرك يا راضي ••!؟ » وانا اراهن انك تعرف كل ما يدور على السنتهم •• حتى انا لا استطيع ان اخرج وانت تلزم البيت •• ولو قلت لك لصحت بوجهي ونهرتني •• ولكنـي موقن انك تعرف كل شيء •• لم ار حسنة طيلة الايام الثلاثة التي مرت•• حسنة الفتاة العاقلة •• لم يحدث شيء مما خيل لي •• فهي اعقل من ان تقول شيئاً •• لم أرها بسببك يا أبي •• لو تخرج •• انبذ كل احزان قلبك في مكانك وواجه الناس •• انفث خيبتك بحسرة طويلة •• فماذا يقول الناس عنك ؟ انني لن انساك يا حسنة •• لقد جعلك الله لي وجعلني لك •• أفأريد اكثر من هذا ؟ لا قلت •• ولا بحت لاحد•• لعلك تدبرت كلماتي وارتعش قلبك بمثل ما يرتعش به قلبي •• انا اعرفك جيدا •• فتاة حلوة •• لا تفوتها مثل هذي الامور •• ملامحك تحكي ••• جفونك تحكي •• أهداب عينيك •• كلها تبث قلبي شوقها وتجعله يرقص طربا••

ويغني •• يهتف بحبك •• ضحكتك تجعلني اقفز مرحا •• آه •• ثلاثة أيام لم أرك فيها •• ظننت ان البئر ينجح وتفاخرين بي •• ولكنه حظي التعس •• لم يكتب لي ان افرح •• » وتنحنح رجل في الخارج فانتبها •• وصاح :

ـ ابا هاشم •• ابا هاشم ••

فخرج هاشم اليه •• قائلا :

ـ نعم •• تفضل ••

ـ ابوك موجود ••؟

ـ نعم ••

تقدم العطار وفي أثره هاشم •• سلم على الزاير •• فرد تحيته •• وما ان اعتدل العطار في جلسته حتى قال :

ـ لم نرك يا ابا هاشم •• لم ••؟

ـ والله لم اقدر •• فانت تعرف اني تعبت كثيرا •• واحس ان رجلي تؤلمانني ••

ـ حقك •• كدت تسقط من التعب ••

ـ ايه •• كل شيء بيد الله ••

ران الصمت •• فقال هاشم في نفسه « بيد الله وتلازم بيتك •• ولا تدري انك بتواريك تجعل الالسنة تنطلق عليك • »

ـ خشيت ان تكون قد تعرضت لمكروه ••

ـ لا •• ولكنه تعب فقط ••

ـ التعب يزول •• ان شاء الله يعوضك خيرا عنه •

ـ يعوضني •• ؟ الله كريم ••!!

وسمعوا وقع أقدام كثيرة •• ودخل رجال القرية •• « ها هم أتوا •• يا الله •• أرأيت ؟! لم يجدك هربك •• » وصاح الاب :

ـ هاشم •• قم اعمل الشاي ••

ونهض ببطء وكأنه يحمل على صدره ركاما ثقيلا •• كلهم حتى هامل معهم •• « آه يا ابا حسنة •• ليتك تعدل عن الرحيل •• فالدنيا متقلبه •• وان تذهب حسنة يذهب قلبي معها •• ولن أحصل على فتاة مثلها ابدا •• هي روحي وعقلي •• ولكن ما الذي اعمله لك يا رجل لتبقى •• هذي أرضك •• شهدت مولدك •• رددت سماؤها صرخاتك الاولى •• وترحل عنها ؟! »

وسمع زاير محيسن يقول :

ـ لا ادري كيف خرج منها الماء •• هذي الارض الميتة ••

« الله يا هذه البئر •• سوف لن يتركوا حديثها •• ولـــكن حقا ما كان على بالي ان يخرج الماء •• وبهذا المذاق •• كان الجميع يقولون بان الارض عطشى •• وليس بها ماء » وسمع هامل يجيب أباه :

ـ مثل ما تقول •• ولكن الرحيل لابد منه ••

ورد الأب بصوت مشروخ :

ـ لا •• الرحيل ؟! لا •• فهل ستتركها لو انقطع المطر عدة سنين ؟

ـ وماذا اعمل ••؟ أألتصق بها لاموت جوعا أم ترى ألتهم ترابها •؟ القضية صعبة يا ابا هاشم ••

وقال العطار بصوته القوي :

ـ انا لا يهمني •• ولكني ارى فكرة الرحيل خاطئة •• خاصة الان•

وقال أحدهم :

ـ صحيح •• فما يزال أمامنا الوقت •• ولا تنسوا أننا في منتصف الشتاء •

ـ في منتصف الشتاء ولم تنزل قطرة مطر واحـــدة •• واذاً متى تمطر ؟! في الصيف ؟!

قال هامل هذا ثم طفق يضحك •• فأجابه آخر :

ـ رحمة الله أقرب من لمح البصر •• فلو نصبر !!

وأجابه أبو هاشم بنبرة ثابتة •• قوية :

ـ من الذي يصبر ••؟ هكذا نحن دائما نيأس بسرعة ••

ـ لا ترحلوا انتم •• انني اريد ان ارحل •• فما شأنكم بي •• ؟

ـ هذا شأنك يا أبا حسنة •• ولكننا نرى الانتظار أجدى ••

ـ انتظرت طويلا وما ازال •• وغنمي تهلك امام عيني ••

الحقيقة انني أصبر على كل شيء الا على هذا ••

ـ كلنا مثلك •• ولكننا ننتظر رحمة الله ••

ـ سأرحل •• سأرحل بوحدي ولن أقول لاحد تعال ارحل معي •• فماذا تريدون مني ••؟!

ـ لنا الله !!

١٥

قال الاب لابنه صباح اليوم الثاني :

ـ ليرحل هو •• فلن يلوم الا نفسه ••

وصمت الابن وراح يبتلع كلمات أبيه بصعوبة •

ـ انه لن يوحش أحداً •••

« لن يوحش أحداً •• أنت فقط تقول هذا يا أبي •• ولكن ماذا بوسعي أن اعمل •• ؟ هل أرتمي على أحضانه أتوسل اليه أن يظل في مكانه لاني أحب ابنته •• ؟ لا •• لا •• انه سيغضب •• سيجن وينتقم لو علم •• ولكنه سيرحل !! لقد قال هذا •• وكل الناس يقولون •• وأنت يا ابي تقول انه لن يوحش احداً •• ليتك تعرف كيف يتمزق قلبي الان •• انا ابنك هاشم يعتصر الالم روحي وامضغ احزاني من خـــلال صموتي •• ولو كنت كبقية الاباء لافضيت لك بكل شيء •• ولكنه غضبت لوحدك لان البئر فشلت فماذا لو وقفت أمامك وقلت لك اني أحب بنت هامل •• ؟ اذاً لطاردتني بالبندقية تهددني بالقتل خاصة وانت تحلم بان تزوجني ابنة أخيك •• ولكنني اؤكد لك باني لن اتزوجها •• لن اتزوجها

لو انقلبت الدنيا واجتمع كل الناس •• اما حسنة بنت هامل وامـــا فلن اتزوج ابداً •• ستعرف فانك لن تستطيع تزويجي قسرا •• هذا محال•• فاني سأرفض كل زواج •• اعرض عنه مادامت زهرة موجودة •• ولابد لك ان تعرف •• وما اشك في انك ستعرف يوما »•• وجاءه صـــوت أبيه فاترا :

ـ ليساعدنا الله •• وليبارك جلدنا على العمل •• اما هامل ومـــن يتبعه فلن يحصلوا الا على فتات الناس في الاراضي الاخرى •• والله انا لو اعطوني اي شيء وبه منة من انسان لرفضته حتى لو مت جوعا •• هنا نعيش بعزة وكرامة فأين يريد بنا هامل •• ؟ لن يرحل معه احد •• ابــــداً ••

« ليتك يا ابي تعمل مثله •• فانا اخاف ان يأتي يوم تندم فيه فلا يفيدك ندمك •• » وسمع اباه يقول :

ـ لسوف نحفر بئرا اخرى •• وسأختار ارضها جيدا •• في أي أرض •• حتى اذا بعدت عن أرضي بمسافة ••

أحس هاشم بألم في جبهته وبضيق في صدره •• فنهض متأوها وانسل وهو يخالس أباه النظر •• « لاهرب قبل ان يأخذني معه آه •• لم ار رجلا مثلك يا أبي •• أمس وأنت تخشى الخروج للناس أم لم يؤثر فيك ذاك ؟ » ترك البيت متواريا خلف الخيام •• واضطر للمرور قرب جثة حمار ميت•• فقال في نفسه هازا يده « يبقون هنا للموت •• حظ الحيوانات المسكينة هذي •• » كانت خطواته سريعة فكأنه يهرب من مطاردة يخشى ان تؤدي به •• ثم انحرف •• ومع انحرافه وقعت عيناه على حصان يرمقه بعين دامعة •• يمد اليه نظرات حاسرة •• متوسلة ••

اتخذ الوادي سبيلا وامتد معه شرقا •• تقوده قدماه دونما وعي •• فتساءل « أحقا اني ذاهب اليها ؟ وماذا أقول لها ••؟ ولكن من يقول انها هناك ••؟ ألا يمكن ان تكون في مكان آخر ••؟ آه لو رأيتها •• فسأقول كل شيء •• سأحاول ان أفهمها أحسن مما سبق •• » رفع عينيه الى السماء •• كانت ملبدة بالغيوم « ستمطر الدنيا وينتهي كل شيء •• فماذا يريد هامل غير ضمان عيشه ؟• حقه الرجل •• لا يستطيع ان يبقى واغنامه تفنى •• وكلهم مثله ولكنه رجل يتدبر اموره اكثر منهم جميعا ••وحسنة مثله •• تفكر بكل أمر •• ولقد فكرت بي طويلا •• فلا يمكن أن تنسى كلماتي ••

أحسنت حينما كلمتها •• احسنت •• ومهما يكن فما اتيته لخير من أن اظل ساكتا » لمح عن بعد جمعا من الرعاة •• فابتسم ابتسامة باهتة حاسا بروحه تجفل مضطربة « أظنها معهم •• يا الهي •• ماذا أقول لها •• ؟ اعتقد ان من الاحسن ان ارجع فما استطيع ان اجعل عيني تنظران اليها •• لا أقدر لا أقدر •• ولكني استطيع ان اظل ارقب وكأي فرد هناك ••»

وخيل له انها تشيح بوجهها ممتعضة لمرآه •• فارتجف قلبه بعنف وقال « هذه غلطتي •• ما كان لي ان اطلعها •• عليّ ان اعتبر من هذه المرة •• أفهل رأيت يا هاشم •• هذه غلطة كبيرة •• غلطتك •• كان عليك ان تضم صدرك على سرك وتلاحظها عن كثب •• ولكن الى متى •• ؟ لا لاقول وينتهي كل شيء •• فلو كانت لا تحبني وتحب غيري فهل بامكاني الزواج منها •• ؟ ابدا •• انني مجنون يوم احببتها •• هذه الفتاة •• وحيدة ابويها •• »

تشبثت نظراته بهم وهو يقترب متصفحا الوجوه •• ولم يعثر عليها

بينهم •• فأحس بفراغ في روحه •• وبأسى يلون نظراته •• « لم لم تكن هنا •• معهم ؟ ترى هل حدث لها شيء •• لو أراها !! آه •• انا لا احفل بهؤلاء جميعا •• لا •• نما جئت الا لأجلها •• قادتني قدماي الى هـذا المكان لان عقلي يبحث عنها •• فمنذ ذلك اليوم وقلبي يحوم حولها رغما عني •• ولكن اين هي ••؟ لم تكن من عادتها الانفراد وحدها •• رباه•• ليكن كل شيء الا ان تكون مريضة •• يجب ان أراها •• ابحث عنها ••»

اقترب منهم محييا « أأسألهم ••؟ •• لا •• فماذا يقولون ؟ يجب أن أعقل » لم يتوقف معهم •• وواصل سيره باتجاه الشرق « انها لابد ان تكون هنا ان كانت قد خرجت •• والا فانها مريضة •• وعليّ ان اسأل عن صحتها •• سأسأل بصوت عال لعلها تسمع فتعرف المعنى الحقيقي لكلماتي تلك •• لا •• لابد انها عرفت الان ••

خرج من الوادي الى الارض المفروشة بالحصى الصغيرة والكبيرة •• ولم يكن لتتأثر اقدامه بها شأن ابناء منطقته •• ولكنه احس بها تطمس في راحته تلك الساعة •• وكأن شيئا من التعب قد غزا ساقيه •• بيد انه لم يعبأ بشيء •• وما ان انحرف الى الجنوب •• الى منخفض آخر حتى لاحت له •• عرفها فاضطرب •• تقدم وهو غير مصدق انه قاصد اليها وظل يمشي وهواجسه تتضارب في صدره ونفسه تميل للعدول والرجوع ، وبدا كأنه يجر قدميه جرا •• « أذهب اليها •• وماذا اقول لها ؟ » ردد هذا السؤال مرات كثيرة وما يزال يتقدم ثم تحرك بقدم ثابتة قائلا في نفسه « لاذهب وليكن ما يكون •• »

وفطن لها وهي ترنو اليه من بعيد •• فأحس ببعض الاضطراب •• حتى اذا حاذاها •• تلعثم وهو يهتف :

ـ حسنة •• هل رأيت زهرة ؟ •

ـ كانت وراء ذاك التل •• وما ادري اين ذهبت !!

أدار انظاره حوله •• ثم نظر اليها باستحياء بينا هي مطرقة تدق بعصاها الارض دقات رتيبة •• وأخيرا رفعت رأسها اليه لما رأته من طول صموته •• وقالت :

ـ مسكينة •• كانت تبكي على الخروف ••

ـ ولِمَ تبكي •• ؟ لقد قلنا لها ليذهب فدية لاعمارنا ••

ـ مسكينة هي •• حتى لم تقترب من البنات ••

ـ وماذا نعمل لها اذا كانت تبكي في البراري •• تؤذي نفسها •

ـ قلت لها •• مسكينة •• لو رأيتها لظننتها مريضة من أيام •

ـ تقولين انها كانت وراء التل •••؟

ـ نعم •• كانت •• ولكني لا اعرف ان بقيت الان ام لا ••

تحرك صوب مرتفع صغير •• ثم أعتلاه ونظر •• فلم ير أحدا •• وعاد الى حسنة يقول :

ـ لم يكن هناك احد •

ـ اذاً قصدت مكانا آخر ••

ـ لتبكي به قليلا ••!! يالها من بنت ••

ـ لا هاشم •• ارفق بها •• فهي كما تعرف ليس لها غيركم ••

ـ ولكني لم أملك أن أصيح بها •• ألم ترى ؟ أنا وأبي ندللها •• انها لم تر هذا قبلا •• في بيت عمي ••

ـ صحيح •• انتم أناس طيبون ••

تجرأ على النظر اليها •• بيد انها تحاشت نظراته •• وكأنها تخشى

من أن تطفأهما عيناه •• اقترب منها أكثر وقال :

ـ اسمعي حسنة ••

ورفعت نظرها الى وجهه مستفهمة ثم أطرقت •• بينا تابع :

ـ انت لم تفهميني قبلا •• لقد اردت ان اقول لك اني ارغب في الزواج منك •• ولكنك ••

ـ لا •• هاشم •• لا تعد لمثل هذا •• فان أبي ••

وبوغت •• فما له ابوها ؟ هل قالت له •• ؟ وبقي يرمقها بعيون زائغة •• منتظرا ما ستقوله •• حتى استتلت متلعثمة :

ـ اقصد ان أبي لا يقبل ••

« ابوك لا يقبل •• اظنك قلت له كل شي •• يا للمغفلة !! ولِمَ لا يقبل بي ؟ أم تراه يأخذني بأبي ••؟ » وقال لها :

ـ أأخبرته بما قلت لك ••؟

ـ لا ••

وتنهد بارتياح بينا واصلت بلهجتها المضطربة :

ـ ولكنه لا يقبل ••

وتمزقت روحه وهي تغوص في ظلام اعماقه :

ـ وأنت يا حسنة ••؟ انني أحبك وأريد الزواج منك ••

وقرأ في عينيها الشك واضحا من قلق نظراتهـــا وهي تقول بنبرة مرتعشة :

ـ وزهرة ؟!

ـ زهرة ••؟ لا عليك بها ••

ـ كيف وهي ابنة عمك وكل الناس يعلمون انك ستتزوجها ام

تراك تريد الضحك مني ••؟

ـ لا يا حسنة •• لا تقولي هذا •• اما زهرة فانني لا احبها ولا يمكنني ان اتزوج الا ممن أحببت •• وقد احببتك ••

ـ انا لا اقبل •• فان زهرة •• اقصد ••

ـ قلت لك لا عليك بها ••

ـ ولكن اباك يريدك لها •• وانت تريدها ••

ـ لا •• حسنة •• أنا لم أردها يوما •• ولكنهم فقط الذين يقولون

وصمتا للحظات •• ثم عاد يقول ناسيا وجوده •• غير آبه لما عراه من اضطـــراب :

ـ انا احبك يا حسنة •• احبك مثل روحي •• فلـــو طلبت قلبي لاعطيته لك ••فهل تحبينني انت ؟

ظلت صامتة •• مطرقة دون أن تجيب فسألها كرة ثانية :

ـ انت تحبينني ياحسنة •• تحبينني •• أليس كذلك ؟

وابتسمت •• ثم انفرجت شفتاها عن ضحكة خفيفة •• مديرة وجهها بعيداً عنه •• فابتسم هو الآخر حاسا بفرح وغبطة •• وانطلق لسانه :

ـ كنت اعرف انك تحبينني يا حسنة •• قلبي همس لي بهذا •• آه لو تعلمين ما بقلبي الان •• اذاً ••

وحاولت ان تبعده وهي تقول بنبرة خائفة :

ـ هذي زهرة أتت •• ابتعد •• فماذا تقول ؟•• قصف الله عمري حين وقفت معك ••

والتفت الى ورائه •• كانت زهرة تسير بخطوات مفككة وعيناهـــا مشدودتان بهما •• وفمها مفتوح ببلاهة •• تفكر •• « من أتى به الى

هنا •• ؟ وما الذي يعمله مع حسنة في هذه الخلوة •• ؟ هل عشقها ؟ الشيطانة •• » وحينما اقتربت احست من اضطراب وجودهما وشحوب حسنة انها ما ظنت اعتباطا •• فهاهما يقفان صامتين •• ويدا هاشم ترتجفان •• ولم تقل شيئا •• بل وقفت قربهما لحظة ثم قالت لحسنة :

ـ حسنة •• اذا ذهبت لمكان آخر اعلميني

وتركتهما لوحدهما متحركة صوب الوادي تلوك هواجسها وكتل من احزان ثقيلة تربض على قلبها •• وهاشم يلعنها في سره متمنيا تحطيم جمجمتها •• « فلو لم تكن هي لما عارض ابو حسنة ولقبله زوجا لابنته •• ومعها تحاول اقحام نفسها عليه •• ولكن ما الذي أتى بها •• وفي هذا الوقت ؟! » وحينما رفع عينيه الى السماء •• الفاها صافية الاديم ، وكأن عصا ساحر قد مسحتها مسحا •

١٦

« الدنيا دنيا والمكتوب على الجبين لا يمحوه قول او عمل •• ومـــا ادري كيف ارتضيت لنفسي هذا الامر •• رباه ماذا يقولون ••؟؟ حليمة امرأة حنون و •• دخيلك يارب •• اللهم استرني حتى تفرجها •• هو رجل ممتاز وما اطلب احسن منه •• حسين على العين والرأس •• رجل وزين •• رأى حالتي وحن علي •• البارحة وأكد لي رغبته في الزواج مني •• آه •• حسنا فعلت يا حليمة فما يجدر بك ان تفلتيه •• هـذا الرجل » كانت تفكر بهذا وهي تعمل على اخراج نعجاتها من الحظيرة ، مستشعرة بعض الخوف •• فقد أحست وبغريزة الانثى انها في طريقها الى الحمل •• ولابد من زواجه منها قريبا •• والا فما مصيرها غير القتـل الشنيع •• !!

أمسكت بعصاها تهش على نعجاتها الاربع •• لا تكاد ترى طريقها لفرط ما تفكر فيه •• فهي وان كانت مطمئنة الى كلامه •• تثق فيه كل الثقة الا ان بعض الخوف بدأ يلامس قلبها ويتردد في صدرها ، ثم لامت نفسها •• فلو تمانعت عنه •• اذاً لكان يتزوجها ما دام يرغب بها ، ودونما

وعي ارتفعت يدها تسوي وضع عصابتها على رأسها . وتلمس جديلة شعرها المتكورة على جانبها لتخفيها في العصابة .. وتنهدت .. « ما كتب على الانسان لابد ان يراه .. لكن الحظ الزين يحفظ من مهالك الدنيا والحظ الرديء ... ؟ وعنفت نفسها .. فلِمَ تفكر هكذا ..؟ ألم ترغب هي الاخرى .. ؟ ولو حاولت صده فهل كان يفعل شيئا ..؟ لا .. ولكنها رغبت . ورنت كلمة الزواج رنينها العذب في اذنها وكأنها تحلم.. فنسيت كل شيء .. الرجل ما يزال يتمسك بوعده في الزواج ولا يصح ان تفكري بهذا .. ألا ترين ؟ هو الوحيد الذي همه امرك دونهم جميعا .

ولمحت جمعا من الرعاة يتأهب للخروج .. وسمعت اصواتا لم تفهمها لطغيان ثغاء الاغنام وعجبت اذ وجدت نفسها لا تستطيع ان تفعل ما كانت تفعله قبلا .. لا تستطيع الاقتراب من أحد او محادثته .. بدأت تخشى الناس ولا تدري لِمَ .. !! تهرب من كل عين .. حتى اذا قربت توقفت قليلا وهي لا ترفع انظارها عن الارض .. وكان هاشم واقفا هناك مع زهرة وحسنة وبعض الرعاة الآخرين .. وأتاها صوت حسنة من بعيد :

ـ تذهبين .. ؟

فرفعت رأسها قائلة :

ـ نعم ..

وللحظة .. التقت عيناها بعيني هاشم ، وهالها ما رأت في نظرته من شرر يتقادح ، وعلائم غضب تعقد ملامحه ففزعت هاربة بعينيها وواصلت طريقها .. وحينما التفتت كان ما يزال ينظر اليها ووجهه محتقن احتقانا شديدا .. « ماذا دهاه ينظر الي هكذا وكأني مجرمة ..؟ » ولم تعرف

انه يود التهامها بعد ما رآه في تلك الليلة •• كان ينظر اليهـا غاضـبا ، وخياله ينتزع منها ثيابها ويصورها له واقفة بعري تام مع رجل آخر •• وكانت جميلة حقا •• توقظ رغبة اكثر الناس بعداً عن الرغبة ، وما ان وجد نفسه يفكر بهذا حتى قال في نفسه « هذه المرأة عاهرة •• ولابد ان تقتل ••• لابد ان تقتل •• »

وكانت قد ابتعدت ، وزهرة معها تسايرهـا •• ورغب في الصياح بزهرة لتبتعد عنها ولكنه امسك ، ثم تلمست عيناه مكان حسنة فالفاها تسير بتؤدة قريبة منه •• وتلاقت عيناهما بنظرة خاطفة •• مائلة •• واحس بروحه ترقص •• وبرغبة عارمة في مسكها وتقبيلها •• « كنت أقول •• فها هي ذي حسنة تحبني •• آه سترين كيف أسعدك •• » كانا ينظران لبعضهما خلسة •• هي تسير في أثر الرعاة •• وهو الى الجانب البعيـد يسير متتبعا آثارها •• ولمح زهرة تنظر اليهما ملتفتة بين الفينة والاخرى تزم شفتيها بقوة وكأنها تبتلع أشياء قاسية •• نظراتها كسيرة •• ضعيفة مثل تأوهات روحها الخفية •• كانت تقول في نفسها •• « اين حظي حتى احتفظ بهاشم •• هذي المحتالة •• أخذته بتبذلها •• و •• » ووجدت نفسها تهم بالبكاء •• فأمسكت ، وحينما نظرت الى حليمة لمحت ما عراها من شحوب •• وما في نظراتها من ألم مشوب بدهشة •• وتذكر هاشم اباه فتوقف للحظة •• وكأنه لايرغب في الابتعاد عن حسنة ثم اطلق حسرة طويلة وعاد ادراجه شاعرا ببعض الحنق يتحرك في صدره •• فماذا يريد أبوه ••؟ ماء ؟! ليس في هذه الارض ماء •• أيريد موته •• ؟! ولكنه ألفى نفسه يسير نحو البيت ثم قال في نفسه « لا •• ليس لي ان ارافقها دوما لئلا يفطن الجميع •• وزهرة ؟! اوه •• سأحكي لها كل شيء •• »

انتبذت زهرة وحليمة جانبا بينا التحقت حسنة بباقي الرعاة •• وكانت ترمقها هي الاخرى بين آن وآخر قائلة في نفسها « عرفت هذي كـــل شيء •• ولكنه هو الذي بدأ •• لقد ضيق علي وما بدر مني شيء •• ولكني اعرف •• ستظن اني استدرجته •• ولتظن ما تشاء فما تجروء على البوح لاحد مادام هاشم موجودا وهي تخشاه على الاقل •• وليس لها ان تقسره على الزواج منها •• ولكن كيف ارتضيت انا ؟ فلو سمع ابي !! اوه انني لم اقل شيئا ولم ارتض •• انه هو •• هو الذي ينظر وليس لي ان امنعه من النظر الي •• ولينظر •• فهو الرجل الـــذي تحلم به اي فتاة هنا •• »

وتذكرت حسين فابتسمت تقول « هذا الاخر يريد الزواج بي ايضا •• وما دام الامر ليس بيدي •• بيد أبي •• فليقدم اي منهما •• هاشم أحسن منه •• لا •• لا •• هما الاثنان افضل الشباب هنا •• ولكني اتمنى لو جعل حظي هاشم لي •• ولكن زهرة •• وأبي •• أبي •• يحب حسين •• وامي حدثتني عنـــه •• وهو ينظرني من بعيد •• آه •• لسوف أنتظر وكلاهما رجل عظيم » وأحست بنظرات زهرة النارية تجلدها فاستشعرت رغبة بالضحك •• بيد انها بقيت صامتة واكتفت بان اشاحت بوجهها عما ترميه زهرة بها من نظرات واجدة ••

وكانت حليمة خائفة •• تنظر نعجاتها وخيالها يرسم اشباحا تدس الخوف في قلبها وفجأة قالت تنهر نفسها « مالي •• هذه نظرات كـــل الرجال •• أنسيت نظراته هو ••؟ كان يلتهمني بها •• كلهم هكذا •• يعرون النساء بنظراتهم •• انه مثلهم •• » وتذكرت حسين ومطاردته لها •• كانت نظراته جريئة أيضا ولكن وجهه كان مستنيرا بسطت ملامحه اللهفة

العارمة لها •• كان يدغدغ جسمها بعينيه الوامقتين •• أما هاشم فيصب النار على رأسها من حدقتيه القاسيتين •• لا •• هذا مثل كل شباب القرية لا يعرف ما يعرفه حسين الذي تربى في المدينة وخالط شبابها ولم يأت الا لخمس سنوات •• وهذا عمره كله عاشه هنا •• ما رأى او سمع احدا قال لامرأة كلمة رقيقة •• كلهم •• يخيل اليهم ان المرأة يجب ان تمزق بالعيون •• ويكلمونها والغضب يعصب عيونهم •• نعم •• هو مثلهم •

واستغرقت تتخيله حينما قصد الى بيتها تلك الليلة بعد الحاج أيام ثلاثة •• حقا انها كانت خائفة •• ولكنها ايضا كانت تريده •• والا فلماذا لم تعترض او تنطق ولو بكلمة واحدة •• لا •• لم يكن بامكانها •• فانها لو فعلت لشهرت بنفسها وجعلت اسمها مضغة في الافواه ولقضت عليه •• لا •• الصحيح انك كنت تريدينه •• وهو يحبك •• فما كان صحيحا أن تصرخي بوجهه وتطرديه •• أنت امرأة وحيدة صارت لك سنتان لم يعطف على بابك احد فكيف تطردين شابا جاءك يطلب قلبك ••؟ حسنا فعلت •• فحسين شاب عظيم وسيحملك الى آفاق السعادة •• انه شاب لم تحلمي بمثله ابدا •• حظك الحسن دفعه اليك •• امرأة جميلة وشابة ايضا وان كنت اكبر منه •• ثلاث او اربع سنوات ليست بذات أهمية•• لا •• لربما كان في مثل عمرك ألأنه لم يتزوج تظنينه صغيراً ••؟ كلا •• أكثر الرجال لا يتزوجون حتى يبلغون فوق الثلاثين •• لا أبدا •• انني لست نادمة •• فانا اريده كذلك •• اريده واتمنى ان ابقى معه ليل نهار•• كم كان حلوا وهو يقول : « سأتزوجك يا حليمة •• وسأسعدك •• فماذا تريدين ؟ ابناؤك هؤلاء ابنائي •• لقد فكرت يا حليمة •• انك وحيدة وليس لك احد هنا •• ولابد لك من يعولك ويعول هؤلاء الصغار ••

« آه •• انت انسان شفوق يا حسين •• بل محب •• فلكم يهمك أمري•• تحبني وانا أيضا احبك •• صرت احبك الان بكل ما في قلبي من قوة •• ولكن لو تريثت •• وانتظرت حتى كان الزواج لكان أفضل لي •• لا•• لا •• لربما ذهب ولم ينظر بوجهي •• نعم فهؤلاء الرجال •• »

وانتشلها صوت زهرة من وهدة افكارها •• وهي تقول :

ـ تلك حسنة التي تقف هناك •• ؟

نظرت بانعام •• ثم قالت :

ـ نعم ••

ـ مالها تقف هناك ••؟

ـ يلعبن يازهرة •• بنات ويلعبن ••

وتأففت زهرة •• ونظرت اليها حليمة ثم قالت :

ـ أراك حزينة •• هل آلموك لأجل الخروف ••؟

ـ كـــلا ••

ثم تركت أنظـارها تجوس خلال المـكان •• وزهرة ترمق الواقفة بنظرات حانقة •• وروحها ترتجف في جسدها •• »

١٧

كان المكان الذي اختاروه لحفر البئر الثانية .. ارضا منخفضة واسعة بعض الشيء .. ينبت فيها العشب المصفر .. يقع في الجهة الغربية من الخيام على مشارف الحقول .. يبعد عن حقل الزاير بعدة خطوات.. « ليست هذه مسافة .. » قال الاب في نفسه بينا كان هاشم عاقدا ذراعيه على صدره ينظر اليه بضيق .. متمنيا لو لم يكن عند هذا الاب العنيد .. فانه سيصبر .. ولكنه لايرغب بحياته بعد حسنة .. فمتى يفهم ابوه هذا ..؟! وخط الاب الدائرة قائلا بصوت عال « بسم الله الرحمن الرحيم .. يا الله عليك توكلت وبك استعنت .. وأنت ارحم الراحمين .. » ثم زمّ شفتيه وطفق يحفر بقوة في جانب وهاشم يحفر في الجانب الآخر بفأسه بيدين ثقيلتين .. وبان عليه الالم المكبوت .. فلولا خشيته لابيه ما امسك هذه الفأس التي بدأ يحس بها تجرح راحتيه .. ولكنه مجبر وشتم من وضع فكرة البئر برأسه « لسوف يأتي اليوم الذي انفض كل ما بجعبتي واجن .. فهذا الرجل لا يهتم الا بما في رأسه .. ولا يفكر بغيره ابدا .. ولكن من يدريه ؟ كل شيء على باله الا فكرة حبي نحسنة

•• يارب •• العون منك فكيف اقول ؟ سيصدم ويجرح شعوره اذا ما قلت له بما في قلبي •• سأقوض آماله وامزق احلامه •• ولكني لا استطيع ان اتزوجها وقلبي يخفق لتلك •• لم يكن الامر بيدي •• قلب وخفق فماذا أقول ؟ •• آه يا رب •• كل شيء بيدك •• »

ولاح شبح العطار من بعيد فالقى هاشم بفأسه واستند الى ذراعيه وهو يميل بجسمه الى الخلف محاولا جذب انفاسه فصاح أبوه :

ـ تعبت •• ؟ تضرب ضربتين بالفأس وتتعب ؟ •• هيا احفر •• ان ابني مثلي لا يتعب •• هيا ••

ـ أبي •• هذا العطار قادم ••

ـ وما علينا •• احفر انت ولا تلتفت لشيء ••

فأمسك بالفأس وقلبه يغرق بحنقه المكبوت وراح يضرب الارض وكأنه يضرب جسمه •• والكلل يشد عضلات ذراعيه وحينما وصل العطار •• ظل واقفا للحظات يرقب عملهما بعد ان حياهما •• وأحس بفتور ضربات هاشم فقال :

ـ هاتها عنك •• هاتها •• أنا أريد أن اعاونكم ••

ـ لا •• يا ابا حميد •• هو يحفر ••

قال الاب فشد هاشم قبضتيه على الفأس بعد ان ارتخنا قليلا وراح يضرب دون ان ينظر لاحد •• بينا قال العطار :

ـ انت لست مثلهم يازاير •• والذى لا يعاونك ما عنده مروءة •

ـ أشكرك أبا حميد •• ولكننا لم نتعب •

ـ انت ابو هاشم •• تحفر مئة بئر ولا تتعب •

ـ مادامت قدمي ثابتة على الارض •• فلن أقعد عن العمل •

ـ الله يساعدك •• الله يعوضك عن كل تعبك ••

طاف العطار بانظاره في الحقول وهاشم ينظر اليه من حين لحين « هذا ايضا يفكر بالبئر •• وانا اراهن انه يخشى ان يذهب الناس فلا يحصل على ما استدانوه منه كل ينظر الى نفسه فقط » وبقدر ما كان يتنفس بارتياح لكلماته •• بدأ يضيق بها •• ويتجرعها بصعوبة •• بل وكل البئر جعلته يغمض عينيه بألم ويقبل على الحفر •• فالارض واحدة•• وستكون هذه اردأ من تلك ولكن من يفهم هذا الرجل !؟

وعاد العطار يقول :

ـ هه هاشم •• أما تعبت •• ؟

ـ لا •• ابا حميد •• أنا ••

ـ ولكن دعوني أساعدكما ••

ـ لا حاجة •• ألا ترانا ••؟ نحن الاثنين نكفي ••

ودون ان يتفوه بشيء انحنى يزيح التراب من البئر •• ويرميه الى جانبه •• فينظره كل منهما بصمت •• ومر وقت •• مد العطار جسمه يريحه قليلا ثم عاد وهو يقول :

ـ الله يساعدكم ••

ـ اتركه عنك يا ابا حميد •• نحن نكفي ••

قال الاب بينما أصر العطار على معاونتهما وهو يقول :

ـ لا •• يجب ان اعاونكما ••

ولكنه ما لبث ان نفض يديه لاهثا •• وقال كمن يتذكر :

ـ نسيت •• سيأتي جماعة الى بيتي •• ولكن لابد أن اعاونكما •• في وقت آخر ••

وما ان ابتعد العطار حتى قال الاب وكأنه يحدث نفسه «هذي الارض حلوة •• ترابها الاحمر يدل عليها • فهمس هاشم « صحيح •• انت تعرف !! اترك هذا يا ابي •• وفكر بمثل ما يفكر به الناس •• تراب أحمر •• يكون ماؤه حلوا •• هل هذا حكي ؟! » وغرز الاب المسحاة ووقف يدير انظاره •• « لو يرحل بوحده لهان الامر ، ولكني أخاف ان يرحلوا معه •• أنا اعرف •• ولهم الحق •• ولكن لو يصبروا •• وبصوت عال قال الاب :

ـ يجب ان تحول دون رحيلهم •

« ومن انت حتى تحول دون رحيلهم ••؟ أنت لست غير واحد منهم •• ركبتك فكرة صعبة وتريد ان لا يرحل الناس !! ليرحلوا •• فما معنى بقائهم وحيواناتهم تموت •• ؟ » ورد على ابيه :

ـ هامل يرحل ••

ـ ليرحل بوحده •• ولكنهم يجب ان لا يرحلوا •• والله عيب •• عيب على الانسان يترك ارضه ويرحل ••

ـ وماذا يعملون يا ابي اذا كانت حيواناتهم تموت •• وزرعهم يجف •• ؟

نظر الاب الى ابنه نظرات قلقة •• وبغضب قال :

ـ انت ايضا ••؟ اسكت •• هل علمك انت الاخر ••؟

وسكت •• ثم تناول فأسه وأخذ يضرب الارض بكل ما في دخيلته من غضب •• وكأنه يريد ان يمزق افكار أبيه : « اتركهم يرحلون •• ليحفظوا حيواناتهم ويجدوا عملا لهم •• ام تريدان يموتوا جوعا ليلهثوا مثلك وراء السراب ••؟ » وما يزال الاب يدير انظاره •• فوقعتا على شبح

امرأة ، وعندها تذكر حليمة •• فقال في نفسه وكأنه يقرر أمرا « لم افكر بها قبلا •• حتى حفرت هذه البئر •• وسترتبط بها •• فان نجحت كانت والا فاني •• » وعجب لانه لم يفكر بها حقا بعد فشل بئره الاولى •• وهي التي كانت مالئة مخيلته ليل نهار •• المرأة العاقلة الناضجة •• التي خلقت لتكون زوجة له •• يتركها ؟؟ ولكن يجب ان يشرب من ماء البئر اولا وليرتو منها بعد ذلك « نحن وحيدان من بين كل الناس •• هـــي بلا زوج وانا بلا امرأة •• يارب •• لو تنجح البئر •• اذاً لانتهى كـل شيء •• فانا لا استطيع ان لم يكن عندي ما اعتمد عليه •• هي نفسها لن تقبل اذا لم تر عندي ما يسعدها •• وانا اعرف ان زواجها لن يكلفني شيئا •• ولكن •• يجب ان أشرب من ماء البئر اولا •• فهي هنـــا •• وبمقدوري ان اتزوجها متى اردت ••»

وعرفها •• فقد كانت هي بعينها راجعة من المرعى تلتقـــط بعض الوقود •• « الرجل الحاذق يعرف امرأته لو تلفعت بملاءة الليل •• يقصف الله عمري ان لم تملأي الدنيا فرحا •• فقط ان الفظ انا ما اريد •• ولكن لأتريث الآن •• فما زال امامي الكثير •• وهذه البئر •• يجب ان اشربك من مائها بكفي •• وسوف أريك كيف يعامل المرء زوجة مثلك •• حلوة وجه ولسان •• تعمل عمـل اثنتين من النساء •• حليمـة واعرفك جيـدا تحصدين وتجمعين •• تعملين كل شيء وانت وحيدة •• »

وقال وهو يودعها لتختفي في خيمتها :

ـ هيا هاشم •• لنرجع ••

ولم يقطعا غير خطوات قليلة حينما التفت الى ورائه قائلا :

ـ حفرنا كثيرا منه •• انظر ••

– نعم ..

وسارا .. الاب أولا وخلفه ابنه .. كل في يده آلته ، ونظرت اليهم العيون نظرات عجب مشوبة بسخرية مرة .. فما لهم يصرون على اخراج الماء من هذه الارض ؟ هل جن هذا الرجل ؟ وقرأ كل شيء بتعبيرات وجوههم فأحس بصدره يمتلىء غيظا « مهما يكن فانهم لن يرحلوا .. أنا اعرفهم جيدا .. وسأبذل جهودي لاجعلهم يتنظرون ارضهم ، فلا اعرف انسانا يترك ارضه دون ان يحس انه يترك روحه معها » . ألقى مسحاته جانبا وبقي ينظر الى كل الجهات .. يرى الى الحيوانات الهزيلة ويغمض عينيه الماً بينا دلف هاشم الى داخل الخيمة .. وتوقف فجأة .. فلقد كانت زهرة تبكي بداخلها بصمت .. لمح دموعها تجري على خديها ونشيجها يتعالى .. وتشنجت عضلات وجهه وهو يرمقها شزرا ثم عض على نواجذه ..

« تبكي .. ماذا تريد ؟ يجب ان اوقفها .. اضربها حتى تعرف .. انها بنت ويجب .. »

وخشي دخول ابيه .. فرماها بنظراته الغاضبة .. ثم استدار خارجا .. واسرعت هي تكفكف دموعها متحسرة وقد مزقت نظراته صدرها .. وتركت قلبها يرقص مذبوحا .. ثم خرجت لتعمل العشاء .. خائفة وهي تقول في نفسها : « كل انسان وحظه .. وحظي انا عاثر .. !! »

١٨

قال حسين لهامل وهو يصافح اشياء البيت بانظاره :

ـ أنت ترحل •• هه ؟!

ـ أجل !!

ـ نحن ايضا ••

وصمت قليلا ثم عاد هامل :

ـ مجنون من يبقى هنا •• فماذا عساهم أن يأكلوا ؟

ـ لحم اغنامهم •• !! ها •• ها •• ها ••

ضحك وعيونه تومض بسخرية جارحة •• ثم سأل وملامحه تأخذ سيماء الجد •• مادا نظراته الى الافق :

ـ ابا حسنة •• متى في نيتك ترحل ؟

ـ بيد الله •• ولكنى اذا صبرت كثيرا سابقى شهرين ••

ـ شهرين ؟!

أفلتت من لسانه بعجب « يرحل بعد شهرين •• ظننتك لا تبقى سوى أيام •• يالكم !! من يسمعكم يظن انكم طويتم متاعكم وتأهبتهم

للرحيل ، وأجاب هامل :

ـ نعم •• فما زالت في الشتاء بقية ••

وبعد لحظة صمت •• كانت عيون ام حسنة تنتقل بينهما وتكثر من تأمل حسين •• قال :

ـ والله نحن •• اعني أبي قال اننا نقصد المكان الذي تقصدون ••

ـ انتم وغيركم •• فانا اعرف بانهم سيرحلون •• كلهم حتى الزاير •• ستراه كيف يرحل وكأنه لم يقل ما قال •

ـ انا اعرف هذا الرجل جيدا •• دائما ما عنده غير الكلام ••

ـ ولو كان كلامه مستندا على شيء يقوله لهان الامر ولكنه يرسله ليظهر نفسه فقط •• دون ان يفكر بالعواقب ••

ـ هو ، وابنه •• يريدون ان يظهروا انفسهم فقط امام الناس •

ـ ليسوا مثلكم •• الواحد يحكي لاخرته ••

قالت أم حسنة فالتفت اليها •• وقال وهو يبتسم ابتسامة زهـــو : « والله انت الاصل •• وأبو حسنة •• أما هي •• آه اطمأننت الان •• الآن فقط •• وان كنت أعرف هذا من زمان » وبصوت عال :

ـ لا •• لكن الواحد منا يجب ان يعرف ما يقوله وما يعمله •• ولا يترك امره للايام •

وقصد ابو حسنة الى فرسه ليعطيها علفا بينما بقي حسين للحظات•• ثم انصرف وهو يقول :

ـ ظلت العافية عندكم ••

ـ أهلا بك ابني •• اهلا ••

هتفت ام حسنة •• ورفع ابو حسنة صوته :

ـ أهلا وسهلا بك •• بلغ أباك سلامي ••

ـ الله يسلمك •• ابا حسنة ••

حث خطاه الى حيث ترعى حسنة غنمها •• « هذي البنت نادرة •• ما يحفظها غير الحظ القوي •• ولكن ليس لمثلي ان يقلق •• فانا مرتاح من جانب ابيها وأمها •• وهي تحبنى •• وتحلم ان تكون معى في أى مكان •• خاصة في المدينة •• انا اعرفها •• » واستدار من وراء الوادى حتى لايراه من هناك متخذا طريقه الى التل في الطرف الاخر « فتاة عاقلة •• جعلت تتنبذهم هذه الايام •• انا اعرف •• هي تريد ان تقول لي تعال •• بفعلها لا بلسانها •• آه من عينيك •• نظراتك الرقيقة الساحرة •• تطبقين اجفانك ببطء وانت تتكلمين •• وكأنك تحلمين •• يا روحي يا حسنة !! » ووجدها في مكانها وقد أشعلت نارا تصطلي عليها وعيونها تتقافز فوق ظهور الاغنام •

اقترب منها فهبت واقفة •• نظرت الى كل جهة قبل ان تبتسم قائلة وهي تلوى رقبتها بفتور وتحرك عينيها الناعستين •

ـ ها •• أتيت ••؟!

ـ نعم ••

ـ لو لم تأت يا حسين •• لو لم تأت !!

ـ لم ••؟ أرجع ؟؟

صمتت •• فقال :

ـ ألا ترغبين في مجيئي يا حسنة •• أنا •• ؟!

فقاطعته بصوت فاتر :

ـ انا اخاف يا حسين •• الناس هنا كثيرون ••

ـ لا عليك منهم •• تحسنين صنعا بابتعادك هنا ••

ـ انت لا تعرف •• أنت لاتعرف هؤلاء البنات ••

ـ لا •• لا تتوهمي يا حسنة •• كلهم يقفون الى جانب الفتيات ولست الوحيد ••

ـ انت تفكر بشيء وأنا افكر بآخر !

ـ حسنة •• أمس وانا العب مع الفتيات •• لاشيء في هذا البتة •• ولكنك بدأت تتوهمين ••

وران الصمت •• تلفتت الى كل الجهات فقد كانت خائفة حقا •• فهي تفكر بهاشم •• فلربما أتى •• ولربما أتت زهرة •• وهو لايفكر بشيء من هذا •• وقد لمحت ما طرأ على زهرة من تغير •• فلم تعد تلعب معها أو تقترب •• كل ما تلمسه منها هو عبوسها بوجهها وتصويب نظراتها المعنفة القاسية •• ولكنها ترأف بها كثيرا •• فبأمكانها أن تهمس بكلمة واحدة في اذن هاشم ليضربها بقسوة •• أما حسين هذا •• فهو لا يفكر بما تفكر به •• الا ما يسعده •• وهي لا تنكر انها تفرح به •• وبهاشم •• ولكنها بدأت تخاف •• فالناس يجعلون من الحبة قبة •• وهي تعرف أباها جيدا •• لا تعرف قسوته الحدود •• وفكرت ان تطلب منه الذهاب لكنها لم تقل •• ترغب ببقائه وتخافه •• ولم تعرف ما عليها ان تعمله •• وامتدت يده تمسك يدها فجذبتها « ليس مثل هاشم •• هذا •• ذاك يرتجف •• ولا يقرب مني أبدا •• أما هذا فيا لجرأته ••!! ولكنه رجل يراك تبذلين له العسل فكيف يتأنى •• أو يصبر !! « الحقيقة أنا أحب فيه هذه الجرأة •• فهي تدير رأسي سروراً •• وكلامه الحلو •• يجعلني احلم •• خلاف هاشم •• الذى يتكلم بلعثمة •• يقتله حياؤه وكأنه

طفل خائف .. »

قال لها بنغمة هادئة :

ـ أنت لا ترغبين في بقائي اليوم ..

ـ لا .. ابق .

ولمحت واحدة من أغنامها تشذ وتبتعد عن القطيع فنهضت ثم ركضت صوبها حتى اعادتها .. فقال :

ـ لم لم تقولي لي حتى اردها ..

ـ أنا أردها ..

ـ ولكني لا اقبل ان تتعبي ..

ـ لا أتعب من هذا .. أم تراك أنت تتعب ..؟

ـ انا .. ؟! أنت اعرف الناس بي .

ضحكت وقالت :

ـ **اعرفك** .. كثير التعب .. **والخوف** ..

ـ **انا كثير الخوف ؟ ها .. ها .. ها .. من قال قبل قليل .. « أنا اخاف يا حسين .... »**

قلدها في كلامها . فضحكت بصوت عال .. واسترسل :

ـ أنت تخافين من الناس .. وتتكلمين عن الناس !!

« ولكنك لا تعرف لم أخاف .. » قالت :

ـ وانت تخاف ايضا .. لاتنفخ نفسك امامي ..

ـ انا لا أخاف .. ولكي أريك ..

فامسك بكتفيها وقبل وجنتها بقوة :

ـ أرأيت ..؟ انني لم اخفك .

واجابته وهي فزعة •• وانفاسها تتلاحق !

ـ اسمع حسين •• لا تعد لمثلها •• انني احذرك ••

ـ ولكني فعلتها لاثبت اني لا أخاف ••

ـ هذا كلام •• والكلام غير هذا الذى فعلته •• فماذا اقول لو رآنا أحد ؟ •• أتريد أن يقتلني أبي •• ويقتلك أنت •• ؟

ـ لا •• حسنة •• انني اعرف ان ليس احد هنا ••

ـ هذا لا يهم •• وانني احذرك ••

ووقفت •• فقال لها بصوت متوسل :

ـ ولكنك تعلمين انني احبك •• وفي سبيلي لاتزوجك ••

ـ وانا لا علي بهذا •• كل شيء له وقته ••

« انت لا تهتمين بهذا •• فوالله لو لم تخافي لقبلت بأكثر منه » ••

وأجابها مبتسما :

ـ حسنا لن اعود •• فقط ارضي ••

ـ حسين •• ما اردت غير ماينفعنا •• فانا احبك وانت تحبني •• ولسوف نظل حتى تأخذني ••

ـ ساتزوجك •• صدقي بالله العظيم ••

وشرد فكرها لحظة •• ثم قالت :

ـ ومن يقول ان ابي سيقبل بك ••

ـ لا عليك •• انا اتدبر كل شيء •• اباك •• امك • •

ـ لا •• امي لا •• انها تتبع أبي •• وانا سمعتها تمتدحك امامه •

ـ ابوك يحبني وانا مطمئن من جانبه •• لقد اتفقتم كلكم على رأي واحد فكيف لا اطمئن !!

صمتت وعيونها تومض ببريق غامض •• ثم قالت كمن تكلم نفسها :

ـ الزواج قسمة •• يا حسين ••

ـ هذا صحيح •• وانت قسمتي ••

ـ لو تحبني وتريدني حقا فاحذر •• قلل من مجيئك الى هنا •• انت لا تعرف ماذا ستكون النتيجة لو رآنا أحد •

« مالك اليوم •• يا حسنة ؟! »وقال بفتور :

ـ اعرف •• اعرف ••

« هاشم ••؟! لن اخاف منه ، فهو يقضي النهار كله مع ابيه •• مسكين •• سيهده التعب •• خلاه الله عند هذا الاب العنيد » •

وفجأة رأته يبتعد عنها •• يقف للحظة ثم يسير ليختفي وراء التل •• نظرت اليه بدهشة •• وما ان تلفتت حتى رأت امرأة قادمة نحوها •• « ها هو يخشى الناس •• نعم فلا يوجد من لا يهتم ، ولكنه كلام •• والكلام هين على اللسان •• اما في الحقيقة فان الواحد منا ينسى كل شيء بمجرد أن يرى ما يريبه •• هذي حليمة •• لِمَ أتت •• ؟ » علقت عيناها بها حتى اذا قربت منها قالت :

ـ حسنة ••؟!

ـ نعم ••

تفحصتها بانظار تشي بما يعتمل في دخيلتها من قلق •• فلأي غرض أتت •• ؟ وهل رأته معها ••؟ وقالت لها :

ـ أنت وحدك هنا ••؟

ـ نعم ••

وران عليهما صمت ثقيل •• جعل الوساوس تتحرك وتتضارب في

صدر حسنة •• فسألتها :

ـ لماذا ؟••

ـ اقول فقط ••

ـ رأيت ان انفرد بوحدي أحسن ••

ـ والله معك كل حق ••

هدأت نفس حسنة بعض الشيء وان بقيت تراقبها •• فلمحتها تجيل بصرها في كل ناحية •• فطفقت عيناها تسبقها لكل جهة تستدير نحوها •• وخشيت أن يكون حسين ما زال موجودا •• وحينما تحركت حليمة تلتقط الروث المتناثر أفرخ روعها وسكنت نفسها •• وقالت حليمة :

ـ تركت نعجاتي قرب زهرة •• وأتيت التقط بعض الروث •

ـ حسنا تفعلين •• فالبرد هذا •• لا يفيده غير الوقود الكثير ••

وفيما كانت تعود قالت :

ـ ارجع احسن •• لئلا تتعذب بها البنت •• رمقتها حسنة بنظرات حادة •• وكأنها تريد ان تدفعها من المكان دفعا •• وحينما ولجت الوادي•• كانت نظراتها تنفذ خلال عيني حسين وكأنها تقول له « أرأيت ؟؟ »••

١٩

الليلة شديدة البرودة •• شديدة الظلام •• قوية الريح •• تضرب الخيمة فتهزها هزا •• والهواء يجري فيها صقيعا يجمد كل شي يمسه •• وزهرة ملتفة جيدا في اغطيتها •• واضعة ركبتيها في بطنها ويديها بينهما •• يشيع منها دفء لذيذ الى جسدها المتكور فلا يبقى غير ظهرها يلسعه البرد بين آن وآخر •• يقظة •• لا تسمع غير صوت الريح من خلال ستار الخيمة •• يقوى ويضعف مع كرها وفرها •• فينبعث صفيرا •• قويا تارة وأخرى ضعيفا •• مثل صوت الناي الحلو الذي كان يصنعه ابوها لهاشم •• ليلعب به ويغني وهو فرحان •• وتجلس هي قربه سعيدة تحلم بكلمات ابيها •• وان لم تكن لتتذكر كيف كانت تحلم » •• فكل ما بقي في مخيلتها انها كانت سعيدة باحلامها تلك •• وهي تتمثل نفسها زوجة له•• اما كيف كانت ترى ذلك ••؟ وبأي ألوان ترسمه ؟ فانها لا تتذكر •• ووجدت نفسها تزيح الغطاء •• وتنظر صوبه •• كان نائما مع عمها على السجادة الممدودة بطول الخيمة •• هو على جانب وعمها على الجانب الاخر منها •• بينا هي تنام على السجادة الصغيرة •• لم ترهما لشدة الظلام ••

ولكنها تخيلتهما كل يلتف بلحافه •• متكورا ليزيد من دفئه •• ثم أراحت رأسها على الوسادة واتجهت انظارها الى أعلى الخيمة لم تر سقفها الحاد •• فالسواد الحالك كل ما كانت تراه •• قطعة من الليل العاصف •• واحست بالرهبة وقد خيل لها كأن عيونا تتطلع اليها من خلال العتمة •• فحاولت ان تدفن رأسها في غطائها •• لكنها سمعت صوتا واهنا •• فأرهفت سمعها ولمحته من خلال العتمة يتقلب في فراشه •• ثم يقول « أنا •• أحبك •• حسنه •• احبك يا حسنه •• » كان الصوت قويا أجشا •• نفذ الى قلبها واعتصره عصرا •• « يحبها •• يحب حسنة •• » وطفقت تبكي بصمت ، ودموعها تبتدر وتسيل على جانب وجهها فتملأ الوسادة •• وافلت من حنجرتها صوت اسرعت تخنقه •• وأحست بهاشم يتحرك في فراشه ، فتطلعت من خلال فتحة صغيرة اتخذتها من طيات لحافها تسع لعينها فقط •• وراحت تنظر •• لم تر شيئا أول الامر •• ولما أدامت النظر استطاعت ان تلمحه جالسا في فراشه يدير عينيه بينها وبين أبيه ثم يتجه بهما صوب الباب •• شدت نظراتها به ناسية نفسها « ترى ماذا يريد ان يفعل ؟ هل ينتوي الخروج بهذا الليل ؟ سوف اوقظ عمي لرده •• اوقظه دون ان ادعه يعرف لئلا يضربني •• أهكذا يا هاشم تتخلى عني •• ؟ تحب تلك البنت الغريبة وتتخلى عني ؟ ما الذى عملته •• ؟ سحرتك تلك الكلبة ••! هل هي احسن مني يا هاشم ؟ أنا لا اقول شيئا ما دمت لا تريدني •• اشكو أمري الى الله •• ولكنك انت •• وهذه البنت وقحة •• انا اعرفها اكثر منك يا هاشم •• وما كان لك ان تحبها •• تحبها وتحلم بها •• ولكن هل عرفت •• يقبل عمي أم لا ؟ كان عليك ان تعرف فلربما عمل عمي ما لا اريده لك ••

فأنا افديك بروحي يا هاشم وانت تعلم بهذا •• كان عليك ان تتـــذكر كلمات ابي •• « اسمع يا ابني يا هاشم هذي زهرة بنت عمك لك •• تتبعك على لقمة الخبز وجرعة الماء •• » اغلقت عينيها تتخيل اباها وهو مسجى على الفراش ••يداه تتحسسان رأس ابن أخيه بحنو •• شفتاه تنفرجان بضعف لتلفظا الكلمات الواهنة التي لم يزايل رنينهـا اذنها •• وكأنها صدى حبيب يداعب اوتار قلبها فيتسق نبضها بنغم حلو « تتبعـك •• على لقمة •• الخبز •• وجرعة الماء •• آه •• ليتك يا أبي تعرف ••» وانحدرت دمعتان •• ونزلتا الى الوسادة تنتحران في برودتها « ليتـــك تعرف ما صرت اليه •• أنا ابنتك •• زهرتك العزيزة •• فقدتك يا أبي الى الابد •• وفقدت صدرك الحاني الذي طالما اغرق قلبي بحنانه الفياض •• راح ذلك الدفء •• وراح ذلك الحب •• راح حنوك الدفيق يا أبي وبقيت وحيدة •• ليس لي الا الله •• وها أنت ترى هاشم يحب فتـاة غيري •• لا ترقى لكعب قدمي •• وليست مثلي في شيء •• ولكنـــه يحبها ولا ينساها ليل نهار •• حتى في الليل يحلم بها •• أما أنا فليس لي غير البكاء •• وبصمت •• فلو سمع صوتي لكانت المصيبة •• حظي العاثر هذا يا أبي •• أحب من لا يحبني •• بل يمقتني •• عرفت هذا من نظراته القاسية التي يوجهها الي •• وانني لأشعر كأنني صخـــرة قاسية تربض على صدره » نظرت •• فالفته قد عاد لنومه وشخيره يتردد برتابة تخدش اذنيها •• « كفى يا زهرة •• تحبينه وهو لا يحبك •• كفي واسلمي على عمرك •• »

وطفقت تبكي مرة ثانية ، وارتجفت ودموعها الباردة جعلت الصقيع يسري في كيانها بقشعريرة مرجفة •• فلم تستطع البقـاء •• رفعـت

رأسها تنظر الى كل صوب ثم اراحته على وسادتها المبللة بدموعها الباردة •• فامتدت يداها تقلبانها على الجهة الثانية •• سمعته يتأوه بحرقة •• فاطلقت آهة طويلة دافئة رأسها في وسادتها وكأنها تلقي به الى هوة مظلمة •• وهواجسها تهز أعماق الليل ••

ولم تدر أنامت أم لا •• !! ولكنها ألفت نفسها فجأة وخضم أفكارها تضرب برأسها •• وألم حاد ينغرز في صدغيها •• وينتشر الى كل رأسها •• فتنبض عروقه بعنف •• وحينما أجالت انظارها في الخيمة •• خيل لها كأن فتحاتها الصغيرة عيون ترمقها عن كثب •• وانفاس الفجر تتردد بطيئة متثائبة في ثنايا الكون •• وبقيت تنصت وصياح الديكة يتصل •• ويختلط بنباح الكلاب من اول بيت في القرية الى آخر بيت •• وكأنها جميعا تتناجى على موعد •• ثم حركت نفسها ملقية الغطاء جانبا ، وسرعان ما استوت واقفة على قدميها •• تلتمس قنينة النفط التي يشعلونها ليستضيئوا بها •• وجلبت بعض الحطب والروث من خارج الخيمة وكومته في الموقد ثم أشعلت النار فيه •• نافخة جمرها بين الحين والاخر ليزيد اشتعالا •• ثم توقفت تنظر الى اناء صغير تجمد فيه ماء نسيته به •• وتذكرته •• ينطق باسم حسنة •• فازداد خواء روحها •• وانطوت •• متخاذلة •• حزينة ••

٢٠

« حقا لما يكون الانسان فرحان •• الدنيا كلها تضحك له •• »
وها هي تبتسم جذلة بوجهك يا هاشم لانك سعيد اليوم •• طيلة أيام ثلاثة كنت تحلم بهذا اليوم •• زهرة تغيب نصف نهار •• تجلب مع النساء الماء وانت تأخذ الغنم ترعاها •• يوم بطوله تقضيه مع حسنة •• دنيا وكلها لك •• تقف قربها تغني والناي يصعد أنفاسه الحلوة •• حياة سعيدة تتمنى لو تحياها كل يوم ••

ونهض وقوة دفيقة تتدافع في كل جسمه •• ملامحه يرقص فيها مرح عظيم •• مد يده بين كوم المتاع وأخرج نايه الذي كان قد عمله من مدة من القصب المثقب •• وتخيل نفسه مستظلا بفيء شجيرة يغني بصوته الصافي •• الحلو « سل الليل عن حالي •• » ويحرك اصابعه على ثقوب القصبتين مطلقا النغم الراقص وبدون وعي •• انطلق صوتهبالاغنية •• ورددت القرية نغمات الناي ••

فصاح أبوه :

ـ ما هذا يا هاشم ؟

ـ هه •• أبي •• لا شيء ••

ـ تغني اليوم •• ؟

ـ والله يا أبي أردت ان أروح عن نفسي •

وكانت زهرة واقفة خارج البيت متلفعة بملاءتها ترتعد من البرد •• قابضة كفيها على صدرها تمد نظرات كئيبة اليه •• « أحبها وتركني مع اني ابنة عمه •• أحبه ولا يدرى مقدار حبي له •• حقه فمثله لا يفكر بيتيمة مثلي •• » وقال الاب بعد فترة صمت وكأنه ينظر الى شيء بعيد :

ـ بهذا الوقت الضيق تغني ••؟!

واخفى الناى في جيب ثوبه الداخلي ونظر الى الخارج •• فلمح زهرة بوقفتها •• فأسرع يشيح بوجهه عنها •• يصعد نظراته في سقف الخيمة •• ثم ترك ابوه مكانه خارجا •• وصاح :

ـ زهرة •• لم تذهبي بعد •• ؟

ـ لا •• منتظرة النسوة يمررن بي •• وقد أعددت الحمير ••

ـ حسنا •• انا ذاهب للبئر ••

وخرج هاشم ، وقال وهو يرى أبوه يبتعد عن البيت :

ـ ها أبي •• ذاهب ؟

ـ نعم •• وانت اخرج الغنم وخذها للمرعى ••

ـ نعم يا أبي •• سآخذها الان ••

وبادر الى الغنم فأخرجها وأسرع بها الى المرعى حارصا على المرور من قرب بيت هامل •• يا لليوم الزاهي !! انه يوم لا كل الايام ••يقضيه مع عزيزة قلبه حسنة •• سيترك أغنامهما تختلط ويروح يغني لهـــا

ويحاكيها بطرف عينه .. وكانت نظرات زهرة ترافقه وهو يبتعد وكأنها صلوات حزينة يبثها قلبها الواجف ..

لم يجدها .. فحث سيره محاولا اللحاق بها .. « لو كانت تدري لانتظرتني ومشينا معا .. ولكنها لا تدري ان هاشم قد انطلق من عقاله اليوم .. وفر كما يفر عصفور حبيس من يد طفل قاسية ..» يتعجل الوقت لتتشابك عيونهما وأرواحهما في نجاوى هامسة .. ويغرد أمامها كما يغرد العصفور الحالم قرب انثاه بحلاوة ونشوة .. فليس العمر غير لحظات هانئة سعيدة .. والدنيا لا تستحق ان يحياها الانسان بحزن ... كل واحد يقدر ان يجعل من أتفه الاشياء أعظم سعادة .. يحول اللحظات السوداء من عمره لحظات بيضاء مشرقة .. وكان يحث غنمه بقوة .. مرة يهشها من الخلف وأخرى يسبقها ويظل ينادي عليها بصوته العميق .. وذهنه وقلبه مع حسنه .. فلعلها تسمعه وتتريث .. «ستتريث بلا شك » ومد نظره الى بعيد فلمحها ترفع عصاها عاليا تشير واتخذت ابتسامة جذلة طريقها الى شفتيه على مهل « هذي هي .. انا قلت ... ليس اليوم من عمرنا يا حسنة .. نضحك ونلعب .. أنا أقول لك .. ليس هذا اليوم ككل الايام .. ترقص فيه الشمس وتضحك السماء .. يسعد كل الناس فيه .. أقضيه حتى العصر .. زهرة ؟! ها .. ها ..ها .. أين زهرة من حسنة .. تقف كأنها صنم من حجر .. وهذي وجهها يضحك وعيونها تغنى .. أنت قلبي يا حسنة .. طول عمري ما سمعت أحلى من كلامك .. الدنيا كلها ما تحوي مثلك .. فتاة مرحة مثل غزال لعوب .. اكون مجنونا ان تركتك تذهبين لغيري .. وسترين ما يعمله هاشم ..!!

لم يصبر ليقترب منها •• بل صاح من مكانه بصوت فرح :
ـ حسنة •• حسنة ••
ـ هـا •• هاشم •• أتيت انت ؟!
ـ نعم •
وحينما حاذاها •• قال :
ـ ابقى معك كل اليوم •• ما اسعدني •• !! أشعر وكأن الدنيـا لا تسعني •• أو انني الوحيد في هذه الدنيا ••
ـ لانك تقضيه كله معي ؟!
ـ وهل أحب لي من هذا شيء ؟! يا حسنة !!
ـ انتبه •• اختلطت غنمك بغنمي ••
ـ دعيها تختلط •• دعيها تفرح وتتعارف •• فيوم اختلاطها قريب•
ـ اوه •• النصيب يا هاشم ••
وضحـكت متمايلة •• فقال وهو يغوص في سواد عينيها :
ـ نصيب ؟! أنت لي وانا لك •• فماذا ••• ؟
ـ القسمة •• كل واحد وقسمته ••
ـ اذا لم يخلّ الانسان الفرصة تفوته •• فاز بكل شيء •• وأنا لن أتركك يا حسنة ••
ـ انت لا تعرف يا هاشم ••
ـ لا اعرف ؟! أنت تحبينني وانا احبك فماذا بعد ؟
ـ كثيرون من أحبوا بعضهم •• و ••
وشعر كأن الغمام الذي تكاثف حول صدره قد تمزق وتلاشى •• فقال وهو ينفخ هواء صدره بقوة :

ـ خفت ان يكون هناك شيء ..

ـ لا .. ولكن لابد للانسان من ان يعرف مثل هذي الامور .

ـ دعى هذا عنك .. ولنفرح اليوم .

وضحكت وعيونها تشرد .. وشبح حسين يتمثل لها من بين مقاطع كلماته .. « ولكن الا أخاف .. أستحي .. ؟؟ » وأردف :

ـ أنا أقول لك افرحي .. واتركي الهم ..

ـ انت عظيم يا هاشم .. أحسن شاب هنا ..

ـ بل أنت الفتاة الوحيدة هنا .. اما غيرك فلسن فتيات ..

« وزهرة يا هاشم .. هل نسيتها ..؟ الاجدر بك ان تذهب لها .. لأقل له .. ولكنه يحبني .. وانا ايضا احبه .. ومالي وزهرة ؟ لم آخذه منها بل هو الذى أحبني .. وحسين ايضا .. فأنا لم اطلب من واحـد منهما ان يحبني .. فهما ... لا .. انا ايضا احبهما .. احبهما معا .. ومن يقدم علي منهما ليقدم .. » وانتشلها صوته من زحمة افكارها ..:

ـ جلبت الناي معي اليوم .. و ..

ـ وستغنى .. ؟ آه كم انت رائع يا هاشم .. من تحبك تسعد .. .. سأغني معك ..

ـ نعم .. نغني معا ..

ـ لو كنت أخبرتني لاتيت بأناء انقر عليه .. انا احب ان أنقر على شيء وانت تغني بصوتك الحلو ..

ـ وصوتك احلى يا حسنة .. انت لا تدرين كم انا سعيد اليوم .. تغنين واسمع صوتك .. يا الهى ..

ـ يوم نقضيه بفرح ..

وأشرفا على المرعى •• وكان قد سبقهما بعض الرعاة اليه •• وانقبضت نفسه وهو يرى حليمة •• ولكن ماذا بوسعه ان يقول ؟ لتذهب •• فما لها وله ليعكر صفاء يومه •• هي كلبة •• ساقطة •• وسيطردها ان اقتربت •• وانضما الى الجميع واغنامهما تقبل على التهام العشب الجاف وتقطف اطراف الاشواك وتحلقوا حول النار الموقدة •• وحينما اقتربت حليمة تفتح كفيها للنار أمال بوجهه معرضا عنها ورغبة هائجة تدفع به لصفعها وفقأ عينيها •• « تأتي هنا •• العاهرة ••!! » وتذكر انها لا تعرف شيئا عما يضمره في صدره •• فهو وحده مع ذلك الحقير اللذان يعرفان سرها •• وردد « ولكنها عاهرة •• تستحق القتل •• » وكان هناك شاب آخر وعدة فتيات معهم •• وتذكر فرحته بهذا اليوم وهو يعانق عيني حسنة بعينيه •• امتدت يده الى جيبه تستخرج الناي الحبيب والابتسامة الحيية تمرح على شفتيه •• لتذهب حليمة •• وغير حليمة •• هو يجلس مع حسنة ولا يجب أن يفسد يومهما الضاحك أحد •• كائن من كان !!

« هذا يومك يا هاشم •• » قال في نفسه ودس طرف الناي في فمه مطبقا شفتيه عليه برفق مخفيا الانبوبتين القصيرتين في فيه •• ثم بدأ ينفخ وخداه تنتفخان •• ووجنتاه تحتقنان بالدم •• وعيناه يتألق وميضهما وهما تلامسان الاشياء حوله •• وتصافحان عيني حسنة بحبور ولهفة •• وانطلق الصوت الشجي يتردد في المكان ، فعلقت العيون هائمة به وراحت روحه تسبح على بساط من الاحلام الخضراء مرتادة اعماق حسنة التي انعشها الزهو تلك اللحظة فطفقت تتأوه وتحرك مقلتيها مع الترديد العذب •• منتشية •• وتقول :

ـ نايك يجعل القلب يرفرف يا هاشم •

ـ بل يجري دمع العيون !!

قالتها حليمة فأحس كأن صوتها مزق حلاوة السكوت وبدد نغمات الصوت الحالم •• ونظرها نظرة حانقة اطرقت على اثرها تتساءل : « لا أدري ما الذي دهاه هذه الايام ••؟ يبدو وكأنه لا يطيق وجودي •• هذي انا •• لا حظ لي عند أحد وليس عنده فقط •• » وحرك كفيه ليجعلها وراءه ثم انطلق يغني ، واضعا سبابته ووسطاه تحت أذنه ، أغنيته المفضلة التي تنتشي حروفها جارية كما يجري العسل على طرف لسانه فتشرب روحه رنينها •• فتنسكب على قلبه كما تنسكب قطرات الندى على قلب وردة الربيع الحمراء « سل الليل عن حالي •• » واجرى أنامله بخفة على ثقوب الناي فانطلق النغم الحبيب •• وتعالى التصفيق •• والالسنة تترنم بهذا المقطع من الاغنية تردده بعد كل ثلاثة أبيات تبعثها حنجرته الصافية •• كان يهز رأسه •• وتلثم عيناه عيني حسنة من تحت أهدابه المسبلة •• وكأنه لا يشعر بوجود أحد غيرها معه •• ينفث اجزاء روحه مع الكلمات المعسولة ويتركها تهوم على رأس حسنة •• وحينما انتهت الاغنية انطلقت حسنة تغني بصوتها العذب الرخيم •• الذي يشابه صوت الناي « يا حادي العيس •• » ففتح اذنيه ليترعهما بلذيذ صوتها وجعل عينيه لا تنفكان من عناق عينيها • وما لبث ان انطلق يغني معها والتصفيق يكاد يبتلع صوت الناي •• والضحك يشكل سلسلة من اصوات تتخلل الغناء كما يتخلل خرير الماء العذب اصوات بلابل تغرد •

وانقضى اليوم •• وكانت النار قد خمدت من زمن دون ان يشعروا

.. أو يحسوا ببرد .. فقفلوا راجعين الى البيوت في المساء وما يزال الغناء ونغم الناي والضحك الصاخب يرن في الاذان ويتغلغل منها الى الاعماق .. ولم يزايل القلوب مرحها .. فظلت ترقص مسرورة وكأنه اليوم الوحيد الذي اشرقت به شمس وفي سبيلها لتغيب وتحدثت الفتيات عن عيون هاشم الهائمة حول عيني حسنة .. وتهامست الشفاه كل عما لمحه من هاشم ومن حسنة وحينما افترقا .. كانت الانظار تتلاقى والارجل تتحرك مرغمة على الابتعاد ، والقلوب فزعة مرتابة .. وعيونهما سكرى بنشوة اليوم !

٢١

ها قد وقع ما خشيته طول الوقت •• ولن يجديك تأففك وتهربك قليلا •• بل عليك ان تقولي كل شيء •• تخبريه •• فانت امرأة وستنتهي حياتك ان لم يتزوجك •• وفي هذا الوقت •• نعم •• لا تتجاهلي الامر حتى يفاجئك الموت بعينيه المرعبتين •• ام انت تخافينه ؟ هذي انت •• ما ان يتمثل لك خطر حتى تفقدي نفسك ويطيش عقلك وكأن الدنيا اغلقت دونك •• وكأنك المسؤولة فقط عن الامر •• بل تذهبين لاكثر من هذا•• فيفزعك ذكره امامه •• تتحملينه وحدك لئلا تزعجيه به •• لا •• لقد قال لك في البداية •• وهو على استعداد للزواج •• قولي •• قولي له •• والا ظنك تستمرئين هذه الحياة •• فالرجال صناديق مغلقة •• مظلمة الاغوار •• ويحبون ان يتنقلوا بين النساء •• فلربما رأى غيرك والنساء كثيرات وتعلق بها كما تعلق هاشم بحسنة تاركا زهرة الوردة ••

وأحست بفراغ روحها يكبر •• وبقلبها يكاد يطفر من بين ضلوعها ويهزها هزا بوجيبه العنيف وخفقانه المتصل •• وراحت ترمي نظراتها خارج البيت والظلام يتسلل الى نفسها رويدا رويدا ويأخذ بخناق روحها

•• انه كأمثال هؤلاء الشباب •• كأمثـــال هاشم « لقـد احبني الرجـل وسيتزوجني متى قلت له •• » وشعرت كأن كلماتها هذه التي تحركت في صدرها لتأسو ما نكأ من جراحها تلاشت في الهواء ولم يقرب قلبها الهدوء •• وكانت قد أحست بغريزتها انها حامل فبدأت تتوجس •• وأخـــذت الغيوم تتكاثف في صدرها وتحجب كل ما امامها عنها •• وظلت تترقبـــه بعيون لهفى بعد ان صممت على اخباره هذا اليوم •

ولم يمض طويل وقت •• حتى كان داخل الخيمة مندسا مثل قطعة من ظلام وجلس الى جوارها •• وكانت قد عادت لتوهها من التغني على طفليها وهي تضرب جسميهما ليناما •• رآها قلقة النظرات •• شيء من الشحوب يلون وجهها •• فاستوجس •• ولكنه لم يقل شيئا •• وما عتم ان ابتسم لها قائلا :

ـ أنت اليوم على غير عادتك ••

ـ انا ••؟ مالي ••؟!

قالت متلعثمة •• فأجابها بصوته الخفيض :

ـ اضحكي يا أم سالم •• عمرنا كله ايام وتنقضي ••

« أأقدر ان اضحك حقا والموت ينمو في احشائي ••؟ حقه انـــه رجل •• وانا امرأة •• ولكن لم هذا الخوف ••؟ فماذا علي اذا كـــان سيتزوجني ••؟ » وقالت :

ـ أنا سأضحك الى الابد ما دمت معي ••

ـ انا لك دوما •• ام سالم ••

« حقا !! فلو لم اعرفك لما منحتك نفسي •• ولكني متيقنة انك لست كغيرك •• انت تفهم احسن منهم •• وسوف لن يهزك ما سأقوله ••ولربما

انت تنتظره •• أو انت تعلم الآن وبطني تتصلب أمام نظرك •• » ووجدت نفسها لا تستطيع القول ، وكأن شيئا قاسيا يرجف روحها ويمسك لسانها •

ـ ومن عندي غيرك ••؟ انت وحدك يا حسين •• وها أنت تراني منقطعة •• ليس لي من يسأل عني •

« انت منقطعة ••؟! تتوهمين •• فجذورك تضرب في اعماق القرية •• في اعماق هذه الارض التي يريد زاير راضي ان يسقيها دمه ودم حيواناته •• »

ـ انت كل ما لدي يا حليمة •• فانا أشعر وكأني غريب طول النهار حتى يأتي الليل •• وآتي اليك ••

ـ اذاً تزوجني يا حسين •• تزوجني فأنا لا اريد ان نظل هكذا نحتمي في جوف الليل •• لان وراء الظلام شمس ••

ـ طبعا •• سأتزوجك •• وسنسعد في بيتنا ••

« تريدني ان أتزوجها •• هه !! » واقترب منها وطوقها بذراعيه•• وألصق شفتيه على وجنتها وراح يمصها مصا واصابعه تتخلل ضفائرها المنثورة بعد ان طوح بحجابها وعصابتها •• ورماها بعيدا في زاوية من الخيمة •• تركته يشبع تقبيلا من كلا خديها ، وكأنه لم يرهما قبلا •• ويقول :

ـ سأتزوجك بعد ان أجد ما يعينني •

ـ وهل سترحل ؟!

سألته وروحها ترتعش متلهفة لسماع جوابه ••

فقال بصوت بطيء :

ـ لا أدري •• ولكني سأتزوجك حتى لو رحلت ••

« حتى لو رحل !! ولكن ليته لا يرحل •• ليتهم كلهم لا يرحلون »

ـ لا ترحل •• حسين •• زواجنا لن يكلفك شيئا ••

ـ صحيح •• وانني لم أقل ارحل حتما •• ولكن ربما ••

ـ لاجلي •• لا ترحل لاجلي يا حسين

« لاجلها •• يا للمغفلة !! صدقت اني اتزوجها •• أنا حسين اتزوج عجوزا فانية •• يا للسخيفة !! »

ـ لن ارحل •• ما دمت تودين هذا ••

ـ نعم يا حسين

ـ ولكننا سنضطر للرحيل ان لم تمطر الدنيا •

ـ نتزوج ونرحل معا •• هه •• معا لنعمل سوية •• أنا وانت •

وتخيل نفسه معها • •يعملان •• والناس يتهامسون •• « لقد تزوج حسين الشاب من ارملة لها ولدان •• » وغالب رغبة في الضحك كادت تفضحه •• بينا قالت وكأنها تحلم :

ـ ثم ان الزاير بدأ يحفر بئرا جديدة ••

ـ دعينا من الزاير ومن آباره •• هذا الرجل ما عنده عمل •• يريد ان يلهي نفسه فقط ويلهي الناس معه ••

ـ لا يا حسين •• الرجل يشتغل •

ـ وهل يغرك شغله •• بئره هذي مثل بئره تلك المالحة •• الرجل يشتغل !! هه •• هه •• هه ••

وتخلت عيناها عن السقف وقالت وهي تنظر اليه كما ينظر الكلب لصاحبه الذي يرهبه :

ـ لقد حملت يا حسين •• أنا حامل !!

ـ ها •• حملت ؟!

قالها بلهجة مأخوذة •• باردة •• وبريق عينيه يخبو •• ثم سألها :

ـ منذ متى ؟!

ـ منذ شهر ••

ـ منذ شهر ولم تخبريني ••؟

وصمتت تفرقع اصابعها وقلبها تتلاحق ضرباته •• بينا قال لها بصوت ثابت :

ـ كيف حملت ولم تخبريني ••؟ لِمَ لم تخبريني ؟

ـ ظننتك تعرف •

ـ ابدا •• انني لم اعلم الا الساعة •• من فمك ••

ـ ولكن لا يهم •• سنتزوج وينتهي كل شيء •

« نتزوج وينتهي كل شيء •• يا للمهزلة !! كيف نسيت هذا ؟ » وقال :

ـ اسمعي يا حليمة •• سيفطن الناس ان لم تعملي ••

ـ لا •• انهم لا يفطنون •• فلم يبن علي شيء خاصة ونحن سنتزوج ونخلص •

ـ نخلص ؟•• كلا •• فان الناس سيعرفون ••

ووجمت •• والحيرة تأخذها من كل جانب حتى انها لم تعد تعرف ما تقوله وانفاسها تكاد تنقطع •• بينا استتلى :

ـ يجب ان تتخلصي من هذا الطفل •• اسقطيه ••• هل فهمت ؟

فأجابت وهي ترتجف خوفا :

ـ نعم •• سأسقطه ••

وعاد اليه هدوءه ، وان بدأ القلق يلعب بحدقتي عينيه وملامحها تأخذ مسحة جامدة •• استعد يا حسين •• فها هي المتاعب تبدأ •• ولن تخنص ان لم تسرع بالرحيل وتهرب بجلدك •• فهذا أول شر لا يعرف نهايته غير الله •• نعم اسرع بالهرب من هذه الارض ومتاعبها اقنع أبا حسنة وليرحل معكم من يرحل •• فليس لك بقاء هنا •• انها حامل ولن يلبث الناس ان يكشفوا أمرها وتضيع انت « هذه الملعونة •• لو تسقطه لارتحت ريثما أرحل •• العاهرة •• لو تتجنب النساء •• فما أقوى انوفهن ، يتشممن الرائحة ولو كانت على رأس جبل •• وليست في بطن اخرى مثلهن •• الغبية تظن انها خلصت من عيون النساء الثاقبة •• ولكن يجب ان نرحل •• يجب ان نرحل » ثم تحرك وهو يقول :

ـ انا ذاهب يا حليمة •• ظلت العافية عندك ••

ـ الله يخليك لي •• الله يحفظك لحليمة •• فما عندها غيرك ••

قالتها متكلفة المرح لتضحكه •• ولكنه لم يبال بها •• فقد أحس بكلماتها تطوق عنقه وتخنقه •• تشعره بالغثيان •• وبارح بيتها وهي تودعه بنظراتها المتوسلة •• « انه لا يعرف اني حامل •• حسبته فقد روحه وهو يسمعني •• آه •• سأسقطه ما دام لا يريده •• ولكن ما يضيره لو تزوجنا •• الان ؟ سوف لن يفطن الناس •• لا •• معك حق •• فهم سيفطنون بلا شك •• يا لي من حمقاء غبية •• كيف غاب عني هذا ؟ اذن اطمئن يا حسين فسترى كيف اسقطه •• » وكان ينقل قدميه الثقيلتين بجهد وما تزال كلماتها تدق اذنيه « حملت يا حسين » واهتز والاضطراب يجعل نظراته تزيغ وينسيه كل ما حوله •• وفجأة •• قبضت يد قوية على ساعده •• فارتعد :

ـ من ..؟! حسين ؟!

ـ ن .. نعم .. مال ... ك ؟

ـ يا سافل .. يا حقير .. ما ظننتك تقدم عليها ..

ـ ماذا دها .. ك يا .. يا .. هاشم ؟.. و .. ماذا .. رأيت ؟

ـ وتحاول ان تخدعني ..؟

ـ كيف .. أ .. أخدعك ..؟ عم .. تتحـــدث يا هاشم ؟ انني حسين .

ـ تخوفني ؟ انا اعرفك .. انت حسين .. أجبن خلق الله .

ـ ولـكن .. ماذا ..؟ هل سمعت .. ما ..؟

ـ بل رأيتك بعيني يا سافل .. أتريد ان تنكر ..؟

ـ انني لا افهم .. ما .. ماذا .. تعني ؟ أين رأيتني ؟

وصرف اسنانه مطبقا كفيه على عنقه آخذا بخناقه حتى جحظت عيناه واستطالت رقبته مثل سلحفاة مشنوقة :

ـ تخرج من بيتها .. يا نذل .. يا ساقط العرض .

ـ من هي ..؟ ماذا .. أصابك ؟

ـ حليمة .. خرجت من بيت حليمة .. لم الحق بك تلك المرة وأما الان فقد كشفتك يا كلب ..

ـ انني أقسم .. و ..

ـ تقسم .. وتقسم يا كلب ؟!

وبغتة ناصله بكل قوته .. فافلت موليا الادبار ... وبقي هاشـم في

مكانه يبصق عليه باحتقار من خلال نظرات غاضبة •• « الكلب •• حاول ان ينكر وما درى اني اتبعه منذ لمحته يخرج من بيتها •• الحقيرة •• اذهب اليها امزقها ؟ اقتلها ••؟ آه •• الفاسد •• سيرى كيف أؤدبه •• سأمرقه •• الساقط •• » وكان قد اقترب من خيمتهم •• بينا وصل حسين مرتعد الفرائص •• مضطرب الانفاس •• يأخذ الخوف بخناقه تاركا عينيه بلا نور •• وتسلل الى خيمة أهله ، وما يزال صدره يعلو ويهبط •• والفزع المرعب يجثم على صدره •• ويمزق وجوده ••!!

٢٢

وقف هاشم قرب باب الخيمة •• ينظر الى أبيه من تحت أهداب مرتخية نظرات تشتتها حيرة متوسلة •• يداخل نفسه الخوف فتهرب •• ويتحرك الأمل في صدره فتعود تلتمسه برجاء •• وصور يومه الفائت لا تنفك تتمثل امامه •• ضحك •• ولعب •• وحب ••

فيشرق وجهه بابتسامة هائئة •• ويذكر ما رآه في الليل فتجمد ملامحه وتصرع ابتسامته على جدار تقطيبة قاسية •• « النذل مع حنيمة •• اغراها حتى اسقطها الحقير •• وهي •• الساقطة !! كيف فرطت بشرفها •• الله لو استطعت قتلها •• المجرمة •• نسيت أهلها وطفليها وارتمت في احضان حسين •• عديم الشرف والعرض •• السافل •• » وبصوت بان التردد عليه قال :

ـ أبي ••

فرفع أبوه اليه وجهه •• فمه مفتوح •• يستفهمه •• فتابع :

ـ أبي •• سمعت ان بيت جمعة وجدوا خروفا أبيض مختلطا بغنمهم •• وأريد ان اذهب أراه •• لعله خروفنا ••

ـ لا •• لتذهب زهرة •• اما انت فتعال معي ••

ـ ولـكني !!

ـ قلت لك انت تأتي معي •• فلا بد ان نعمل اكثر لنجعل الماء يتدفق قبل رحيلهم •• يجب أن نحول دون هذا الرحيل •• يخرج الماء العذب •• فيمتنعوا •• فأنا متأكد انهم لن يرحلوا ان رأوا المياه •• هل تفهم ••؟ يجب أن نرد كيد هامل •• فهو لا ينفك يحرضهم •

« أية مياه عـذبة ••؟! أمـا أقلعت عن أوهامـك يـا ابي فـأرحت واسترحت ••؟! اتركهم لحال سبيلهم •• مالك تلهث وراء سراب ظاهر للعيان ؟! »

ـ ومن يخبر زهرة ••؟ لقد خرجت •

ـ خرجت ؟•• حسنا •• تأتي أغنامهم ونراها •

ـ ولكني لن أغيب عنك كثيرا ••

ـ اننا سنذهب الآن •• فلا ••

ودفن نظراته المنطفئة في تراب الخيمة •• وراح يعبث بأصابعـه • وأرسل الاب نظراته خارج الخيمة •• ثم قال بصوت بطيء :

ـ حسنا اذهب •• ولـكن عد هناك •• بسرعة ••

فاسرع يترك البيت •• ولكن أباه صاح :

ـ هاشم •• تعال ••

ـ هـه •• أبي ••؟

ـ خذ فأسك معك حتى تأتي بها الى هناك •

ـ حسنا ••

فقصد اليها •• تناولها وابتعد عن البيت بخطوات واسعة عجلى ••

« لاهرب عن مجال نظره لئلا يستدعيني مرة ثانية •• ووشت عيون القوم بما في صدورهم من سخرية بينما كان يمر من خلال الخيام بفأسه التي تأرجح في يده اليمنى •• يتمنى ان يرى حسين ليشج رأسه بالفأس ويخلص الناس من شره •• « ضحك على المرأة وأوقعها •• هي نفسها حقيرة •• وضيعة •• فلو لم ترد لما مكنته •• لصاحت وعندئذ يقتلونه ويجبرون اهله على الرحيل •• كاد يضيع كل شيء وأبي يقف في طريقي •• ولكن سأسأل بنت جمعة في طريقي فلربما يسألهم أبي وينفون مجيئي وعندئذ يشك •• لا •• لا •• اذهب اليهم ، فما يكلفني ذهابي شيئا •• ثم اذهب اليها •• امزق وجهها •• اصفعها •• أحطم رأسها •• الكلبة!! ولكن لو رأيت أحدا قربها •• لو رأيت زهرة أو حسنة فلن اكلمها بشيء •• اكلمها بمفردها فقط •• الكلبة •• لم تكن بين نسائنا مثيلة لها •• »

غذ سيره دون ان يعبأ بالهواء البارد ، وما ان أشرف على قطعان الاغنام الراعية حتى قصر خطواته •• حاسا بالفأس تثقل يده وتثلج كفه••فأدارها الى اليد الاخرى ، ومرّ على حسنة •• وحينما تلاقت نظراتهما ضحكا بمرح •• وتجاوزها وما يزال ينظرها ملتفتا بين هنيهة وأخرى •• وقالت بصوت مغناج :

ـ هاشم •• أين ••؟

ـ هنا •• ابحث عن خروفنا الابيض الذى ضاع ••

ـ خروف آخر ؟!

ـ كلا •• الابيض ذاك •

ـ تعال فتش غنمي ••

وضحكت مائلة برأسها الى الخلف •• فضحك هو الاخر منتشيا وقد تحركت اشياء عدة فى صدره تهز قلبه بسرور ورجع اليها بخطوات وئيدة •• قائلا :

ـ نعم •• لربما أجده بينها •

وتلمس ظهور بعضها فاتلا رقبته نحوها والابتسامة لا تفارق شفتيه المزهوتين •• فقالت :

ـ هه •• وجدته عندي ••

« كل ما اريده عندك يا حسنه •• ولكني لا استطيع الاستحواذ عليه •• »

ـ يا حسنه ••!!

وفرك كفيه وعيونه تسترق محياها بنهم •• وابتعد يقول :

ـ تمنيت لو يكون بغنمك ••

ـ صدقتني وحسبته معها ؟

ـ ومن يكذبك يا حسنه ؟ فانت ••

ـ نعم •• فانا في الحقيقة لا ادري •• وربما كان معها حقا •

ـ لا •• ليس معها ••

وأمالت رأسها عنه بدلال وأسنانها تلتمع بضوء الشمس فزادت من تألق وجهها •• وقالت :

ـ أرجو ان تجده ••

ـ اشكرك •• ولكن كيف ؟•• ضاع من مدة وألقاه ••؟! محال !!

ـ ليس هناك محال •• كل شيء في الحياة ممكن ••

« أنا اراك انت المحال بعينه يا حسنه •• فهل أجرؤ ان اتصور اني

أحصل عليك ؟! أين أنا يا رب حتى احلم بهذا ؟؟ حسنة تصير لي ؟ أنت قادر يا رب » وكان قد ابتعد عنها كثيرا مقتربا من زهرة •• فلمحها تنظر اليه مشدوهة •• مستغربة وكأنها تقول •• كيف تركك تأتي ؟ أعمتك حسنة حتى عن ابيك •• مالك يا هاشم •• ابوك يتعب وانت تلعب ؟ تغيرت كثيرا •• لعبت برأسك هذي الساحرة •• ماذا عملت لك أمها ؟ تعويذه ؟ افتح عينك وابصر دربك قبل ان تطلع عليك الشمس •• فلم يأبه لها •• واقترب من بنت جمعة وما تزال تتبعه بعينيها المتألمتين •• ثم سألها حارصا على اسماع بنت عمه :

ـ سمعت ان خروفا اندمج مع اغنامكم •• وانت تعرفين بانا فقدنا خروفا من مدة •

ـ لا •• ابدا من قال لك ؟

وابتسمت زهرة بألم •• وكأنها تقول « اعرف كل شيء •• »

ـ قالوا ••

ـ لا والله •• لو كان عندنا لقلت لزهره •• لاعطيته لها ••

« لا •• لم يرح تعبك •• فأنت •• » قالت زهرة في نفسها وبنت جمعة تجيب :

ـ لو كان حقا •• لاتيت به بيدي اليكم •

ـ لقد سمعت ••

وأجال ينظره في أرجاء المكان •• « ليست هنا •• ترى هل شعرت بي ••؟ لا أظنها •• وهو أيضا لم يبن •• ترى أين ذهبا ••؟ هل يمكن ان تكون قد هربت معه ؟ لا أظن •• ولكن أين هي ؟•• »

تحرك دائرا في المكان •• مادا نظره الى كل الجهات ولكنه لم

يعثر لها على أثر •• « أين يمكن ان يذهبا ؟ » واقتربت منه زهره ••وجهها شديد الشحوب •• نظراتها منكسرة •• وقالت :

ـ لقد بحثت في كل مكان فما وجدت له أثرا ••

ـ حسنا •• انتبهي لاغنامك ••

قالها بلا مبالاة ثم بارح المكان •• بينا ابتلعت هي كلماته بصعوبة وأحست بها كأشواك حادة تمزق قلبها •• فتمتمت « كيف ينظر لي وقد أعمته تلك ؟! انه يشعر بي مثل الصخرة على قلبه •• » وقال هو « لو تتزوج زهره •• اذاً لتمهد نصف طريقي الى حسنه •• بل كله •• تتزوج زهره ويترك أبي البئر •• » وتاوه « ولكن أين هذا وهو يخاصم هامل ؟! » واتخذ طريقه الى البئر مباشرة وحينما ابتعد عن الوادي متجها صوبه لمح اشباحا ترقد في منخفض صغير •• ثم تبين بها حليمة ونعجاتها الاربع وعند ذاك اوسع من خطواته نحوها •• وقفزت خائفة وهي تسمع صوت تكسر العيدان تحت أقدامه •• وفغرت فاها دهشة ونظراتها المتسائلة تكسر على صفحة وجهه •• ثم وجدت عينيها تفزعان من قسوة نظراته وجمود ملامحه •• وأوجست خيفة وهي تراه مقبلا عليها والفأس تتأرجح بيده •• وقف ينظر اليها بغضب دونما كلمة •• فلم يعرف كيف يقول لها ما في قلبه •• « لكم هو صعب ان اقول لها •• فهي لا تدري انني اعرف ماتدفنه في اعماقها •• انظر يا هاشم • وجهها البليد •• عيناها الفارغتان •• كل شيء فيها يشي بما تمارسه في الخفاء •• هذه العاهرة •• اقتلها بلا كلمة •• لا بل قل لها واتركها تتعذب •• نعم انتقم منها •• قل لها وستقتل نفسها هي بيدها •• يا للعاهرة •• تكشف جانبا من صدرها وكأن قد انحسر عنه الحجاب دون ان تدرى •• انها تثير في النفس الرغبة

•• لربما هي التي طاردته •• فمن يعرف ؟•• وكيد النساء عظيم •• »
وبلهجة خائفة قالت له وهي تنظر اليه :

ـ هه •• هاشم •• ماذا تريد ؟

« ماذا اريد ••!! يا لك من ماكرة •• هل ظننت اني حسين لتحاولي اغرائي ••؟ » التفت اليها وقال بنبرة شديدة :

ـ اريد ؟•• حقا انت ••

ـ مالك يا هاشم ••؟ ماذا دهاك ؟

ـ ماذا دهاني هه !؟

وضحك بمرارة •• ساخرا •• ثم اردف :

ـ حسبت انك تستطيعين اخفاء امرك ؟

وازداد شحوب وجهها وارتعد جسمها كله •• وفتحت فمها ببلاهة وعيناها تنظران اليه بتوسل :

ـ ماذا سمعت عني ••؟ قل ••!! ولكني احلف لك ••

ـ تحلفين ؟؟•• لا •• لقد رأيت بعيني كل شيء

وازداد ارتجاف جسمها ، وصار قلبها يضرب صدرها بعنف وعروق رأسها تنبض بشدة في اذنيها •• وقالت :

ـ من قال لك ؟•• الناس ؟ هاشم •• أنا ••

ـ اسكتي •• لقد رأيت بعيني يا عاهرة •• سأمزقك •• اقتلـك وادفنك هنا •• احفر لك حفرة وأواريك فيها ••

كان يتكلم وعيناه تتوسعان وتمطرانها لهبا •• يصر على اسنانه :

ـ انت وذاك النذل حسين •• سأقتلكما شر قتله ••

وطفقت تبكي بصوت خائر •• فصاح بها :

ـ لا تبكي •• اقتلك •• اسكتي واسمعيني كل شيء ••

فافضت له بحكايتها مع حسين •• كيف طاردها في المرعى •• وفي القرية •• امام الناس دون ان ينتبهوا •• وفي بيتها •• ثم قالت :

ـ لقد قال انه سيتزوجني •• يتزوجني بمجرد ان يحصل على شيء

ـ لقد كذب •• الكلب خدعك •• ولكنك ايضا ساقطة •• اسرعت تصدقينه وترمين نفسك في أحضانه •

كانت دموعها تسيل بغزارة •• تنشج بصوت عال ولعابها يختلط مع دموعها مكونا خيوطا لزجة بين شفتيها وهي تتكلم :

ـ لقد قال انه يتزوجني •• انت تعرفني يا هاشم •• وحيدة وليس لي من أتعلق به •• طاردني مطاردة •• لاحقني في كل مكان •• حتى •• حتى ••

وأجهشت في البكاء ثانية وهي تولول :

ـ ليتني مت •• اقتلنى يا هاشم •• اقتلني ولا تقل لهم •• فأنا السبب •• انا السبب •• كل هذا من يدي •

وظل وقفا امامها يلهث •• « اسقطها الكلب •• القتل له هو •• ولها •• ولكن لعله يتزوجها حقا •• آه لو يتزوجها لانتهى كل شيء •• ولكني أعرفه •• كلب •• حقير •• »

وتركها وانفلت قاصدا مكان أبيه •• وهو يغمغم : « غبت كثيرا عنه •• فماذا أقول له ••؟ سيصب جام غضبه على رأسي •• ولابد انه الآن يتكلم •• وسيظل كلامه يضرب اذني حتى مغيب الشمس » وصار مشيه أقرب الى الهرولة •• حتى وصل لاهثا •• فبادره أبوه :

ـ هه •• وجدته ••؟!

ولمس السخرية مندسة بين كلمات أبيه فوجم وهو يقول :

ـ لا يا ابي •• لم اعثر عليه ••

ـ هذا المرعى قربنا •• فاين كنت كل هذا الوقت ••؟

ـ ابحث في كل المرعى •

ـ ضاع من مدة ويريد ان يجده الآن •• أنا أعرفك تريد ان تهرب مني فقط •• ولكن سترى ••

« لو كنت تعلم لمزقت ثوبك •• وقتلتها •• ولكنك يا أبي •• تريد ان تتكلم فقط •• ومن يدريك ••؟ الملاعين •• » وقال أبوه :

ـ سنموت جوعا ان لم نسرع في حفره •• وانت تتركني وتذهب • واسرع هاشم يحفر •• والبئر تغور في الارض تحته •• وتعمق !!

٢٣

ترك البيت •• وكان الوقت ظهرا •• تناول غداءه لتوه ثم قصد المراعي ليسرح نظره في الارض المديدة •• راجيا لقاء حسنة •• بعد ان استأثر العمل بكل وقته •• الا من سويعات الغروب القليلة التي تتلاقى فيها عيونهما •• يحلم بالعثور عليها وحيدة •• ليكلمها بضع كلمات كانت قد اتخذت مكمنها في صدره •• فقد اوصله خياله لان يطلب منها اخبار امها بشعورهما ليستعينا بها لتخفف من غلواء أبيها فتؤجل الرحيل بعض الوقت •• فلربما تدفقت المياه الحلوة •• أو يئس ابوه من الآبار فيرحل معهم •• وقد بات يأمل لما يلمحه ـ خاصة هذه الايام ـ من تعابير الكآبة التي تلون وجه أبيه •• وعرف أن هذه أول بذور اليأس •• فلعله أدرك ما في فكرته من جنون •• ولا بد ان يعرف ـ اليوم أو بعد أيام ـ انه يتعب وتعبه ليس له •• وكانت الشمس تبث دفئا لذيذا يجعل الانسان يحس نشاطا دافقا لا عهد له بمثله •• وامتدت يده الى شاربه يتحسسه برفق •• وعيونه تشرد الى مجموعة من الرجال وقفوا امام بيت هامل يتحدثون وأكفهم تمزق

الهواء بحركات مفاجئة •• وسمع صوت حسين عن بعد •• فأحس بالانقباض والحقد يترع دخيلته :

ـ اننا نرحل يا ابي •• وأنت هامل •• أليس كذلك ؟

« ماذا يريد الكلب ••؟ ارحل انت فمالك والناس يا حقير •• تعملها وتطلب الهرب !! لا •• فسأعرف كيف أجبرك على الزواج منها •• لن أدعك تفلت حتى لو مزقت لحمك •• لو هشمت جمجمتك •• » وأتاه صوت هامل فارتعشت روحه وخفق قلبه :

ـ نحن راحلون بلا شك •• ستضطرنا الدنيا اضطرارا للرحيل • ولكن •• ما زال في الدنيا والزرع أمل !!

وأجابه أبو حسين بلهجة ساخرة :

ـ أراك تنتظر بئر الزاير •• يا أخي ؟!

ـ أنا ••؟ الا اذا كنت مجنونا •••

وامتعض شاعرا بهبوط في معدته وألم في قلبه •• بينا لمح بعضهم يرسل نظراته بعيدا والأسى يلونها بانكسار •• فاسرع والغضب يمور في صدره متمنيا لو يستطيع ان يمسك حسين ويمزق وجهه •• ويقطع لسانه وحينما قرب منهم كانت نظراته تبحث عن حسين بينهم فلم يعثر له على أثر « الجبان •• لمحني والتمس الهرب •• ولكن أين ••؟ سأجوب الأرض كلها •• الا اذا أختبأ في بيت هامل •• الحقير •• عينه لا تطاوعه ان يواجهني •• ولكني سأظفر به وسيرى كيف امزقه باظفاري •• سرق عفاف المرأة •• لعب عليها ويريد ان يدفع الناس للرحيل ••!! أما يخاف الوغد ؟! امتلأ قلبي حقدا عليه وعلى أبيه فهو كلب مثله •• الأبن من ابيه•• يسخر من ابي •• ليتني استطيع نتف شاربه •• ولكن أبي هو الذي جعل

من نفسه اضحوكة لهم ببثره السخيفة •• كل من لا يساوي مداسا جعل يسخر منه بافكاره هذي •• بثر !! يا لحماقتك يا ابي •• ولكن ما عساي أن أقول لك اذا أنت لا تفطن لعمرك الذي تدفنه بين ذرات التراب ••؟ وتترك هذا الساقط وأمثاله يتطاولون عليك •• بغيابك » وحياهم وهو يقترب منهم دون ان ينضم اليهم •• مواصلا سيره الى خارج القرية •

اتخذ طريقه في الوادي متوجها الى ناحية الشرق •• فهو يعرف انهم لن يكونوا هنا وقت الظهيرة بل يبتعدون الى ما بعد الوادي •• الى المنخفضات التي تملأها الغيوم وقت المطر وتتكون منها غدران زاهية بالمياه •• مؤطرة باطار خلاب من الوان الزهور البرية الفاتنة التي تنتظم في صفوف جذابة وعلى اتساق حلو وخيل له أنه امام غدران ماء حقا • يلعب النسيم بامواجها الصغيرة فتتكسر على الورود بحنو لذيذ •• وقال « لعلك ترحم الناس يا رب •• وتغسل هموم قلوبهم •• » وتصور ان الدنيا ستمطر حقا •• فقال في نفسه « لو أقول لهم بعد أن تمطر الدنيا •• لقد تنبأت •• وأحلف لهم •• لقالوا : رأيتها أمطرت فتكلمت •• » ولكنه لم ير أحدا •• فأجال ببصره « ترى اى مكان قصدوا ؟•• » وهم بان يعود بيد أنه تذكر الجانب الآخر من الوادي خلف الهضبة •• فاسرع يتسلقها وما ان جاس ببصره المكان حتى رآهم يتجمعون فاسرع مبتسما •• هكذا هو يبتسم حينما يقبل عليها رغما عنه ••

كان قد اقترب منهم كثيرا حينما تناهى لسمعه صوت بكاء •• صوت معروف لديه •• فتلامحت صورة مضببة لبعض من يعرفهم « اعرف هذا الصوت •• سأتذكره •• سأتذكره •• » وفجأة •• غامت الدنيا في عينيه واسم زهرة يقفز الى ذهنه وصورتها تنتصب أمامه بدموعها المنهمرة ••

فتأفف « لن أخلص منها •• تريد ان اتزوجها •• تحبني !! ولكني أحب حسنة •• ولتذهب •• فأنا لا استطيع أن أتمثلني معها •• زهرة ابنة عمي•• مثل اختي •• واتزوجها !! لا •• لا استطيع » ولكنه سار نحوها •• فالفاها مكفهرة القسمات •• متغضنة الملامح •• تبكي بمرارة وألم •• فبادرها :

ـ هه •• لِمَ تبكين يا زهرة ؟

قفزت خائفة لدى سماعها كلماته •• دهشة •• فما الذي أتى بـه الى هنا ••؟ ما كانت تدري أنه سيحضر •• وماذا تقول له ؟ تبكي لانـه لا يحبها •• هراء •• وقالت وهي تلم أطراف شعورها :

ـ لا شيء •• لا شيء يا هاشم ••

كانت نظراتها الميتة وكلماتها الضعيفة الواهنة قد لامست قلبه •• فقال وهو يقترب منها :

ـ ألا تقولي لي •• أنا اخوك هاشم ؟

ـ تذكرت أبي وأمي وبكيت ••

ـ لا تبكي يا زهرة •• أم عملنا لك ما تكرهين ؟؟

ـ لا يا هاشم ولكن وحشة المكان جعلتني أذكرهما ••

ـ حسنا •• أنا لا أريدك ان تبكي مرة ثانية •• يا زهرة ••

« لا ابكي •• وأنت تكرهني ••؟ أظننت حقا انني بكيت على أهلي ليته كان صحيحا •• ولكن •• ولكن •• »

ـ أنا لا ابكي لو لم اتذكرهم ••

ولتذكره عمه • •تذكر كلماته له •• فأحس بانقباض في روحـه وغمغم « لم أكن اعرف شيئا فلو قال الآن لرددت عليه • ولكني كنت طفلا

يفرح بكل شيء •• » وكانت قد سكتت ونظراتها تتحسس وجهه برفق دون ان تجرؤ على مصافحة عينيه •• فلو كان يعرف ما في قلبها لتركها تبكي •• وماذا تفيدها بضع قطرات من دموع باردة وقلبها يكتنفه الضباب من كل جانب ويلفه بقسوة •• والألم يمزق روحها •• كسر قلبها بوفاة أهلها وبقيت يتيمة •• وحينما حلمت باقتراب حياتها الجديدة اذا بقمرها ينطفيء فجأة ويتركها هكذا تتخبط في احلك ظلام •• حسنة ليست أحلى منها •• ولكنه الحظ •• وام تلك لا تنفك تعمل السحر له •• فلقد استلبته استلابا •• ومن لها هي حتى يعمل على ابطال عملهن •• ليس لها غير الله •• الله وحده ••

واطلقت حسرة حرى •• وراحت عيناه تبحثان عن حسنة فلم يجدها •• وود لو يسأل زهرة ولكنه أمسك •• فهو يعرف انها تحبه •• وتعرف حبه لحسنة •• ولربما سبب لها بعض الالم فقال :

ـ أسفي عليك يا أختي •• تبكين وانا على قيد الحياة !!
ـ الله يخليك لي •• الله يحفظك يا هاشم ••

واستدار قبل ان تكمل كلماتها •• وهو يلمح حسنة قادمة دون أن يعبأ بدموعها وآهاتها •• بينا سالت دمعتان ساخنتان على خديها •• وبكت روحها بلوعة •• متجرعة آلام قلبها بصمت •

٢٤

« يا الله !! كأن الشتاء قد رجع علينا من أوله •• » قالت حليمة هذا وهي تخرج رأسها من الخيمة متطلعة الى الخارج تنتظر حسين •• « برد الهواء ينشب مساميره في الوجه •• يجعل الانسان يهرب الى النار •• آه •• لا أعتقد أنه سيأتي هذه الليلة •• صار له ليالي لم أره فيها •• يبدو أنه خاف من هاشم •• لكن لا •• انه لن يتخلى عني •• فأنا أعرفه•• لا يكذب ابدا •• روحه على روحي •• وقلبه مع قلبي ويتركني ؟ لا •• لابد أنه الآن يعد امره للزواج •• وهاشم هذا جاء ووضع نفسه بيننا •• ليس له حق •• انا امرأة وحيدة واريد ان اتزوج فما شأنه بي ••؟ كلها أيام ويتزوجني •• آه لكم أخشى أن يكون قد هدده ليمنعه عن المجيء هنا •• ولكني اريده •• انا اريده •• » ولاول مرة استشعرت هذه الليلة فراغا وألما عظيمين يجثمان على صدرها •• وشعور مبهم يتسلل الى أعماقها مع ظلمة الليل ويقبض عليها •• فتحس بالخوف •• والفزع •• وتصطدم عيونها ببطنها التي بدت عليها علائم الحمل وان كانت قليلة •• وارتسم

الرعب في ملامحها وجعل عينيها تضطربان •• « كـــل شيء عملتـه •• هرولت •• ضربت بطني •• جعلت ابني يمتطي ظهري ويرفسني •• كل هذا ولم يسقط هذا الطفل اللعين •• فلو تخلصت منـه لهـان الأمر •• ولكني سأتخلص •• سأتخلص منه بلا شك •• فسأرفع حملا ثقيـلا •• سأشرب ساخنا حتى اسقطه •• انه سيسقط •• امي نفسها سقط منها طفل حينما رفعت ثقلا مع أنها لم ترد • ولكني اريد سقوطه •• يا الهي •• لو يسقط اذاً لتزوجني حسين •• أحسن شاب قلبي مال له وأحبه •• ولكن كيف رآنا هاشم ؟•• يا له •• ليس له شغل غير مراقبة الناس •• ليتنـي أستطيع أن أقول له هذا •• لم يكن أخي •• ولا ابن عم لي ويراقبني •• انا امرأة وحيدة ومجبرة للبحث عمن يحميني ويحمي أطفالي •• حســين الزين وتريدني ان اطرده وهو يحبني كل هذا الحب ؟ »

واطلت برأسها الى الخارج مرة ثانية •• فلمحت شبحا يهرب مسرعا حالما وقع بصره عليها •• « من ••؟ لص ؟ لا ابدا •• ولكن من ؟ لعـلـه حسين •• نعم لعله !! ولكن ما له لا يدخل ؟ ربما خاف المسكين مـن هاشم وأبيه •• فهؤلاء الناس •• لا ادري •• يدخلون انفسهم بكل شي•• لو قال لأبيه فسيقتلني لا محالة •• ولعله واحد منهم جاء يتربص بي ليقتلني •• لا •• لا يمكن فلو كان يقصد قتلي لفعل تلك المرة •• ولم يكـن قربنا أحد •• يا رب •• عليك أنت وليس على أحد غيرك •• فماذا يريدون مني ؟ انا امرأة مسكينة هنا •• لا حول لي ولا قوة •• » وكانت قد ارتدت مسرعة •• وبدافع لا شعوري أيقظت طفليها وأجلستهما قرب النار معهـا « سوف لن يجرؤ على قتلي وهو يراهم •• » « ما لك يا سالم لا تنام •• أنت حمد •• أجلس اشرب الشاي •• هه •• ماذا تريد ؟! » صـارت

تصيح بهذه الكلمات حاسة بالخوف يعتصر قلبها •• وجفلت أكثر من مرة •• وهي تتخيل شبحا يقتحم عليها البيت •• وكان ولداها قد أسرهما النعاس فباتا يترنحان وتنغلق عيونهما رغما عن محاولاتها لايقاظهما •• ويميل رأساهما ويسقطان على صدريهما •• فخشيت ان يسقط احدهما في النار ويحترق •• وعندها قربت فراشهما من النار •• وأرقدتهما •• وسرعان ما علا غطيطهما والدفء يشيع في حناياهما ••

كانت ليلة من ليالي أول شباط •• شديدة البرودة •• فكأن هواءها خيوط صقيع تنغرز في الوجوه •• وهي يقظة متوسعة العينين •• يرتسم في حدقتيها فزع شديد •• لم يبد حركة ولا صوتا •• لعله ينتظر نومها ليأخذ نعجاتها ••

ومدت نظراتها اليها تدفنها في صوفها •• « وماذا يريد ؟ لابد ان عنده أمرا •• لعله أحدهم جاء لقتلي •• سأوقظهما حالما أراه •• سأصرخ •• ولكن لِمَ لا اصيح الآن ••؟ نعم •• فانه لن يبقى اذا صحت •• ولكن لو علم الجميع بأمري لقتلوني •• ليتني أهرب •• ولكن لو كانوا يعرفون للمسته من عيون النساء •• أيمكن أن يكونوا تشاوروا علي ليقتلوني ويضيعوا معالم الأمر ••؟ أنا بحمايتك يا رب •• ما عندي أحد غيرك التجأ اليه •• وأنت اعرف واعلم بأمري لأجل هذين الطفلين •• احمني يارب منهم •• احمني •• »

كانت ركبتاها ترتعدان وهي تقترب من باب الخيمة وترسل نظراتها•• وكادت تصرخ وهي تراه ينزوي مختبئا •• « ولكن ماذا يبغي هذا ؟ ماذا تريد ؟ ألا تقول ••؟ انا امرأة منقطعة فماذا تريد مني ••؟ » واسرعت تختفي في الخيمة والصمت يحرك وساوس صدرها •• ويستفز روحها ••

وكانت عيناه عالقتين بالباب •• واذناه مرهفتين لألتقاط أقل الأصوات •

وبغتة •• استيقظت من خضم هواجسها على صوت أقدام تقترب •• فانشدت عيناها في الباب والرعب يوسع حدقتي عينيها ويلجم لسانها •• وما أن رأته يدخل عليها حتى ارتدت الى الوراء وهمت بالصراخ •• ولكنه أشار لها باصبعه لتسكت •• فبقيت فاغرة فاها بخوف •• ملامحها تبكي •• ولم يكترث لها بل راح يدير انظاره في زوايا الخيمة •• وقصد الى كوم الأثاث يتحسسها ثم ارتد اليها يصوب عليها شلالا من لهيب نظراته •• وصرف أسنانه بغيظ •• ثم قال :

ـ لم يأت •• أليس كذلك ؟•• من زمان وأنا أترصده ••

ـ انه لم يعد يأتي •• أحلف لك •• انني •• انني ••

ـ صه يا عاهرة •• لا ترفعي صوتك ••

ـ ولكني أحلف ••

ـ قلت لك اسكتي •• فانا اعرف كيف أمسكه وأمزقه •

ثم بارح بيتها متخذا سبيله الى أهله •• بينا تنهدت بارتياح وهي تراه يبتعد « يقتله ! لا أدري ماذا يريد ! » وقال في نفسه •• « أأستطيع أن أقتل ••؟ أفعل شيئا حقا ؟ يا لي •• ماذا دهاني ••؟ لِمَ أتصرف هكذا ؟•• هل أنا أبوها •• أخوها حتى اريد قتلها ؟•• ليذهبا الى جهنم فما شأني لاضع نفسي بينهما ••؟ انها ليست زهرة •• أو •• يا للفظاعة ••!! ولكنها منا •• منا !! »

٢٥

أسرعت تترك خيمتها مبكرة •• وما تزال الشمس راقدة خلف الافق •• وقد أيقظت طفليها وتركتهما مكانها في الخيمة •• وراحت تطوف في الأرض •• تخترق الحقول مبتعدة عن المرعى •• والبرد الشديد يفقدها الأحساس باذنيها وفكيها •• حتى أنها لم تستطع فتح فمها الا بصعوبة •• وكانت هابطة مع أرض الحقول الممتدة ، ثم جعلت ترفع الثقيلة من نعجاتها وتضرب بطنها بعنف •• تحمل نعجة وتهرول ، ثم تتوقف تتسمع الى دقات قلبها الواجفة •• انه لا يسقط •• هذا الطفل اللعين •• وعليك ان تعرفي يا حليمة أن ليس لك مكان هنا •• اهربي •• اهربي قبل ان يشعرن بك فانوفهن اقوى من انوف الكلاب في شم رائحة الحمل •• اهربي بعيدا جدا •• ضعيه ومزقيه •• ثم عودي •• أقصدي ارضا أخرى •• وقولي كنت عند أهلي في الساحل •• نعم بامكانك ان تتوسلي بكل الذرائع •• ولكن فقط ان تبتعدي ولا تبقي هنا •• ليس لك

بقاء هنا بينهم . « ولكن هل يتركونك أم سينقبون كل الارض بحثا عليك ..؟ »

وكانت الشمس قد أشرقت .. فأخذت تسوق نعجاتها صوب الوادي لترعاها في جهته الثانية .. معتزلة الجميع .. ماشية بخطوات بطيئة .. ضاربة الأرض بقوة .. لعل بطنها ترتج فيسقط هذا الطفل المنحوس .. متضرعة الى ربها ليصد عنها عيونهم ريثما ترى طريقها .

ولم تنتبه الا وهي تقترب من بئر الزاير .. ورأته بقامته المديدة يتأهب للنزول لأعماقها وبعد ان غارت كثيرا في الأرض .. ففزعت تبتعد ونظراته تلاحقها باصرار .. واضطربت في مشيتها « ترى ماذا يقول هو وابنه .. المرأة العاهرة .. تدنس ارضهم .. يا ربي .. احمني من شرهم .. وكان هاشم ينظر اليها نظرات شزرة حاقدة .. تشي بما يضمر لها في صدره من موجدة وكره .

والتفت الأب الى ابنه يسأل وعيونه مثبتة عليها وتعابير وجهه تنطق باندهاشه .. قائلا :

ـ ما لها .. تهرب ؟!

ـ لا أدري

قالها باشمئزاز وبلهجة شديدة الجفاف .. وعاد الأب يقول :

ـ كأن أحدا يتأثرها .

ـ . . . .

ـ مسكينة .. تكد لوحدها في سبيل العيش ..

ـ تخاف عليها ..؟ امرأة وتخاف عليها ..؟

ـ وماذا تساوي المرأة بلا رجلها .. انها ضعيفة .

ولما ابتعدت كثيرا .. صاح :

ـ حليمة .. يا حليمة ..

والتفتت فزعة .. ثم أسرعت في الابتعاد بعد أن لمحته يحادث ابنه .. فلربما علم هو الآخر .. لربما أخبر هاشم الجميع .. ورأتـــه يتـــرك مسحاته ويأتي في أثرها .. فاجفلت روحها وخنق صوتها الخـــوف .. « ماذا يريدون مني ..؟ ماذا يريدون يا الهـــي ..؟ لِمَ لا يتركونـــي وحظي ..؟ الآن فقط عرفوا حليمة .. اما قبلا فلا احد يطيق رؤيتها .. ليتهم يقتلونني ويخلصونني من هذا العذاب ابنه يتبعني ويمزق روحـــي .. وهو أيضا يريد ان يأخذ وطره مني .. ليفعلوا .. ليفعلوا .. » وكـــان قد اقترب منها .. وقال بعجب :

ـ ما لك يا حليمة ..؟ ماذا دهاك ..؟

كانت ترتجف .. من قمة رأسها الى اخمص قدميها .. وظلت عيناه تتفحصان وجهها المصفر وتلثمان شفتيها المرتعشتين .. وقال :

ـ هل أصابك مكروه .. تكلمي يا حليمة .. فانا .. أنا لك .. ولن ينالك سوء ما دمت هنا .

ـ الله .. يخليك .. ويطيل .. عمرك .

قالت وصوتها يتقطع .. جاذبة نفسها المجهد مع كل لفظة .. بينـــا تابع ودهشته تزداد :

ـ ما لك .. ألا تقولين ..؟

ـ لا شيء .. ليس بي شيء ..

قالت وقد افرخ روعها بعض الشيء .. وراحت تتهرب من عينيـــه الى الحقول حواليها .. والأرض الجرداء .. وتابع :

ـ قولي •• حليمة •• ما الذي أصابك ••؟ كيف حال الاولاد ؟

« اذاً فهذا الرجل لا يدري •• وانا خفت •• ولكن من يدريني ••؟ رأيته يسير وكأن عينيه في أعلى رأسه •• خطواتــه المضطربة افزعتني »

واحتارت فيم تجيبه •• وتقدم منها أكثر وعيناه تلتهمانها :

ـ حليمة •• اخبريني فأمرك يهمني ••

« ماذا اقول ••؟ لقد اخفتني أنت •• اترضى بهذا ؟ » وأجابت :

ـ لقد •• لقد •• ت ••

وفجأة التمعت في ذهنها فكرة •• فقالت بصوتها المهتز :

ـ أصابني البرد البارحة • وخفت ان تسوء حالتي •• فمضـيت الى البيت ••

« رباه !! شكرا لك •• ألف حمد •• فكيف جاءني هذا ••؟ من الذي دس هذه الفكرة برأسي وجعلني انطقها •• » وسمعته يقول :

ـ بسيطة •• ظننت شيئا آخر ••

ـ لا •• نظرك الله بعين رحمته •

وفيما كان يتحرك متجها صوب البئر •• قال :

ـ الله يمن عليك بالصحة •• والعافية •

ـ عافاك الله يا ابا هاشم •

وحدجته بنظراتها الفزعة •• وهو يبتعد « هذا الرجل طيب •• قلبه يحب الناس •• ولكن ابنه •• لا ادري كيف صار عنده مثل هذا الابن !! صدره مليء بالشر •• يريد فقط ان يعذب الناس وابوه يعمل الخير دائما •• فلمن يحفر البئر ••؟ لهؤلاء الناس دون ان يعرف قلبه الضغينة •• مع أنهم يضحكون منه •• رجل قلبه طيب وروحه حلوة •• » وكانت قد اقتربت

من بيتها فنادت على ابنها سالم •• واعطته ما معها من حطب •• ثم خرجت من الناحية الأخرى من القرية •• قاصدة جانب الوادي الآخر الذي تعودت الذهاب له هذه الايام •• وحينما وصلته تركت اغنامها ترعى العشب اليابس واستدارت هي الى سفح هضبته الشمالية في مكان محفور فيه واحست بالدفء يسري الى كل اعضائها من اشعة الشمس المنصبة على ذلك الجزء من الهضبة •• ونسيت نفسها وهي تدق الأرض بعصاها •• مستغرقة في التفكير « لا ادري الا ان ارحل •• وان بقيت فاني ميتة لا محالة •• فهم منذ الآن بدأوا يترصدون حركاتي •• وكأن الهواء يهمس في آذانهم •• نعم •• أرحل ما دام هاشم الذي يعرف •• فالرائحة لا تبقى حبيسة لو وجدت أمامها منفذا يفضي بها الى الهواء الطلق •• فلا بد ان يفلت من شفتيه ويعرفه الناس •• خاصة والذي يعرف هو هاشم •• ليس مثلهم يحب ان يشهر بالناس •• ويجردهم امام غيره لينفخ صدره •• فقط ليتبجح بتفوقه •• وهو يكره حسين ايضا •• لا ادري لماذا مع أنه لا يساوي من حسين قدمه •• لا •• انا لا افتديه للتراب الذي يدوسه برجله •• أين هو هذا الذي تشع عيونه شرا من حسين الذي يحب كل الناس •• آه يا رب •• احمني من شره •• الوغد لا ادري كيف عرف •• هكذا يا رب سلطت علينا هذا الظالم •• ولكن هل استطيع الهرب حقا ؟ واذا هربت فهل أنجو ؟•• أنجو منهم ؟•• » وأحسست بحركة قربها •• فرفعت رأسها واذا بها وجها لوجه مع حسين •• دهشت ••وخافت •• ثم ابتسمت قائلة :

ـ هه •• جئت ••؟

ـ نعم جئت •• لأقول لك انني لن آتي في الليل •

ـ حسنا تفعل •• فان ••

ـ اعرف •• فقد رأيته مرارا •• لقد انتهى كل شيء •• ووقف هذا الكلب علينا •• ولكنه لن يفعل شيئا •• فانا ••

وأحست باهتزاز كلماته •• واضطربت •• بينا واصل :

ـ سأقابلك في النهار فقط •• فهو يروح مع أبيه ••

« سوف لن أترك فرصة تفوت •• فأنت ستسقطينه متى رحلت •• ستسقطينه بلا ريب ••!! » ونظرت اليه والخوف يتحرك في صدرها •• وتابع :

ـ آمن طريقة أن أراك في النهار •

وأدار وجهه في جميع الجهات ثم قال هامسا :

ـ ألا تأتين •• ؟

ـ أين ؟

ـ الى تلك الشجيرات •• فهو مكان أمين ••

ـ لا •• لا حسين •• أرجوك ••

ـ أنا أعرفه جيدا •• فهو مكان لا يطرقه أحد أبدا ••

واتجهت عيناها الى المكان •• وقلبها ينبض •• فقالت :

ـ لا يا حسين •• لتحذر

ـ ولكن لا أحد هنا ••

ـ حسين •• يجب أن تفهم •• اننا •• في العراء •• يجب

وارتفع وجيب قلبها •• ولم تعرف ماذا تقول •• فقال لها :

ـ اتبعيني ولا تكوني حمقاء •• فاننا لن نلتقي في الليل بعد ••

ـ لا حسين •• لا ••

ـ لماذا ؟•• المكان منعزل ••

ـ انني أخاف يا حسين •• أخاف ••

ـ تخافين ••؟ مم ؟•• قلت لك لا أحــد يمكن أن يرانا لأن المــكان منعزل •• ثم الاشجار وشجيرات الـ ••••

ـ حسين •• كن عاقلا ••

فضحك وهو يصعد نظراته فيها •• ثم قال ببرود :

ـ عرفت •• انك لم تعدي تريدنني •• لقد فهمت ••

ـ لا •• حسين •• أنا لا ••

ـ لا •• لا •• فهمت كل شيء الآن •• فأنت قد ملت له ••

ـ لا •• أحلف لك •• لا أعرف غيرك •• أحلف •• ولـكنني •• امرأة •• وأخاف يا حسين •• حقي اذا خفت أما أنت ••

ـ أتريدين أن اصدقك ••؟ اصدق امرأة ••؟ هراء •• الا اذا كنت أحمق مثلها •• المرأة مثل الدنيا •• فيا له ••

ـ حسين •• بم أقسم لك •• ؟

ـ لا تقسمي •• فقد رأيته يخرج في الليل بعيني ••

ـ يخرج لأجلك •• يراقبك •• انه •• انه •• كلب •• ظالم ••

ـ انني لا أصدقك وأنا أراك تعزفين عني ولا ترغبين في ••

ـ أنا ••؟! أنت تظلمني يا حسين •• أنا لم أحب غيرك أبدا •

ـ صحيح ••!!

قالها متهكماً •• ثم أردف :

ـ الذي لا يريدك لا تريده ••

واستدار ليعود •• وهزها الخوف والمستقبل يتمثل لها أشد ظلاما من حاضرها •• وشحب وجهها « هكذا •• يرميني متى أراد •• ولن يمسكه

شيء •• يلفظني كما يلفظ نواة التمر •• انه لأمر فظيع يا الهي •• لا طوق لي باحتماله •• اذاً •• يا رب •• دخيلك يا ربي •• لا أستطيع أن أدعه يفلت •• لن أجعله ينبذني أبدا •• هذا الذي أعطيته كل ما أملك •• »

وصاحت :

ـ حسين •• تريث ••

ووقف يرمقها بعينين متهكمتين •• ثم تظاهر انه يواصل سيره بلا اكتراث •• وقالت فيما كانت تقترب منه ••

ـ حسين •• حسين ••

وانحرفت نظراته نحوها بمكر ••• وقال :

ـ اتركيني •• فأنت لا تريدنني •••

ـ اترك هذا يا حسين •• قلت لك انني لم أرد غيرك أبدا •

ـ كيف اصدق وأنا أراك تطردينني ؟!

« أطردك ••!! هكذا بامكانك أن تلفظني وتسل معفيا كل الاسباب علي •• وكأنك أنت المظلوم •• انني أختنق يا رب !! فماذا أعمل له لو نبذني ••؟ ماذا أعمل له ••؟ »

ـ لا يا حسين •• فأنت تعرف بأني أحبك ••

ـ أنا •• ؟! لا أدري ••

ـ أحبك •• ومستعدة لاتبعك أينما تريد ••

ـ قبل قليل وأنت تطردينني •• وتريدين أن تظهري حبك لي الان ؟ كنت أحسب انك تختلفين عنهم •• ولكنك امرأة ••

ـ حسين !!

وسار متظاهرا باللا مبالاة •• ونفسه مشدودة اليها « الكلبة •• تتمنع علي •• لا أراها في الليـل وتريد أن أبتعد عنهـــا في النهار •• تريد أن أتزوجها ••يا للعقل !! » وشعر بها تسير خلفه •• فاتجه ناحية الشجيرات « أنا أعرفك •• فأنت لا تعنين ما تقولين •• فكيف تدعينني ••؟ وأنا كيف أدع طعاما جاهزا أعددته بيدي يتلذذ به غيري ؟ محال !! ولن أتركك حتى أفترق ••خاصة وهذا المكان المنعزل •• الدافيء •• وأنت معي •• أنت وحدك تلهين بروحي ويسري دفؤك الى عظامي •• يا حليمة !! » وكانت تتبعه عن بعد وهي تقول في نفسها « لا أستطيع غير هذا •• فماذا أقول لو تركني ••؟ » وبين لحظة وأخرى •• تتلفت •

وبينما هما مستغرقان بحبهما في ذلك المكان المنعزل كانت زهرة تدور في نفس المكان باحثة عن حسنه •• فقد بدأت تحس نحوها بكره شديد •• منذ أن عرفت بما حدث ذلك اليوم حينما غنى معها بناي أبيها •• فصارت تراقب حركاتها وسكناتها وهي تراها تبتعد عن الجميع تنتبذ أمكنة لا تدري أين !! وشعور مبهم يلح عليها لرؤية غريمتها •• دافع لا تدري مأتاه •• ولكنه يدفعها بقوة لا تقاوم لتثأر صاحبتهـــا الماكرة •• ولربما خشيت أن تسحره فيتورط معها ولكنها تعرف هاشم جيدا فهو ليس من اولئك الذين يسقطون •• ولكنه رجل عـلى كل حال •• كانت تقول « لن أرتاح حتى أكشف مكانها •• » واذ تقدمت قليلا من ذلك المكان حتى أحست بحركة وراء الشجيرات •• اقتربت قليلا •• قليلا وقلبها يدق بعنف وانحرفت الى ناحية الشرق •• ثم نظرت •• ورأتهما •• حسين وحليمة •• يا للهول !!

يا للفظاعة !! وأحست بالارض تدور وتميد تحت قدميها •• وبالشجيرات تهتز •• فاستدارت هاربة •• لتختفي وراء الهضبة •• « حسين وحليمة •• حليمة المرأة الطاهرة •• مع حسين •• أمر مريع •• كيف حدث هذا ••؟ كيف ••؟ رباه لا أكاد أصدق •• لو لم أرها بعيني •• حسـين وحليمة وبهذه الفظاعة ••!! وأحست بموجـة من القرف تسري في كيـانها •• ولعابها يملأ فمها ويكاد يخنقها •• فبصقت على الارض •• والخوف يلجم لسانها •• « هذي هي الدنيا •• كل يوم لها وجه •• » وأسرعت تتوارى•• وعيناها تشردان الى المكان وكأنها هي التي عملت هذا المنكر !!

٢٦

تلبدت السماء بالسحب من يومين •• ولكن قطرة واحدة لم تنـزل والرياح شمالية شديدة •• يكاد بردها يثلج المفاصل •• فقضت هذه الموجة على بعض الاغنام •• ومات حمار عند زاير راضي •• اكتأب وجهه ساعة وهو ينظر اليه • ثم ما لبث ان تمتم « أمر الله » وتناول مسحاته وقصد مع ابنه أرض البئر •• وزهرة •• الحفت عليها الأفكار وصارت نظراتها تشرد فترات طويلة مفكرة بامر هـؤلاء الناس •• حليمـة الفاضلة التي أحبتهـا وآثرتها عليهن كلهن •• تصير هكذا •• ومع حسين ؟ فكأنها فجعت بعزيز لديها •• وحسنه تسرح بافكارها مجتازة لحظـاتها الحاضرة متشـوفة الى مستقبلها •• تنعم النظر بجمالها وجاذبيتها وتعدد فضائل هاشم وحسـين وتحاول ان تقطع لمن تميل ••؟ ومن تهوى منهما ؟ وابتسمت ساخرة من نفسها وفكرة خبيثة تلم برأسها « ليتني اكون لهما معا •• » وعنفت نفسها ثم مطت شفتيها متضجرة وأصابعها تلامس ضفائرها الطـويلة •• قائلة : « أنا أسكت وانتظر لمن اكون •• » ولكنها وبغريزتها تحس انها سـتكون

لحسين •• فأبوها وأمها يؤثرانه •• انهما لم يقـولا هذا صـراحة ولكنها تعتقد •• فهو يأتيها الى البيت •• يتودد اليهم •• وهاشم لا يكاد يخطر من الباب •• ثم ان أباها بدأ يتضجر من اعمال الزاير •• ويود لو يمنعه عن حفر البئر •• فمادام يحفر فلن تمطر الـدنيا •• مثلما سـمعته يقول •• وهو يعده المسؤول عن الكوارث التي تحل بهم وبماشيتهم •• وكان الوقت لا يزال باكرا •• حينما صاح أبوها من فراشه :

ـ حسنه •• هل ما زالت الدنيا مغيمة ••؟

ـ نعم يا أبي ••

ـ والريح ؟

ـ شمال ••

« يا للعنة !! سيهلكنا هذا الشمال •• يهلكنا حتى يرضى الزاير •• ولكن ماذا بوسعي ان اعمل وهم لا يريدون ان يحفظوا البقية الباقية من حيواناتهم ••؟ ماذنبها المسكينة تموت ••؟ »

واتجهت الى أغنامها فأخرجتهـا من حظيرتها وراحت تنـادي عليهـا والأجراس تدق وهي معلقة برقبتي النعجتين الدليلتين فتتبعها جميع الأغنام•• وحينما مرت قريبا من بيت حليمة كانت الاخيرة تسـرع بنعجاتها ناحيـة الشرق تاركة الوادي : « ما لها حليمة ؟ صار لها عدة أيام لم أرها ابدا •• ربما وجدت مكاناً أحسن عشباً •• أي ناس هؤلاء ؟ أنانيون •• كان عليها أن تخبرنا •• » فأسرعت اليها صائحة :

ـ حليمة •• حليمة ••

وبفزع التفتت •• فرأت حسنة مسرعة نحوها •• وخافت •• «يارب•• يا ساتر •• ماذا تريد هذه البنت ••؟ أثمة شيء لها عندي ••؟ ربمـــا

أرسلها أبوها •• أهرب •• أهرب •• لن أدعهم يقتلونني •• أنا يارب •• يا من كتبت علي العذاب •• وحيدة •• ستفطن بلا شـك •• يارب •• استر •• » وكان قد طرأ كثير من التغير على وجهها فأصبح جافاً •• قاسي البشرة يميل الى الشحوب •• ودونما وعي منها تحرك ذراعاها وانعقدتا على بطنها •• وقالت حسنه وهي تقترب :

ـ حليمة •• أين صرت ترعين نعجاتك ؟

ذهلت حليمة •• وأخذت تتفحصها بعينيها المضطربتين « ماذا تريد ؟ أظنها ارتابت •• ولكن يارب كيف أنجو منهم ؟ فاني حتى لو قبعت في بيتي وسكت لما تركوني •• ولا خلاص لي الا بالهرب او قتل نفسي •• ماذا تريدون ؟ أهرب منكم ••؟ حقاً لم يعد لي مكان هنا •• فهؤلاء الناس •• هؤلاء •• لا •• يجب ان أهرب منهم •• اتوارى خلف الاستار •• » وتابعت حسنه :

ـ مكان جديد •• وعشب كثير !! أنا أعرف •

« وأين عساي أن أهرب ••؟ أين ؟ » وأجابت حليمة :

ـ لا •• مثل هذه الأرض •• تماماً ••

قالتها والكلمات تتشبث بحلقها لشدة جفافه :

ـ غير معقول •• لا تخفيه علينا ••

ـ لا والله •• أخفاني الله ان أخفيت شيئاً عنكم •

ـ قولي ولا تخافي •• فاني لن آتي معك ••

« تأتين ••! يا خيبتي •• فاني حتماً سأجد حسين هناك •• واذاً فستقع الواقعة وأروح الى ستين داهية •• » ووجدت نفسها تقول وروحها تنقبض :

ـ روحي وشوفيه •••

ـ صحيح ؟!

« يا الله •• ماذا تريدين أنت •• ؟ أنا اعـرف •• فانتم تعـرفون وتريدون التشهير بي •• فضحي •• ولكني لن أذهب اليوم » •

ـ نعم •• وانا تاركته كله لك •• وسأبقى هنا ••

ـ هنا ••؟ في هذه الأرض الجرداء ••

ـ نعم •• فما بها من عشب يكفي نعجاتي الأربع ••

ـ ولِمَ لا تذهبين الى هناك ••؟

ـ لا •• هنا لوحدي أحسن ••

ـ ها •• عرفت •• تريدين ان اذهب فتسرقي نفسك اليه •• ها •• ها ••

ضحكت تاركة رأسها يميل الى الخلف •• والمرح يرقص بحدقتي عينيها •• وأحست حليمة بضيق شديد يضغط أعماقها ويكاد يمسك أنفاسها « هذه الثقيلة •• متى تتركني ؟ والله سوف تعرف لو كنت معها أكثر •• » وتحركت صوب الغرب •• هاشة على نعجاتها فقالت حسنه :

ـ اذهبي لمكانك •• فلن أذهب ••

« يا رب •• من أرسل هذه البنت علي اليوم ••؟ حظي السيء •• »

ولم تجبها •• وأخذت تنحني على الارض تلتقط الروث •• بينا تحركت حسنه الى جهة الوادي ، وحليمة تحدجها بنظرات قلقة بين حين وآخر •• وحينما لمحتها تستدير ناحية الشرق ارتجفت روحها وأحست كأن أصابع قاسية تعتصر قلبها وتدميه « هذي الملعونه •• ماذا تقول لو رأته ••؟ انه لابد ان يكون هناك الآن •• يا رب •• عله تعطل •• عل شيئاً حدث له

وأعاقه عن الحضور •• » وتمثلته يمد نظراته من خلال الشجيرات منتظرا قدومها على أحر من الجمر •• وحاولت أن تتصور ما يطرأ على ملامح وجهه وهو يرى حسنه بدلا منها فشعرت ببعض الخوف عليه •• « هو وهي يبقيان وحيدين •• يبقى معها •• لا •• لا •• سوف يتركها ويعود الى القرية •• أو يبحث عني فما يمكن ان يظل معها •• بل سوف ينقم عليها مجيئها •• وسأقول له كل شيء •• أنا أعرفه سينفر منها ويتخلص •• ولمحت شخصاً يتوجه نحوها من ناحية القرية فعاودها الشعور بالهلع •• ولكنها سكنت بعض الشيء حينما رأت في القادم زهرة •• وتنهدت وشيء من القلق يساورها •• فان أي واحدة ستنقلب نمرة لو علمت •• حتى وان كانت زهرة •• التي أحبتها •• حقا لقد جلبت الدمار لنفسها •• لعن الله تلك الساعة التي ضعفت فيها •• فبماذا تنقذ نفسها وشرفها الذي وطأته بقدميها وقدمي حسين •• « يارب •• لو سقط هذا فلن أعود •• » وأحست برغبة لتمزيق بطنها واخراجه بيديها •• ثم حاولت ان تتماسك أمامها •• فهي باضطرابها وخوفها تثير الشكوك •• ورأت زهرة تصب حمما من نظرات قاسية على رأسها •• وعجبت وهي تراها تشيح بوجهها عنها بازدراء « مالها ؟! » وكانت تزم شفتيها وبريق الحقد المشوب بالاحتقار الشديد ترشقها به رشقا •• وارتجفت •• ولاول مرة أحست بنفسها تصغر وتصغر حتى تفقد الشعور بوجودها •• وكأن نظرات زهرة أرتها مبلغ تفاهتها •• فأطرقت وهي تشعر برغبة ملحة للبكاء •• وكانت زهرة قد ابتعدت دون ان تكلمها وما ان لمحتها تبتعد كثيرا حتى مددت رجليها وأجهشت ببكاء مر •• ولاول مرة •• ايقنت من تخاذلها ازاء تشبث طفل الحرام اللعين في بطنها •• وكأن الله يريد ان يعاقبها على ما جنت •• وخيل لها ان الطفل نفسه هو

الذي يصر ليمزقها •• فما ذنبه وذنب أخوته ليقف لهم اترابهم يعيرونهم ••
« امكم عاهرة آثمة •• » وغصت بريقها ومرارته تشل حنجرتها وبلعومها ••
« حقا انا آثمة •• وسينتقم الله مني •• سيكون مصيري شر ميتة •• »
وكأنما أكدت لها نظرات زهرة ان الجميع يعرفون •• وانهم سيعاقبونها
العقاب القاسي •• وتمنت لو يأتون فيقتلونها تلك اللحظة •• فما كانت
تريد حياتها بألمها هذا وقلقها المميت •• مستشعرة فداحة جريمتها وشناعة
ما أقدمت عليه •• ولكنها لم تعرف ماذا تفعل •• وهي ترى كل شيء
يشير الى ان الجميع يعرفون •• ووردت على نفسها والاسى يقطر من نظراتها
« انها لا تعرف •• لا تعرف •• وكلهم لا يعرفون •• فلو •••• »
واختنقت •••!!

٢٧

كانت حسنة تسير هاتفة لاغنامها تتطلع الى المكان من آن لآخر .. « لابد ان يكون كثير العشـــب .. واذاً فلِمَ لم تـأت ..؟ حسبت اني سأعرض عنه وأنا اراها تتصنع عدم الاكتراث .. يا لعقلها !! انا .. يضيع عني هذا .. أبدا .. فانا اعرف هذه الحيــل .. أنا نفسي عملتها مــرات كثيرة .. » واتخذت ابتسامة خفيفة طريقها الى شـفتيها .. حاسـة بفخر وسعادة !!

ولم تكن تعرف منطقة بالذات .. فكل ما تعرفه هو ان المـكان الى الشرق .. ولكن أين ؟.. لا تعلم .. وكانت مطمئنة الى انها ستعثر عليـه فلابد ان يكون اخضرار عشبه ملفتا للنظر .. وابتسمت وهي ترى من ذكائها اليوم ما لم تره قبلا .. « أنا فطنة جدا .. أبي قال هذا .. » ومرت على الشجيرات المجتمعة من بعيد .. متوغلة الى الشرق .. وسمع حسين صوت الاجراس .. فنظر من خلال الاغصان واندهش اذ لمـــح حسنة .. فما من عادتها أن تأتي هنا .. صحيح ان الجميع يعرفون هذه

المنطقة ولكنها قاحلة اكثر من أية منطقة اخرى •• واذاً فلابد ان يكون في الامر شيء •• وهم ان يذهب اليها ولكنه أمسك •• فماذا لو جاءت حليمة ورأته ؟ اذن لشهرت به •• وربما قتلته ثأرا لنفسها •• فيضيع •• وتضيع حسنة •• والاحسن •• أن يظل في مكانه فلعله يستطيع دفع حليمة ويخلو له الجو مع حسنة •• !! بيد ان عينيه لم تنفكا تتابعان حسنة •• وكانت قد ابتعدت كثيرا عنه •• حتى صار يتبينها مع غنمها بصعوبة •• وامتعض لبعدها •• فهو يتلهف لها ويتوجس •• يود لو يعرف بأن حليمة أصابها مرض وأقعدها ليهرع الى حسنة ويقضي معها ساعات ما كان يحلم بها خاصة وانه منذ ايام لم تسنح له فرصة لقياها على انفراد الا لدقائق قليلة •• في البيت حينما يتحين وقت انشغال امها وأبيها •• أما الآن وفي هذا المكان المقفر •• « آه » وبدأت يداه ترتعشان من فرط اهتزاز مشاعره وتخبطها ، وأخذ يتحرك في مكانه دون ان يقر له قرار •• لم يستطع ان يقصدها •• فلربما تصل حليمة فتقع الواقعة على رأسه••وهو يريد ان يتخلص منها •• يدفع هامل وأباه للرحيل حتى ينتهي منها •• ولتذهب الى جهنم ان بعد عنها ، وكان كثيرا ما يخالسها النظر فلعله يراها يوما وقد أسقطت طفلها الذي ركب صدره كصخرة كبيرة •• فانه ملها وصار يستشعر القرف منها هذه الآونة خاصة وهو يراها تتهالك عليه بهذا الشكل المزري •• ورأى حسنة تعود ادراجها •• وشحب وجهه قليلا وهو يقول « لابد انها تفتش عن شيء •• نعم انها تفتش •• فها هي ترسل عيونها الى كل جهة لربما كانت قد رأتنا •• أو سمعت وجاءت ترصدنا •• لك الحق يا حسنة •• اذن فانت تبحثين عني •• تريدين ان تتأكدي •• لكني سأختفي •• ولن تعثري علي ما دمت لاتعرفين المكان •• ولكن لو جاءت حليمة هذه اللحظة

واتجهت الى مكاني •• ورأتها حسنة •• يارب •• احفظ عبدك حسين من نوازل الدنيا » وجثم على صدره خوف عظيم وهو يراها تتجه نحوه •• فقد اقترب خط سيرها من الشجيرات في استدارتها وهي ترجع •• عيناها تطوف في ارجاء المكان •• فما كان من حسين الا ان انزوى •• فان حليمة ستصل حتما وسيكون موعدها بعد قليل •• وفجأة برعمت في رأسه فكرة •• فابتسم ابتسامة هزيلة قائلا في عدم اقتناع « ولكني استطيع ان اراها وهي قادمة فابتعد عن حسنة •• » ورغب في الضحك من نفسه بصوت عال •• هو حسين نفسه يختفي من حبيبته حسنة •• يا للمهزلة !! لتذهب حليمة الى الجحيم •• ولكن احقا تذهب ؟! أيمكن ان يتلافى كل شيء •• لا •• لا •• ستقلب حليمة الدنيا •• ستمزق •• ويفقد روحه او يهرب عن أهله •• فهو ما يزال يتذكر أمسية أول من أمس حينما تخلص فيها بجهد من هاشم الذي ضيق عليه متوعدا •• يهدده بالقتل ان لم يتزوج حليمه •• وهو يعرف انه لا يمكن ان يتزوجها فما شأن هاشم ليملي عليه ارادته ••؟ هل هو ابوه ••؟ ابن عمه ؟ ابوها ؟ أخوها •• ؟ كلا •• انه فرد من الجميع ويريد أن يأمره •• وتذكر انه تعهد له بالزواج منها •• فماذا بوسعه ان يقول امامه ••؟ وذاك تضطرم النيران في عينيه •• لا •• انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً ••!! وانتشله من وهدة افكاره صوت حسنة تصيح :

– من ••؟ حسين •• ؟

وارتجف هلعا •• والرعب يسيطر على أحاسيسه وهي تقترب مبتسمة•• ثم تماسك ليستعيد رباطة جأشه •• وتكلف الابتسام فكانت ابتسامة هزيلة ماتت فور ولادتها على شفتيه وقلبه يدق بعنف « لعل نهاية آماله اليوم •• » وكانت قد اقتربت منه هاتفة :

ـ هه •• ماذا تفعل هنا ••؟

ـ لا شيء •

وصمت قليلا ثم عاد يقول :

ـ أبحث عنك ••

ـ تبحث عني هنا ••؟

ـ فقد فتشت كل مكان فلم ارك •• ورأيت ان آتي لهذا المكان •• وها اني وجدتك •

وابتسم ابتسامة باهتة •• وهو ما يزال في وقفته وكأنه يود ان تبقى المسافة بينهما •• فلو جاءت حليمة الآن لما شكت في الامر •• وزفر وهو يراها تلقي بعصاها وتجلس لائذة من قسوة الهواء البارد •• وقالت :

ـ لا •• انت منزو هنا فرارا من هذا الهواء الذي يمزق الوجوه •

وانسلت ابتسامة صغيرة الى شفتيه •• اذاً فهي لا تعرف شيئاً ، واقترب منها •• عيناه ترمقان مقدم حليمة •• قائلا :

ـ كأنما قلبي يعلم •• فان شيئاً همس لي بانك ستأتين ••

ـ صحيح ؟!

ـ نعم والله •• فقلبي مشغول بك ليل نهار •

ـ وأنا كذلك •• فأنت لا تدري كم احبك يا حسين ••• لقد كنت أبحث عن مكان عشبه كثير •• فعثرت عليك •• ففيك حياتي •• ولك تهفو روحي ••

ـ القلب للقلب يحن يا حسنة •• فنحن لانعلم وقلوبنا تقودنا كل الى الآخر •• تدفعنا هكذا دون ان نعلم •• أو نعي ••

ـ أقول •• هل رأيت أين ترعى حليمة كل يوم •

وجمدت ملامحه بغتة •• وهربت دماء وجهه •• ونظر اليها ••
« اذاً فأنت تعرفين •• يا للعنة !! كيف ؟ يارب •• » وقال :

ـ لم أرها من أيام •••

ـ أنا أيضا •• ولكني رأيتها هذا الصباح تتجه الى هنا •• ولما سألتها عما تقصد سكتت وبقيت في مكانها •• ولكن لن تنطلي حيلتها علي•• فهي تعرف مكانا عشبه كثير وتريد ان تستأثر به •• « هو أنا هذا المكان الذي تقصدين •• وقد وقفت ووجدتيه •• ولكن أحقا انها لن تأتي ••؟ يا ربي لا تدعها تأتي •• »

ـ انها لاتريد الناس •••

وفطنت لتغير وجهه •• فاندهشت وهي تقول :

ـ ماذا بك يا روحي ؟ قل لي هل أنت مريض ؟

ـ لا •• فقط أحس بمغص قليل في بطني ••

ـ مغص ؟! بسيط •• سيذهب عنك حالما تستريح •• لقد أثر فيك البرد •• انتظر سأشعل نارا ••

« يا لي •• ستنشك هذه الافعى •• لانتبه على نفسي •• وعض على شفته دون أن تراه ثم قال :

ـ لا تتعبي نفسك يا حبيبتي •• فقد ارتحت ••

ـ أنا أعرف انك سترتاح •• ولكن الدفء زين ••

وصمت وهو ينظر اليها نظرات مليئة بالحب والحنان •• لشد ما أنا احمق •• اتسرع في الامور •• لا •• فقلبي هو الذي يغوص في أعماقي وروحي هي التي ترتجف دون ارادة مني •• وعادت وجلست قربه •• فامتدت يداه تعبث بضفائرها •• ووجهه تضيئه ابتسامة عذبة تنم عما تشعر

به من سعادة وهناء •• ثم قرب فمه منها وقبل وجنتها قائلا بهمس :

ـ يا حبيبتي ياحسنة •• ياروحي •• يارغبتي في الدنيا •

وتحركت من مكانها قليلا دون ان تشعره انها لا تريده •• فقلبهـا يطفح السرور في حناياه •• وروحها فرحة •• ولكنها تخشى أشياء كثيرة •• وقبل وجنتها مرة ثانية •• وقال :

ـ متى أراك في بيتي يا حسنة ••؟ متى ؟ يخيل لي ان هذا اليـوم تقصر دونه حياتي ••

ـ هذا بيدك •• فأنت الذي يجب •••

ـ ولكن يا حسنة •• انني لا استطيع الآن •• واخشى ان نرحل ••

ـ لا •• فقد صمم أبي على الرحيل وانتهى كل شيء •• وانتم ؟

ـ نحن اول من سيرحل •• شريطة ان تكوني في الضعن •

وأخذت تعبث بالنار والصمت يلفها فيحرك الكلمات في صدرها ••

ـ أنا احبك كما لم يحب رجل فتاة •• وأنت ؟؟

ـ احبك بكل ما في قلبي من خفقان ••

ـ اذاً ليتك تطلعين أمك على حبنا •• فلعلها تساعدنا •

ـ اترك هذا الامر •• أنا أعرف •• فقط اخطبني ••

ـ ولكني أخشى •

ـ لا تخشَ شيئاً •• فأنا أعرف أبي وأمي جيدا •• انهما معك •

ـ يا لفرحتي •• انت حسنة تكونين لي •• اذاً لما وسعتني كل أطراف الارض •• لهمت راقصا في البراري •

وضحكت وهي تقول :

ـ وأنا أتبعك •• لأصفق لك ••

فضحك من أعماقه قائلا :

ـ أنت أعز ما في الدنيا عندي يا حسنة ••

وبغتة •• برزت زهرة •• لاهثة •• متصلبة الملامح •• تتحداهما بنظرات نافذة •• وتقول :

ـ هراء •• كذب •• كذب •• كله كذب •

وفزعا يتطلعان اليها •• خائفين •• وقد عقدت المفاجأة لسانيهما •• وجعلت أعينهما تتوسع وملامحهما تشحب ••

بينا أردفت :

ـ يا للمجرم •• يا للمجرمة •• لم يكفهم ما كذبوا ••

وتركتهما في حيرتهما وعادت ادراجها الى غنمها وكل عضلة في جسمها تختلج •• وكانت قد جاءت ورغبة جامحة تدفعها لتراه وهو يسحق حليمة مثل الامس •• وتمتمت « اوغاد •• كلهم أوغاد مجرمون ••!! »

٢٨

اشتدت الريح وأغبرت السماء حتى غدت بلون الرمل •• وكست الصفرة أشياء الكون ، وكانت الشمس قد شحبت شحوبا شديدا بعد ان استلب الغبار كل شعاعها وتركها قرصا مستديرا كالحا يوحي بالكآبة والوجوم وكأنها في سبيلها الى البكاء ، فعلت الدهشة وجوه الجميع •• فما أسرع ما تحولت الغيوم الى غبار !! وعبرت العيون في عجبها عما يجيش في الصدور « لقد بدأت السماء تمطر ترابا » ثم انحدرت الانظار تعانق أديم الارض الجاف ، وطأطأ القوم رؤوسهم والألم ينزرع بين ملامحهم •• ثم اصفرت الدنيا •• وعلا عويل الريح ، وصمدت الخيام مقاومة ضغط العاصفة القاسي وعلا الصياح من كل جانب : « عجاج •• عجاج •• عجاج •• » ووضع من كان خارجا كفه على وجهه متقيا صفعات الهواء القاسية ويرد عن عينيه حبات الرمل •• وانطلقت بعض الاصوات من خلال صيحات الرعب المختنقة « يا رب يا ساتر •• دخيلك يا رب » وسمعت صرخات متتابعة •• فأجفل القوم •• وتحولوا بعيونهم نحو مصدر الصوت •• فاذا بخيمة حليمة قد طارت حصيرتها وانتهبتها الريح بعيدا جدا •• وسرعان ما انطلق زاير راضي

في أثرها بكل قوته ومعه ابنه هاشم بينما كانت حليمة تحاول اللحـاق بهما دونما جدوى •• وجسمها يرتج ••

وعلقت عيون القوم بهم •• واشدت الاعصاب ازاء اشتداد ضـــربات العاصفة ، وهمست القلوب بخوف متعلقة بالله وبالائمة الاطهـــار عليهـم السلام ، وانكفأت الحصيرة على الأرض متشبثة بعدد من الكثبان الصغيرة التي نبتت على رؤوسها الأشواك •• فزموا على شفاههم وسابقوا العاصفة •• وهي تدفع ظهورهم بقوة حتى لحقوا بها وخلصوها •• ولم يستطيعوا نقلها فقـد دفعتهم الريح معها عدة اقدام كما تدفع السفينة •• فما كان منهم الا أن طرحوها على الارض ثم أخذ الزاير يطويها •• وكانت أكبر من ان يتأبطها•• فتعاون الأثنان على حملها ••

وقابلا حليمة في الطريق •• وصاح الزاير مبتسما :

ـ تبكين ونحن هنا ••؟

ـ الله يسلمك •• الله يخلي لك ابنك ••

ـ نحن أهلك يا حليمة •• وأكثر من اهلك •

ـ والله انت زين •• ولكني مثلما تعرف وحيدة •• وغصبا عني أبكي

« اني وحيدة ••!! العاهرة •• تتكلم وكأنها لم تعمل شيئا » قال هاشم في نفسه حانقا •• بينا أجابها الزاير :

ـ وحيدة ••؟! لا •• كلنا لك •• فقط قولي •

ـ الله يطيل عمرك •• الله يزيد حظك ••

وكانت عيناها وهي تكلمه تتحركان في محجريهما قلقا •• تستوجس من كل نظرة يصوبها •• بينا كان هاشم مشيحا بوجهه عنها طول الوقت يأكل الغيظ قلبه •• « آه لو تعلم يا أبي •• اذاً لذبحتها هنا •• لصرخت بوجهي

لأني طويت ضلوعي على سرها •• ولكن حقي يا أبي •• فلعله يتزوجهـــا •• بل سأجبره على الزواج منها •• الكلب لابد وان اعد نفسه للزواج منها•• ثم من أنا لأقتلها ••؟ أخوها ••؟ ابوها ••؟ » وأسرعا يثبتانها حول الخيمة •• الأب يخالس النظر •• هائما بجمال وجهها وحلاوة عينيها دون ان يفطن لما عراه من شحوب والأبن يمزق غشاء الكآبة عن تعابيره ويتمنى لو ينفض ما بجعبته من حقد •• ثم عادا الى البيت •• وفي الطريق •• قال الأب :

ـ هذي المرأة مسكينة •• وكل ما يعمله الانسان لها يجزيه الله عنه •

ولم يجب هاشم •• فأردف :

ـ لكم انا أشفق عليها •• ألم ترها يا هاشم كيف قتلها الخوف ؟!

ـ انها امرأة •• و ••

ـ ووحيدة •• آه لقد مزق قلبي بكاؤها ••

ـ هذي هي المرأة •• تسرع للبكاء دائما ••

ـ وماذا تفعل ••؟ طبعا تبكي •

ـ نعـم ••

ـ حسنا فعلنا •• حسنا فعلنا ••

كانت عيناه ترتدان الى الخيمة وبريقهما يكاد يشق الغبار •• وصمت هاشم « اتركنا منها يا أبي •• هذي الساقطة •• أنت رجل طيب ويغرك مظهر الناس •• دعنا لهمومنا •• » وحينما مرا على بيت هامل كانت حسنة تشير على الغنم بعصاها وبيدها صائحة بها لتدخل الى حظيرتها والخوف يمزق روحها •• وصورة زهرة تتحداها بملامحها النافرة •• وقد ضاعت الشمس •• وبث الليل ظلامه من خلال ذرات الرمل •• وكان ليلا مخيفا جعل الفزع يطل من حدقات العيون •• والرعب يتحرك في الصدور •• ويرتسم على الملامـح •

٢٩

أحس هاشم بما عرى ابنة عمه من تغير •• فقد انتبه لها في الليلة المنصرمة يقظة تتقلب في فراشها، وضاعت مشاعره بين الغيظ والأسى •• فماذا يعمل ••؟ هي ابنة عمه •• تحبه وهو لا يحبها يشعر انه يظلمها •• ويظلم نفسه •• وابتهل « ليتها تدعني وشأني •• فمثلما تريد أن احبها •• أنا أيضا اريد ان تحبني تلك •• » وفي الصباح •• فطن لما شاب وجهها اليافع من شحوب وما لونت ملامحها من كآبة •• قلبه يتفتت وهو يلمح انكسار نظراتها وانطفائها •• ولكنه يغضب في نفس الوقت •• فان حب حسنة صار قدر حياته •• واقترب منها وهي تقبل على جمع الحطب بفتور لتوقد نار الصباح وفي نفسه أشياء كثيرة •• ثم جهد لأن يكون صوته هادئا :

ـ زهرة •• زهرة ••

فرفعت عينيها اليه •• دونما كلمة •• وواصل :

ـ ماذا بك يا زهرة ••؟ مريضة ••؟

« انا مريضة ؟! صحيح أنت لا تدري ؟ نعم اذا كنت تريد الحق ومرضي هو أنت •• تحب هذه التي لا تعرف قدرك •• فتاة طائشة تمنح لسانها

لكل سائل •• آه ليتك أحببت غيرها ممن يخلصن لك •• اذاً لفرحت من كل قلبي •• ولكني سأموت •• يقتلني الهم •• وأنت سادر •• تغمض عينيك عما يدور حولك •• يا هاشم يا روحي تنحدر هكذا ••!! لقد كنت عزيزا •• عظيما في عيني وفي عيونهن جميعا •• أما اليوم •• فهذه الكلبة قد سلبتك كل شيء حتى فطنتك ورهافة حسك •• » وتابع ونظراته الحائرة تتحسس وجهها :

ـ قولي •• هل أنت مريضة ؟

ـ نعم •• رأسي يؤلمني ••

« انا اعرف •• لا يؤلمك رأسك ولا أي شيء ولكنني •• آه •• لقد اراد الله هذا •• وليس بوسعي ان اعمل شيئا •• »

ـ زهرة •• اوصيك يا أختي بنفسك ••

« لا عليك بي •• فانا اعرف أنك تود لو لم أكن هنا •• وليتني لم أكن •• »

ـ زهرة •• هذي دنيا قاسية

« آه لو تدري •• فانك أقسى منها يا هاشم •• » وقالت :

ـ لا شيء بي •• كل شيء سيزول •• وأعود الى طبيعتي •

« حتما يا زهرة •• ستنسينني •• ولكني •• آه •• انت تنسينني وقلبي لا ينسى حسنة •• انه معها •• ولو تعلمين لما نظرت الى هكذا •• فانا اعرف كل ما يهجس به صدرك •• »

ونظرت زهرة اليه •• وأرادت ان تفضي له بما في حناياها •• بيد أنها أسرعت تبعد وجهها عنه •• ودمعتان تنحدران على خديها •• وانتبه اليها وهي ترفع يدها تمسحها •• فاقترب منها قائلا :

ـ زهرة ••

فأطرقت دون ان تجيب ••

ـ زهرة •• انا اعرف ما تريدين قوله •• ولكن ••

ـ تعرف •• وترضى به ••؟

ـ نعم يا زهرة •• أقبل به •• ارضاه •• فأنها أخذت قلبي معها ••

« تقبل ان تخونك مع حسين •• انت هاشم فتى القرية •• تنحدر الى هذا الدرك ••؟ يا رب •• ماذا أصابه ••؟ ماذا عملت له ؟•• لقد قلت أنها سحرته•• هي وأمها •• المجرمة •• »

ـ كيف يا هاشم •• فانت ••

ـ اسكتي •• أنت تقتلينني بكلامك يا زهرة ••

« اقتلك بكلامي لأني أريد ان افتح عينيك ••؟! وهي تقتل قلبك مئة مرة في اليوم وتضع اسمك تحت قدمي حسين الوغد يا الهي ليس هذا هاشم حقيقة •• لقد تغير •• لقد تغير •• »

وكان يفكر والألم يعتصر روحه •• ويمزق شغاف قلبه •• فلم كتب له القدر هذا العذاب •• تحبه ابنة عمه ويحب أخرى غيرها « لو كانت تعرف ما بقلبي لما عجبت من جنوني بحسنة •• معها الحق هي تحبني ولا تتصور كيف أحب حسنة •• انني احبها وأفنى في حبها يازهرة •• لأن قلبي هو الذي أحب •• هو •• ولكنك لا تفهمين سوى خفقان قلبك وتصمين اذنيك عن خفقان قلوب غيرك •• لو تدرين انني احبها اكثر مما احببتني انت للمست مقدار عذابي •• انا تعس يا زهرة •• أموت في كل لحظة •• واليأس يمتص روحي •• انا انسان تنمو بذرة اليأس في اعماقه •• وتستلبني لحظات الزمن التي تمر نسمات الأمل مع أجزاء عمري •• » وجاءه صوتها

وكأنه ينبعث من أغوار سحيقة متكاثفة الظلام :

ـ ما كنت اعرف انك تقبل بهذا ..!!

ـ اذن اعرفي الآن ..

« يا للعار !! يا للموت المريع .. لو كنت صمت .. لو كنت تركتني .. آه يا رب .. أهكذا ينتهي كل شيء ..؟ وتنهار أحلام البشر ..؟ كنت اتصورك يا هاشم وحيدا بلا ند .. ما كنت ارضي ان اضع آخر معك .. لا .. لا .. انت لست بهاشم ابدا .. ترضى بأن تلعب التافهة بقلبك على قدمي حسين .. لا .. لا .. لن أصدق »

ـ عرفت هذا .. عرفت هذا .. فما كنت أصدق انك لا تدري ..

ـ بل انا اعلم بكل شيء ..

وودت لو تصفعه لتثير احساسه .. فقد خيل لها انه مخدر يتكلم بغير لسانه ولا ينظر بعينيه .. فقالت بغيظ :

ـ اذاً فستكون رجل زمانك ..

ونظر اليها ، ولهيب قلبه ينبعث نظرات قاسية من عينيه وصرف اسنانه وهم بأن يصفعها .. وارتجفت هي كقصبة جوفاء تهزها ريح قوية .. وشحب لونها .. وصرخ بوجهها :

ـ نعم سأكون .. فانها أحسن منك .. انها ..

ـ لأنها تلعب على الرجال ..

« ما تدري كيف نطقت بهذا .. ولا كيف تحرك لسانها .. وانما أحسست بالكلمات تنطلق من لسانها رغما عنها .. فصرخ بها :

ـ تكذبين .. أنت تكذبين .. تحقدين عليها .. تكرهينها ..

وبقسوة .. صفعها على وجهها .. فطفرت الدموع من عينيها بصمت

•• وتلاحقت انفاسها •• ثم اطلقت آهة طويلة وكأنها تخففت مما كان يرهق روحها ••!!

وكانت حسنة قد أرقت هي الاخرى •• فماذا تقول لهاشم ، وحسين قد أنهى كل شيء وخطبها من أهلها ؟ ها هي سفينتها ترسو على شاطىء حسين وما يزال هاشم يتابعها بنظرات لهفى •• تتقلب في فراشها ولا تهتدي لطريق تسلكه •• أو تجد قولا تقوله لهاشم •• فانها يجب ان تمتنع عن محادثته وقد أضحت ملك حسين •• ولا بد ان تجعل هاشم يعرف « الدنيا لا تؤتمن •• اذاً لأقل له •• لأضعه امام الامر الواقع •• فماذا يعمل ؟ وممن أخاف ؟ أقول له ان أبي اعطاني وانتهى الامر •• فما علي انا •• نعم ليس له علي حق •• فأنا لم أقل له بأنني أحبه وأريده زوجا لي •• نعم ما كنت أستطيع أن أقول له هذا يوما •• اوه » وأحست بقلبها يقرصها •• وروحها تمتعض •• فانها لا تستطيع أن تتفوه أمامه بشيء •• ابدا •• « اذاً لن أقول شيئا •• ليأتي ويقرب مني ولكني ابتعد •• لن أتكلم •• ولن التفت نحوه •• اذهب ل ••• » وتذكرت يوم رأتهما زهرة فارتجفت شفتاها •• انها ستعرف اني كنت صادقة مع حسين •• فأنا احبه •• اما هاشم فأحبه أيضا ولكني افضل حسين عليه •• فقد كنت اعرف انه الذي سيأخذني •• هاشم وراءه أبوه •• وزهرة •• وهو أيضا لا يملك ما يملكه حسين •• وأهلي ينفرون من اسمه واسم ابيه •• ها •• عرفت •• أقول له أن ابي اعطاني •• أجبرني •• هددني بكل شيء •• اوه •• لم كل هذا ؟ لأصمت وليذهب •• فما علي انا ؟•• ما علي ••؟! »

وحينما كانت في طريقها الى المرعى ، كان هاشم ينتظرها واقفا قرب زهرة يجيل طرفه في أرجاء المكان بنفاذ صبر •• يتحرك في مكانه عابثا وهي

تلوح من بعيد •• وافتر ثغره عن ابتسامة شوق وعيونه تنشد بها بينا كانت زهرة تهتز في مكانها وشفتاها ترتجفان وكأنها في سبيلها لتبكي •• وانطلقت التأوهات من صدره الزاخر بمشاعر الحب الفياضة ••

وتتابعت حسرات زهره •• « انه لا يستأهل مني كل حبي •• فهو منهم •• نعم من هؤلاء الاوغاد •• لا يختلف عنهم بشيء •• » فان هاشم الذى أحبته ومنحته قلبها غير هذا الواقف امامها الآن •• لا تكاد الأرض تحمله من فرط انفعاله وحبيبته اللعوب تقبل عليه •• والتمعت عيناها ببريق الغضب الصامت المشوب بالحقد المدمر •• وفيما كانت حسنة تقترب •• كان وجهه يتلون ويتغير •• وشعرت زهرة باحتقار نحوهما •• رأتهما كما لم ترهما من قبل •• صغيرين •• تافهين لدرجة لا يستأهلان منها كل هذا الحزن •• وتحرك هاشم من مكانه متجاهلا وجودها وبفم ضاحك •• قال لحسنة :

ـ صباح الخير ياحسنة •• كيف حالكم أمس بالعاصفة ••

ـ انقضت بسلام ••

قالتها باقتضاب •• وكان وجهها شاحبا •• وظلال قاتمة تضفي على ملامحها كآبة وحزن •• واردف :

ـ نحن خشينا ان تطير الريح ستارتنا ••

وظلت صامتة •• تنظر الى قدميها •• وكان قد لحقها وصار الى جنبها •• وانتبهت زهرة اليها فلمحت آثار الامتعاض بادية على وجهها •• وقالت « يا لها •• تخشى ان تردد ما رددته على مسامع حسين أمامي •• لا •• يبدو أنه يتشبث بها وهي لا تريده •• تريد الآخر •• »

وشاع الصمت في أرجاء المكان •• وحسنة تواصل مضيها في الطريق !!

٣٠

شاع خبر خطبة حسنة لحسين في اكناف القرية ورجعت كل خيامها صداه •• وكانوا جميعا جالسين يتهيأون لتناول طعام الافطار •• زاير راضي وهاشم وزهرة انتبذت مكانا يبعد عنهم قليلا •• تعد أقراص الخبز •• تنظر اليه نظرات اليمة •• حينما اعتدل الأب في جلسته وقال :

ـ أعطاه ابنته •• لانه يرحل معه ••

وأدار هاشم وجهه الى الجهة الاخرى بقوة •• يزم على شفتيه وملامحه تمطر غضبا •• روحه تتمزق •• واردف الأب :

ـ عيب والله •• يريدهم ان يرحلوا معه •

« ما قتلني الا أنت •• حطمتني •• كسرت قلبي •• أنا أعرف انني حتى لو تقدمت لطلبها لما رضوا وأنت هنا •• أنا اعرفهم جيدا •• » وعض على شفتيه مرة اخرى « ولكن كيف رضيت هي ••؟ كيف ••؟ انها لا تحبه ابدا •• تحبني انا •• يقسرها ابوها على الزواج من ذلك الوغد وتضيع حليمة ••؟! يا للكلب ! انني اعرف كيف ألوي رقبتك •• سوف أريك كيف تخدع بنات الناس وتقسر أخرى على الزواج منك يا سافل •• آه ••

لو دري هامل لما اعطاها لسافل وضيع يخون عرضه مع بنت عشيرته ..
لم أكن أتصور انه يقدم .. وعلى حسنة .. كان يقول انه يتزوج حليمة
ولم أتصور انه يخدعها .. هو وهي .. هذا الوغد .. ولكني اعرف
كيف انتقم لها .. ولك يا حسنة .. أجبروك على الزواج منه .. ابوك
وغد مثله .. ولكن ماذا تقول امك ؟ تفرح على حزنك .. هكذا .. يريد
حسين وتصير الامور كما يشتهي - وأظل انا انظر بعيني فقط .. اقف
هكذا .. لا .. لسوف تريني يا حسنة .. تسمعين بمن احبك وأذاب قلبه
في حبك كيف يجازيه على ما أقدم عليه .. فما حاجتي بحياتي بعد ذهابك
انت ..؟ كلا .. ابدا .. لا رغبة لي بشيء بعدك يا حسنة .. »

ولم يدر .. أأكل فطوره على التمام أم لا حينما نهض دونما اكتراث
لهما .. وعينا زهرة تتابعانه بأسى والالم يكاد يذهب روحها « أتستحق كل
هذا الألم منك يا هاشم ..؟ ولكنك كنت تعرف .. أنت نفسك قلت هذا..
فلم كل هذا الألم ..؟ أم كنت تتصور انها ستظل معك الى آخر الدهر ..؟
كنت تعرف ان حسين الوغد .. حسين الذي التهم حليمة .. يريدها ..
وأنت تتبعها وكأنك لا تشعر بوجودي احوم حولك .. وأنا احترق لوحدي
.. قلبي يذوب وهي تمرغ نفسها في أحضانه وقبلاته تلهب وجنتيها ..
هذا كله كنت تعرفه يا هاشم كما أعرفه وتحزن عليها ؟! » وكان قد ابتعد
كثيرا .. متوغلا في أرض المرعى .. ناسيا كل ما عليه .. نسي أباه وعمله
.. والبئر .. وجاء يهيم على وجهه .. يريد أن يراها .. فلا بد انها
تبكي الآن .. لابد انها تأكل نفسها ألما .. فهي تحبه أكثر مما يحبها هو ..
ولكن حسين .. الكلب « ما كنت أعرف ان عنده نوايا مثل هذه .. »
وحينما استدار حول الوادي من خلف هضبته الجنوبية لمحها معه .. تضحك

وهو يشبك أصابعه على صدره تلتمع عيناه سرورا •• فحث خطاه بحذر •• غيظا •• الساقط •• وقد طاش فكره وهو يراها تضحك •• « أحقا ••؟ هي حسنة تضحك لحسين •• هي بنفسها تضحك •• لا غير معقول ••» وحينما اقترب منه •• أمسك بكتفه يغرس أصابعه في لحمه •• صائحا في وجهه بغضب :

ـ لم خطبت حسنة ؟

ـ خطبتها ••

ـ خطبتها •• ؟ وتلك •• ؟ حليمة •• ؟

ـ لا أفهم •• فانا لم أرد حليمة •• كنت أحب حسنة •• وهي حبني •• خطبتها من أهلها وبرضاهم •• فما شأنك انت ؟

ـ انا ما شأني ••؟ يا كلب •• تضحك على نساء الناس •• يا سافل يا حقير •• افترستها لتتركها ••

ـ ماذا بك يا هاشم ••؟ ما الذي تقوله ••؟

ـ تخدع تلك وتجبر هذه مستغلا هامل •• يا فاسد ••

ـ اهدأ يا هاشم •• والعن الشيطان ••

ـ ومعها تريد ان ألعن الشيطان •• يا مجرم ؟! يا ساقط •• أنت تلعب هكذا ؟!

وبدأ هاشم يرتعش مما اجتاحه من غضب بينا صار وجه حسين يحاكي وجوه الموتى •• كلماته تتقطع من خلال زفرات لهائه •• وقد جهد ان يثبت امام حسنة •• فقال :

ـ انني لم أجبرها •• فهي تحبني •• ولهذا خطبتها ••

ـ تكذب ياكلب •• انها لا تحبك •• ولم تحبك يوما •• ابدا •

ـ وتحبك انت •• هه ؟! يا لعقلك الذى يصور لك أشياء لا وجـــود لها •• حقا أنك ••

ـ أنت الكلب •• استملت والدها وأجبرتها ••

وكانت حسنة ترتعد خوفا بينهما •• فماذا تفعل ••؟ وليتها تدبـــرت نفسها قبلا •• ليتها عملت شيئا •• وتقدمت تفرق بينهما قائلة :

ـ اذهب يا هاشم •• اتركه ارجوك •• اذهب فأنت عندك زهرة ابنة عمك •• ولا يزوجك ابوك بغيرها ••

ـ لن أذهب حتى اقتص من هذا الوغد ••

ـ أرجوك يا هاشم •• اذهب لأجلي ••

ـ لأجلك اذهب واتركه وقد أجبرك •• هراء ••

ـ وماذا تريد ان تفعل ••؟

صرخ حسين بوجهه فاستشاط هاشم غضبا وأمسك بعصاه وضربه على رأسه مرتين •• برأسها الحديدي المكور •• فسقط حسين يتخبط بدمه •• وانطلقت صرخات الفزع من حسنه •• وصرخت « الحقـــوا يا ناس •• تعالوا •• لقد قتله الكلب • قتله ابن زاير راضي • » فما كان منه الا ان صفعها صفعة قوية •• وترك المكان •• بينما تدفق الناس صوب الصياح تاركين بيوتهم •• وتحلق الرعاة ينظرون والرعب يطل من أحداقهم المضطربة ولطمت زهرة خدها وأسرعت في أثر هاشم مع غنمها •• وسرعان ما تجمع كان أهل القرية في المكان •• ثم نقل حسين الى أهـله وقد شـقت أمـه جيبها وراحت تضرب وجهها •• معرضة بالزاير وابنه •• وكان هاشم قد أدرك ما أقدم عليه من خطأ شنيع •• ولكنه لم يندم •• أخذ حقه وليكن ما يكون •• وعرف أبوه وهو يترك عمله راكضا نحو الحادث من الناس ••

فعرج صوب بيته وقد اسود وجهه وطاش عقله •• ابنه هاشم يفعلهـــا ••؟ كيف ؟ ولم فعلها ؟•• كان السبب منه •• فلم تركه ؟ كيف لم يأخذه معه هذا الصباح ••؟ هو يحب بنت هامل •••؟ لا •• انه لا يتصور هذا •• ابدا وحينما وصل البيت ألفاه مطرقا برأسه وقد تغضنت ملامحه وكأنه كبـر كبر عشر سنين •• وصاح به :

ـ لِمَ فعلتها بي ياهاشم ••؟ تريد ان يتركني الناس ••؟فعلتها •• ومع ابن عمك حسين ••؟!

وهم بضربه ولكن أحدهم أمسكه •• ثم أخذه الى مكان آخر •• وفي صباح اليوم التالي •• كان ثلاثة من الشرطة قد استصحبوا هاشم معهم •• وقصد حسين وهو جريح بصحبة ابيه الى مستشفى المدينة •

٣١

تغيرت الوجوه •• وجمدت ملامح القوم •• وانبعثت نظرات كلها لوم وتعنيف لزاير راضي وكأنها تلقي عليه وزر ما أتاه ابنه •• وروحه يترعها ألم عظيم •• فالناس ناقمون عليه وابنه رهن التوقيف في مركز شرطة المدينة •• والولد حسين راقد في المستشفى يعاني آلام الضربة القاسية •• « هذا ما اراده هاشم •• ان يفعل بي هذا الفعل •• » وهجر البئر ناسيا كل أموره •• وقد ثقلت ملامح القوم عليه •• فلم يسمع منهم غير كلمات قليلة مقتضبة •• ولم يأته أحد الى بيته غير العطار •• وكان يعرف أن هامل بدأ ينفث سمومه بين الناس يحثهم على الرحيل •• ولم يكن ليفعل شيئا •• فهم ناقمون عليه جميعا •• يضرب ابنه حسين بهذه الوقاحة دون أن يحسب لهم حسابا •• فهل جاء الوقت الذي يتخلى فيه كل واحد عن أخيه ••! لا •• الا أنهم أيضا باتوا في حيرة من أمرهم فماذا يفعلون ••؟ بيد ان واحدا فقط كان يعرف حل القضية •• ذلك هو العطار •• فقد جمع ابناء العمومة كلهم في بيته ذات مساء •• وقال بعد ان رتب كل شيء :

ـ انتم تعرفون ان هاشم ضرب اخاه •• ولم يضرب غريبا ••

واتجهت اليه العيون دون ان تنفتح الأفواه •• بينا تحرك أبو حسين وكانه يريد ان يصيح •• ولكنه سكت •• ثم واصل العطار :

ـ وعندنا ان من يضرب أخاه يقبل عليه ليتصالح معه وواجب الجماعة •• القيام بهذا ••

وتلاقت الانظار •• ثم اطرقت •• واستلى :

ـ وانا سمعت ان حسين قد شفي وسيأتي من المستشفى صباح غد •

فنهض أبو حسين ••• يقول بغضب :

ـ أهذا ما عندك ••؟ لو كنت ادرى لما أتيت •

وهم بالخروج فأسرعوا يمسكون به •• كلهم •• وهو يصيح :

ـ يريدنا ان نتصالح معهم •• لقد انتهت معهم •• ونحن نعرف كيف نأخذ حقنا •• نحن نعرف •

وقال هامل مؤكدا كلامه ••

ـ هذا صحيح •• ان ابنه قد فعل فعلة لم يكن ليفعلها أحد هنا •

ـ ولكن اسمحوا لي •• فلأجلي •• ولأجل هؤلاء الجالسين اطلب منكم ان تتصالحوا •

ـ لا •• أبدا •• لقد كاد يقتل ابني وأصالحه ؟!

ـ اسمع يا ابا حسين •• ليس بين الاخوة غيظ •• انه لم يكن يقصد •• وستراهم اذا ما دهمكم الضيق كيف •••

وقاطعه صارخا :

ـ لا •• لا •• لا أريدهم •• ولا أريد ان أبقى معهم •

وتهامست العيون مرارا •• وتفاهم القوم •• وقال أحدهم :

ـ والله علينا ان ننهي كل شيء بينهم •• ولكن يجب ان نفعل شـيئا لهاشم لنردعه •

فتكلم زاير راضي •• وكان ساكتا طول الوقت :

ـ أنا أقبل بكل ما ترونه •• احكموا انتم وانا انفذ ••

وبعد ان تشاوروا فيما بينهم •• قال العطار :

ـ اسمع أبا حسين •• صحيح ان ابنك تضرر •• وهاشم اعتدى عليه •• ولكنه يعتبر ابنك •• هما ولداك ••

وقال هامل :

ـ انه أراد ان يقتله

ـ اترك هذا جانبا يا أبا حسنه •• وأنت يا أبا حسين •• لقد رأى الجماعة أن يدفع زاير راضي لكم مصروفات الطبيب وكل ما تكلفتموه •• أنت بشرفك وذمتك تأخذ •• وتتنازل عن الشكوى أمام الحاكم •

وعندئذ صاح الجميع :

ـ نعم يا أبا حسين •• هذا هو رأينا ••

وتقدم الزاير منه يصافحه •• وتجمع القوم عليه •• وكثر الكلام•• وقبل أبو حسين صامتا •• وامتعاض مقطب يشد ملامحه ويرخي شفتيه •• ثم انفض اجتماع القوم •• وقصد كل واحد بيته •• سار أبو حسين مع هامل جنبا الى جنب •• وكان الزاير يـدفن نظراته بـين كوم التراب في طريقه يفكر « هذا ما أراده هاشم •• ولكن ماذا بوسعي أن أفعل ••؟ سأدفع لهم وأمري لله •• » وفيما كان يقترب من اثنين منهم سمع أحدهم يقول لرفيقه : « هل سترحل معهم •• » فيجيبـه الآخر •• « أظن اني سوف أرحل ••فمابقي هنا شيء يقوتنا ويقوت حيواناتنا والزرع في طريقه

للذبول •• بل للموت كما تعلم وليس لدينا وسيلة نعيش عليها غيره •• فماذا تقول أنت ؟ »

« والله أنا أيضا مثلك » ، وانكمشت روح الزاير •• فحث الخطى اليهما •• وقال بأسى :

ـ هل ترحلان •• ؟

ـ نعتقد ذلك يا أبا هاشم •• فماذا نفعل هنا ؟ وأنت تعرف ان ليس لنا بقاء ••

وصمت •• فقال الآخر :

ـهل تعتقد يا أبا هاشم اننا سنعيش ان بقينا هنا •؟!

ـ ولكنها أرضنا •• أرضنا يا جماعة ••

قال الزاير هذا فأجابه أحدهم :

ـ هل نموت ويموت أطفالنا من أجل أرضنا القاحلة ••

ـ انني أعرف •• ان الله منع عنا المطر لانكم تتكلمون في الرحيل ••

ـ صحيح !! يريدنا أن نرحل •• اسمع أبا هاشم •• نذهب كل واحد يبحث عن وسيلة تعيشه •• أحسن •

ـ ولكن ما يزال أمامنا بعض الوقت •• اننا نستطيع أن نصبر قليلا•• فان الله يجزي الصابرين ••

ـ لقد صبرنا كثيرا ••

« آه •• » تأوه الزاير من أعماق مكلومة •• ثم قال :

ـ أهكذا ••؟ نترك أرضنا •• نتركها •• رحمتك يا رب ••

وصمت قليلا •• ثم عاد يقول :

ـ يريدوننا أن نرحل عن أرضنا •• عن الارض التي عرفنا فيها

الله •• لنظل تائهين •• نهيم من أرض لأخرى •• بلا وطن •• بلا أرض •• اعرفوا يا جماعة •• قيمة الانسان بأرضه •• والذي لا أرض له لا كرامة له •

وغمغم •• « ما أكثر الكلاب السائبة •• » وانضم جماعة آخرون اليهم وقد عرفوا ما يدور حوله كلامهم •• فقالوا ونبرات الحزن تعمق تقاسيم وجوههم :

ـ اننا نرحل عنها مرغمين ••

ـ ولكنني سأبقى •• أنا لن أرحل عنها ••

ـ نحن غيرك يا أبا هاشم •• لربما كنت تستطيع العيش على هذه الحجارة •• أما نحن فلا نتمكن ••

ـ ولكن •• تستطيعون أن تنتظروا •• تستطيعون •• ولقد صبرتم كثيرا فما بالكم ؟ كثيرا ما يتأخر المطر ولعله تأخر هذه السنة •• وما تلبث الدنيا أن تمطر •

وصمت القوم جميعا •• وحينما كان يقترب من بيته قال :

ـ أنا نفسي أنتظر أياما •• فان لم يرحمنا الله •• أرحل •• أرحل معكم اذا بقيتم معي ••

ولم يقل أحد منهم شيئا •• واصلوا سيرهم كل الى بيته وقد ازدادت همومهم •• وباتت تقلق عظامهم وتكاد تكتم أنفاسهم •• ودلف الزاير الى داخل خيمته •• وفزع اذ لمح زهرة تبكي فأقبل عليها :

ـ مالك يا زهرة ••؟ لِمَ تبكين ؟

وحينما سكتت دون أن تجيبه حدس انها تبكي لأجل هاشم فهو يعرف انها تحبه •• بكل قلبها وروحها •

٣٢

انقلبت سحنة الابن •• وعلت التقطيبة الدائمة وجهه •• فغدا وقد كثرت فيه الغضون كوجه مرت عليـه سنون طوال ,وغرزت دقائقها الثقيلة في ملامحه •• وانطفأ ذلك النور البهي الذي كان يسطع في ملامحه وينير شفتيه بابتسامته العذبة الحيية •• وغارت النظرة الفرحة في عينيه •• وخبا وهج السعادة فيها •• يجلس في البيت مطرقا •• يتناول طعامه في سهوم •• ويقبل على العمل في البئر بلا حس وكأنه فقد روحه وأضحى انسانا آخر•• انسانا آليا •

تمر الدقائق •• والساعات •• واليوم •• وهو لا ينتبه من سروحه في الأفق بنظراته البلهـاء الفارغة الا ويروح في غيبوبة •• ينظـر الاشياء حوله دونما فهم أو اهتمام •• يسرع مبتعدا بعينه من النظرات القلقة التي تمد اليه حسرات والهة •• نظرات زهرة •• ويحس انه لم يعد لـه في حياته شيء •• فقد قلبه وروحه •• فكأنما الانسان في داخله قد قتل وبقي جسدا بلا روح •• وفقدت الاشياء معناها وبدت امور الناس لعينيه مضحكة أحيانا •• وسمجة لا تحتمل في أحيان اخرى •• تثير القرف والنفور في نفسه « أهذه هي الحياة ••؟ نعمل ونأكل لنعيش •• ونعيش لنموت ولا

غير هذا •• نركض ونصرخ •• نظلم ونكدح •• نتحمل الآنام •• وليس غير الموت نهاية لنا ••؟! ليست غير جسر صغير بين ظلمتين علينا أن نعبره من طرف الى طرف •• بالصراخ والجوع•• والعرق والخوف •• هكذا•• هكذا حياتنا •• ونظل نفتح أفواهنا ونحمل أوزارا على مناكبنا لنلقيها آخر الطريق ونخرج وكأننا شيء طارىء •• دخل غريبا ومات غريبا •• هذه كل حياتنا ••!! سنين نقضيها بين مطر وبرد وحر •• جوع وخوف وأمل!! شتاء قارص وصيف لافح ولا غير هذا •• عمرنا حراثة •• وحصاد •• وأخيرا موت •• » وبرز أمامه وجه كالح للحياة •• وجه مغبر خال من كل معنى •• يحرق جفافه الأمل •• ويذيب ظلامه نور العيون •• وكان الأب يقضي جل وقته صامتا هو الآخر •• تتجمع الهموم في صـدره •• وتتكاثف الأحزان ثم يروح ينفضها كلها في العمل •• في أعماق البئر •• يلتمس فيه ما ينعش روحه ويوقظ حواسه •• فيروح يحلم بالماء العذب •• والمطر •• والحياة الهانئة مع حليمة دون أن يتبادل مع هاشم غير الكلمات المقتضبة •• التي ما تكاد تبارح شفتيه حتى يبتلعها الهواء وتموت على سمعي هاشم الذي صارت تخنقه رتابة الايام ويزهده في الحياة أفول كل نجوم الأمل من حياته ••

ولم يعد يخرج •• أو يقابل أحدا •• بل بات يجتر أشجانه بصمته المطبق •• وأسماءالناس حوله تترع أعماقه بالصديد •• فيحس بالغثيـان وكأنه في سبيله ليبصقهم من رأسه •• وما عاد يكترث لحليمة أو أخبار حليمة •• وان كانت حسنة تلم بخياله •• يتمثل وجهها ضاحكا أثناء لقاءاته الاولى بها •• وحلاوة ذلك اليوم •• وكأنه ما يزال يغني والناي في شفتيه ينفث آهاته من خلال أنغامه العذبة •• التي تهز أوتار قلبـــه وترجع في

روحه •• فتصعد النشوة الغامرة الى رأسه •• وتجعل عينيه تلمعان بجذل•• متعجبا •• فكيف حدث ذلك ؟ وفي كل مرة ينتبـــه من لحظات ارتداده ترتسم الاسئلة أمامه في الهواء •• وتأخذ الاشياء طابع الغرابة فيدو وكأنه في سبيله لعدم التصديق لما وقع •• أو أنهـا ليست هي حسنه التي قالت ذلك •• بل •••• ويعتصر الألم قلبه •• ويهم بالبكاء ثم تنطلق آهـة موجعة من أعماقه تذيب كل أفكاره وخيالاته في ظلام نظراته الميتـــة •• وغدا وكأنه في سبيله لينسى كل شيء •• ويقبل على حياته كما يقبل على شيء يرتاب في جدواه بفتور واشمئزاز •• ولا مبالاة •• مغلقا أذنيه دون كل الاصوات حتى لا يظل بعض الصدى يدور فيها فيشده الى أشياء لم يعـد يرغب فيهـا •• وليكن كل شيء في القرية •• وحتى البئر •• وأحلام أبيه •• وكأنها أمور لا تعنيه ولا يمكن أن تكون من بعض أشياء حياته •• لولا أن سمع أباه يقول ذات يوم وهو يتناول طعامه بصموت تام :

ـ أتدري يا هاشم •• انني •• أقصد بعد أن تتزوج أنت •• أنوي الزواج أنا أيضا ••

وأرسل هاشم نظرات خابية الى خارج الخيمة فوقعتا على كلب يمد لسانه واللعاب يسيل من شدقيه •• ينظر اليهم نظرات نافذة •• قوية •• ثم يردها الى الطبق أمامه •• ومضى يمضغ طعامه •

ـ أنا أبوك •• وسيكون زواجي موضع تقدير من كل الناس •• فان من أتزوجها امرأة نادرة •• سيكون زواجي عمل خير أيضا •• يرضى عنه كل الناس ••

ولم يزايل صموته •• ونظراته تزرع شكوكا جديدة في روحه •• نبهته لامور الناس حوله لاول مرة منذ أن وقعت الحادثة الاخيرة ثم تابـع

كمن يستدرك :

ـ ولكني لن أتزوج الا بعد أن أراك متزوجا في بيتك ..

« أتزوج ؟! يا للمهـــزلة !! لا .. الافضـــل أن تتزوج أنت .. فلا رغبة لي في الزواج .. ولا شك بأنك ستسأم انتظار زواجي .. وستغير رأيك .. » وما يزال الأب يتكلم :

ـ تتزوج وتصير في بيتك مع ابنة عمك .. ثم أنا ..

ومن تحت أهدابه رمق زهره فلمح تقاسيم وجهها تزداد اكتئابا وكأن الليل قد ربض بعتمته الثقيلة بينها « مسكينة .. بدأت تتأمل بألم وهي تسمع كلمات أبي بدل أن تفرح مثلما كانت .. » وواصل الأب :

ـ أتزوج حليمة .. هه ما تقول ..؟ أليست المسكينة بحاجة الى رجل ..؟ وانها ....

وقطع كلامه تغير لون ابنه .. وانبعاث صوت غريب من بين شفتيه.. كأنه عويل ريح في أرض خراب :

ـ حليمة .....؟

وتلفت حوله فزعا وقد تحرك شعور صاخب في صدره .. مزيج من الألـــم والغضب .. والخوف .. فألفى زهرة تنظر الى أبيـــه بنظرات مشدوهة .. متوجسة هي الاخرى .. وشيء جديد يستيقظ في عينيها .. ووجد نفسه يقول بنبرة قوية :

ـ لا .. حليمة ؟! لا أبدا ..

وأُخذَ الأب بكلمات ابنه .. وذهل للحظات .. فما كان ينتظر هذا منه ، وفتح فمه بارتخاء المتعجب المندهش .. ثم سأل بفتور :

ـ ولِمَ ..؟ لِمَ لا أتزوج حليمة ..

وهم أن يصيح بوجهه : « انها عاهرة •• ساقطة •• ليس لك أن تتزوجها •• منحت نفسها للكلب حسين •• النذل •• » ولكنه قال :

ـ لا تتزوجها يا أبي •• لا تتزوجها •• فهي لا تصلح لك ••

ـ لا •• أنت مخطيء •• انها أحسن امرأة •• وهي الوحيدة التي يمكن أن أتزوجها •• حليمة وأسمها يدل عليها ••

ـ لا يا أبي ••• انك لا تستطيع أن تتزوجها ••

وهمَّ أن يعترف له بكل شيء •• ولكن شعورا غامضا جمد لسانه وحبس عنه الكلام •• ولايدري لِمَ !! وطاف بعينيه في المكان •• والتقت عيناه بعيني زهره ، وأحس كأن عندها شيئا •• أو انها تحمل سرا لاتستطيع البوح به •• شاعرا بأنها ارتاحت لكلماته •• فتساءل :

« ترى هل تعرف هي أيضا ••؟ لربما !! فهي معها كل تلك الايام في المرعى •• ها هي تتحرك زامة على شفتيها •• لابد انها تعرف ، ورغب في أن يدنو منها ليسألها بيد انها أدارت وجهها عنه تنظر الى الشيء البعيد الذي اعتادت الشرود بكل حواسها اليه •• وعاد الأب يسأل متعجبا وهو لا يكاد يفهم :

ـ لماذا لا أتزوجها ••؟! الحقيقة انني لا أريد غيرها ••

« لا تريد غيرها •• ؟! ليس الأمر بيدك •• سوف أقول لك في وقت آخر كل شيء••• وانك ستبتعد عنها ان لم تقتلها •• »

وهتف الأب :

ـ قل ••!!

وظن الأب انه يريدها لنفسه •• فقال :

ـ انها امرأة كبيرة تصلح للكبير مثلي •• وأرملة أيضا ••

ولم يجد هاشم بداً من السكوت •• فكيف يثبت قوله وهي لحد الآن لم تحمل •• ولم تبن عليها أي آثار للحمل ••؟ ستنكر وسينكر هو •• وسيقول الناس •• يكرهه ويريد أن يلقي عليه قبائح لا حقيقة لهـــا •• يريد أن يلطخ المسكينة المنقطعة •• وماذا يقول لهم ••؟ نعم ماذا يقول ••؟ وهل الحق رجل حتى يستنطقه ••؟ أبدا •• فكم من أمر ضاع لأن ضده أكثر وضوحا منه ••؟ لا •• لا •• انه لن يقول شيئا •• فسيفسر الناس كل شيء بمنطق العداوة والبغضاء •• وستصيح •• يريـد أن يلقي ابن الزاير على رأسي مصيبة •• أنا امرأة لا أحد لي •• فماذا يريد مني ••؟ لم أدخل بيتا ولم أجالس أحدا ويلصق بي هذه التهمة •• هكذا وأنا قاعدة في بيتي •• فقال في نفسه « لن يقلبها الله سوداء أو شيئا آخر حتى••• » ثم الى أبيه :

ـ انني لا أرتضي لك الزواج منها يا أبي ••

ـ لا •• انني الذي أريد ان اتزوجها •••

ونظر هاشم صوب زهره •• فلمح نظراتها تخبو وكأنها كانت سمع شيئا غريبا لم يكن لها على بال •• وقال الاب وبنبرة هادئة :

ـ أين أنا الآن منها •• والجفاف يأكل كل ما لدينا ••• ؟

« نعم •• كلامك هذا عظيم •• ولفترة أحسن •• ونحن لوحدنا أستطيع ان أقول لك كل شيء •• أفهمك حتى لا تندفع بعواطفك وتثير ما لا أرغب في اثارته •• فأنا أرى أنها لا تستحق أن يقضي الانسان على حياته من أجلها •• ثم هناك الكثير مثلها •• فسواد الليل يحتضن كل الالوان والاشياء •• حسنة مثلا •• كانت تحبني وترتمي في أحضانه •• حليمة على الاقل احسن •• منحت نفسها له فقط •• وبخدعته لها •• تصورت

انه يتزوجها •• ولكنه نذل •• سافل •• وهذه أعمال الانذال •• »

وانتهت تلك الجلسة •• وزهرة تقترب منه ونظراتها تضطرب مع قلق حدقيتها •• وكأنها تريد الافضاء له بشيء ، ولكنها ما تلبث أن تعود •• حتى تركت البيت مع الاغنام الى المرعى •• بينما تبع هاشم أباه الى البئر ليواصلا الحفر •• وقد بانت تباشير قرب الماء •• وعاد الامل يداعب قلب الاب •• صار وجهه يشرق للحظات ثم يخبو •• ثم يشرق والامل يصطرع في نفسه مع اليأس •• وفي ظهيرة ذلك اليوم •• ولم يشأ هاشم أن يعود الى الخيمة •• بل واصل تطوافه في أطراف المكان ينفس عما يرهق وجدانه من أفكار •• محاولا تسلية نفسه •• وفيما كان يسير •• مر بشجيرة كبيرة تلقي بظلها على عشب يابس قد جعلته الاقدام ناعما بعض الشيء •• فجلس تحتها ممددا رجليه وما عتم ان مال بجسمه •• وأحس بالخدر والفتور يسري في جميع أعضائه •• وبجفنيه تثقلان ثم تنغلقان •• وما تزال وساوس صدره تتقلب •• وتتصادم •• حتى غاب عن الوجود يلفه نوم هادىء عميق ••

ولم يدر كم من الوقت مر وهو بين أحضان الكرى •• فقد استيقظ فجأة على حركة قربه ، ففرك عينيه رافعا رأسه ورقبته يتفحص المكان •• وانتبه الى شيء عجيب وتساءل : « ترى من صنع هذا •• ؟ لم أر أحدا هنا يوم أتيت •• !! » فلقد رأى عباءة منشورة في الهواء تلقي ظلها عليه •• وسرعان ما عرف •• لقد استدارت الشمس ملقية بأشعتها عليه ورآه أحدهم فعمل له هذا الفيء •• ثم نهض يريد ان يعرف الذي صنع هذا له •• وبغتة توقف ينظر الى جهة الشجرة الاخرى حيث الظل •• وكأنه لم يكن يتوقع ان يراها في هذا المكان •• ابنة عمه زهرة •• جالسة على الارض

تقضم من رغيف بين يديها مغمسة كل لقمة بدموعها المنسرحة الى شفتيها عبر خديها بصمتها الدائم •• وكأنها تستعرض حياتها وتبكي حظها •• فأحس بالانقباض •• وشعر بانه ملعون •• اختاره الله ليريه كل ما في الدنيا من عذاب •• ولوى رقبته عائدا الى حيث كان •• فانتبهت له •• تنظر صوبه واجمة •• ثم تحركت وقد مسحت دموعها ولم تبق على أثر لها •• وقدمت أمامه رغيفا كانت قد ابقته له •• فرفضه قائلا :

ـ كليه •• أنت ••

ـ حتى الخبز •• ترفض ان تقبله مني •• !!

ـ لا •• ولكني غير جائع ••

ـ انني ادري •• انك لم تذهب للبيت ••

ـ لاني لا أحس بحاجة للطعام •• فقط أريد ان اسلي نفسي •

واقتربت منه ثم جلست على ركبتيها •• تنظره بقلق •• وما لبثت ان قالت بتلعثم :

ـ هاشم •• عمي يريد ان يتزوج من حليمة ••

وتنهد هاشم •• هازا رأسه بينما استلت هي :

ـ ولا تسأل أن يتزوجها عمي •• ان حليمة •• أ •• أأ ••

فتطلع اليها بنظرات مستفهمة •• وفهم من ملامحها ما تريد قوله فأسرع يقول :

ـ أعرف •• أعرف يا زهرة •• انها ساقطة •••

ـ نعم يا هاشم •• ساقطة ويريد ان يتزوجها عمي ••

ـ انه لا يدري •• يراها مثلما يراها غيره •• ومن يدريه بما تواريه عتمة الليل •• ؟

ـ الكلبة .. ما كنت أظن بها .. حتى ...

وأمسكت .. فقال هاشم :

ـ وهل يعرف أحد سواك ؟

ـ لا ادري .. لا .. أعتقد أن ليس هناك من يعرف ..

ـ وكيف عرفت أنت ؟

امتدت عيناها اليه .. وكانت ملامحه مشدودة والأسى المشوب بالغضب المكبوت جعل عينيه تشردان .. وذهنه يبحر الى أعماقه يجوب ظلماتها ..

ـ رأيته معها ..

وأحست بقشعريرة تسري في جسمها .. وبشيء من الخوف والحياء .. بينما هز هو رأسه قائلا :

ـ خدعها .. الكلب .. لوح لها بالزواج .. ثم خذلها ..

وأمسكت عن الكلام .. فماذا تقول بعد ؟ ولكنها تساءلت بعجب « ولكن لِمَ لم يقتلها ما دام يعرف ؟! كنت أظنه ..!! لا .. انه حاول قتل المجرم .. ولكن الدنيا .. دنيا ظلام هذه الايام » ودون أن يتفوه بأشياء أخرى .. نهض سائرا .. معرضا عما ابدته له وكأنه لم يرها .. اويحس بوجودها .. فاختلجت عضلات وجهها اختلاجة ألم عنيفة .. وطفقت تبكي ..

قصد البئر .. فاخترق عدة حقول حتى وصل .. وكان أبوه يعمل وبين فترة وأخرى يتطلع الى كل الجهات بحثا عنه .. وما ان لمحه حتى صاح :

ـ هه .. هاشم .. أين كنت .. ؟ لِمَ تتركني أعمل لوحدي ؟

ـ قرب زهره يا أبي.. هناك !!

ـ لقد خشيت عليك .. واردت ان أبحث .. لكن ..

فتناول السطل وراح يدليه بينما نزل أبوه الى الاعماق ليقوم بتعميقه وملء السطل بالوحول .. وحانت من هاشم التفاتة صوب الحقول فلمح بعض الحيوانات تلتهم الزرع الشاحب فقال بشيء من الخوف :

ـ أبي .. هناك أغنام تأكل الزرع .. وأخشى ان تكون قد التهمت زرعنا ..

ـ هه .. أغنام تأكل الزرع .. ؟!

ـ نعم يا أبي ..

فترك عمله ثم شق طريقه صوب الحقل ، وفي أثره أبوه حتى اذا وصلا كانت نظرات الاب قد انطفأت تماما .. وانزرع ألم حاد في أعماقه .. وأخذ يزفر زفرات حملها كل ما قطع قلبه من خوف أليم .. وهو يرى الى حيوانات هامل وأبي حسين قد بدأت تلتهم زرعهما .. وقال وهو يصفق بيديه حرقة « اذن فقد اعتزما على الرحيل .. » وأجابه صبي صغير بوقاحة عدائية قائلا :

ـ بعد يوم أو يومين نرحل .. لقد قال أبي هذا

ونظر هاشم الى أبيه فالفى وجهه قد تعمقت أخاديد جبهته وكأنه شاخ من زمن بعيد .. وخيل له أن أباه في سبيله ليبكي .. ولم يقل شيئا .. وقال الاب وعيناه تتعلقان بأسنان الاغنام القاضمة :

ـ أهكذا يضيع التعب ؟

ـ هم أرادوا هذا ..

ـ ولكن هذا مؤلم •• مريع •••
ـ أ أنت أحرص منهم على مصلحتهم •• هم انفسهم لم يقولوا شيئا •
ـ ولكنهم مخطئون •• سقوه بعرقهم ودموعهم •• ويقضون عليه ؟!
ـ أحسن من أن يموت •• ويعدم ••
ـ لا •• انهم مخطئون •• فيمكنهم أن يقدموه لها لو يبس ومات •• فلماذا ؟ •• لماذا الآن •• ؟
ـ ولكنهم سيفقدون كل أغنامهم اذا انتظروه يجف •• ستجف دماء عروقهم ويفقدون كل شيء •

واستغرق الاب في صمته •• وراح ينظر بعيدا •• بعيون زائغة امتص القهر كل نور فيها •• وتسلل الى روحه ألم شديد وبدأ يعتصرها عصرا ••

٣٣

غزت حليمة كتلة من خوف بعد أن غاصت كل آمالها في ظلام مطبق وغرق كل شيء حولها في يأس تام ...

حتى كانت ليلة ...

تحركت كالمجنونة وهي ترى كل ما حولها يتجهم ساخرا ، وصفعت ابنها سالم بقوة حينما اقترب منها مغمغما ثم اسرعت تنزوي في ركن مظلم من الخيمة واجهشت في البكاء .. وما لبث الصبيان ان ضجا في عويلهما معها وبخوف وألم .. تلمست بطنها وسرت رعدة الفزع في ظهرها وجعلت الدم يهرب من وجهها « كيف ؟ كيف صدقته وسلمت نفسي له ؟ أنا المغفلة صدقته ورحت الهث وراء السراب الذي أشارت اصبعه له .. ارحمني يا رب الرحمة .. احمني .. ساعدني .. » وازداد نشيجها وعيون صغيريها تعلق بهـا .. يشدها رعب غامض .. « يساعدني الله ..؟ أنا الآثمة المجرمة .. زنيت وأريد ان يحميني الله .. لا .. انه ينتقم مني .. يريني عقابه كيف يكون .. !! يا رب .. خلصني هذه المرة .. فقط هذه المرة يا رب .. أين أهرب .. ؟ أين أذهب .. ؟ الكلب خطبها وتركني ..

افترسني وتركني بقايا لا نفع فيها .. كل هذا من يدي .. أنا المغفلة .. أسرعت اصدقه ... » وخيل لها كأن الدنيا كلها أذرع مشرعة للانقضاض عليها .. وعيون قاسية ترصدها .. « يا رب أين أذهب ؟ الى أين اوجه وجهي .. ؟ أنا المرأة الوحيـدة المطرودة .. طردتني من دنيـا الناس الصالحين وستطردني من الحياة كلها .. يا رب لاجل هذين الصغيرين .. فمن لهما بعدي يا رب .. ؟ ألا من شفاعة لهم عندك .. ؟ امهم زانية حقيرة لا يلبث القـوم ان ينتهبوها بسكاكينهم .. لطخـة سوداء يمحونهـا من صفحتهم .. يرجمونها بالحجارة .. يا رب .. أذنبت وأتوب اليك .. أنا مذنبة ليس لها غيرك .. ولمن اشتكي اذا لم ترحمني ..؟ فلو فهت بشيء لمزقوني كلهم .. هاشم يعرف كل ما أخفيه وما ضربه الا لاجل الانتقام ولكنه لن يلبث ان يقول لابيه .. وسيتسابقون لتمزيقي باظفارهم .. فأنا آثمة سافلة لا استحق الحياة معهم .. هم الناس الاخيار .. وماذا ستقول النسوة عني ..؟ لن يبكين .. ولن يلطمن .. بل سيصرفن اسنانهن ويصحن متشفيات : « تستأهل .. العاهرة .. لا ردت أيديكم يا رجال .. » ويظل هو يفرح مع حسنه .. ولكنها لا تدري .. ولربما أخذ وطره منها وتركها مثلي .. » وصافحت عيناها وجهي صغيريها البائسين « أستأهل .. فأنا لم أرحمكم .. لم ارحم صغركم وأريد من الله ان يسترني من أجلكم ..!! يا رب .. أنت الملجأ الوحيد .. وليس غيرك !! »

ثم تركت مكانها ودموعها تختلط بلعابهـا دون أن تحس بمذاقهـا واقتربت من الباب وراحت تمد نظراتها المتوجسة من خلال أستار الظلام الباهتة جاثسة بها الزوايا والمكامن « من لهم بعدي يا رب ..؟ من لهم ..؟ انني اعوذ بك من كل شر .. انا اعرف انني انا الشر .. ولكن لاجلهما ..

فانهما سيضيعان ويذوقان أصناف العذاب •• » وكانت الوساوس تصطرع في صدرها •• « لابد أن يكون قد أعد العدة لقتلي •• أنا أعرفهم •• اعرف أنه سيقتلني •• يدفنني في التراب وأنا حية •• فقد لطخت شرفهم •• قضيت عليهم •• أنا المجرمة •• وقتلت طفلي •• انا قتلت طفلي بيدي •• لأقتل !! ليقتلوني كلهم •• ليمزقوني •• ولكن يا ربي •• الرحمة •• الرحمة •• لو يسقط هذا الطفل •• لو اسقطه الليلة •• آه •• فلن أجد الراحة أبدا •• هذه الايام تمضي •• تنشب مخالبها القاسية في قلبي ولا أحد يشعر •• منذ ان خطب المجرم حسنة ولا أحد يلتفت لي •• وكل يوم يمر علي يمزق وشائج روحي •• ام سلمان تقول : « مالك يا حليمة ••؟ هل أنت مريضة ••؟ » دون ان أعرف بم أجيبها •• يا رب فماذا أقول ؟! ولكني أظنها توجست •• فقد برقت عيونها وتجهمت ملامح وجهها •• فيمكن أن تكون قد عرفت أو ارتابت •• احمني يا ربي منهن •• فعيونهن أنفذ من خناجر أقوى الرجال •• ستعرف هذه وغيرها ما دام يتشبث في بطني •• يريد الله ان يعاقبني به •• يزهق روحي •• علي اللعنة فكيف أقدمت ••؟ كيف ارتضيت ان اسلم نفسي له ••؟ كيف لم أحسب لهذا حسابا ••؟ هكذا غاب عني كل شيء » وارتدت وجلست صامتة •• تعابير وجهها تتشنج بقـوة ودموعها تنصب ويزداد انهمارهـا وهي تلمح الالم الضارب في وجهي طفلها ••

وانتبهت لهمـا •• وقـد سقطا كل الى جانب نائمين •• فاسرعت تحملهما الى فراشهما •• الى كوم من الخرق والملابس البالية •• ثم ألقت عليهما ازاراً احمر من الصوف •• وعباءتها •• وجلست قربهما ورأسها بين كفيها •• ودموعها تتجمع على التراب أسفل وجهها « يا رب •• تعذبت

كثيرا وما ذقت الراحة منذ أحسست به يثقل بطني •• فساعدني يا رب اجعله يفارقني لاخلص من شره •• أنا أعلم اني آثمة •• وجريرتي عظيمة •• ولكن يا رب •• المغفرة •• الرحمة •• أهكذا تضيق الدنيا بعيني ولا أحد لي ••؟ هكذا انتهي ملعونة من الناس ومن طفلي •• واحكم عليهما بالعذاب الابدي •• يصيحون بوجهيهما : « انتما ابنا الفاجرة •• العاهرة •• » يا رب ليتني لم أخلق •• ليتني أموت الآن وتبتلعني الارض •• اذن لعطف الناس عليهما على الاقل •• ولكن لو عرفوا وقتلوني فماذا يفعلون بهما ؟ يتركونهما ليموتا جوعا •• وألما •• يلعب الهواء بأفواههما وليس غير الدموع المرة تترعهما •• آه •• لأمت •• لأمت الآن يا رب لينجوا من عاري المدمر !! »

ثم نهضت واقفة •• وكمن تهجم على عدو عنيد راحت تضرب بطنها بجمع يدها •• قبضت عليها كمن تخنق شيئا حتى أحست بالكلل يشد ذراعيها من المرفق •• فاسقطتها شاعرة بروحها تسقط معهما •• ثم امتدت على الارض •• البرد يلسع كيانها •• بطنها تلامس التراب وأخذت تضرب على ظهرها بقسوة •• وتمنت لو تأتيها احداهن •• لو تمزق بطنها بسكين وتخرجه •• وحينما يئست •• طفقت تئن وتبكي بصوت مخنوق •

بدأت تقطع الخيمة جيئة وذهابا •• وتخرج الى باحة الدار •• تتحسس نعجاتها ودموعها تبتدر على خديها •• « هذي الدنيا •• لما تحارب أحدا تهلكه •• تسحق عظامه •• » وتعالى صياح الديكة •• واتصلت الاصوات •• فعرفت ان الليل قدانتصف •• وعادت الى داخل خيمتهاتعض شفتيها بخوف •• والالم يعتصر قلبها ويترع مسارب أعماقها •

لم يغمض لها جفن •• فقد نسيت الليل والظلام ولم تتحسس روحها

غير العذاب والالم والرعب •• وهمت بأن تنشب أظفارها في بطنها تمزق النغل •• اللعنة المتشبثة بها باصرار « يا رب انني لا استطيع أن أتوارى عن الناس •• فان بطني لوارتفعت اكثر لفطنوا •• ولكن كيف اهرب ؟•• وماذا أقول ؟ لم ينزل المطر وأرحل •• ولكنهم لن يسمحوا لي •• لن يقبلوا اقامتي مع غيرهم •• ينقبون الدنيا كلها •• يا للموت !! » وبعينين أجحظهما الرعب •• وروح لاغبة هصرها الخوف •• وقلب مفعم بالالم والعذاب •• ظلت جامدة تنظر أمامها •• والظلام يبهت شيئا فشيئا •

وحينما لاحت تباشير الصباح وتلامحت أشعة الشمس من خلال احمرار الأفق •• وبرز قرصها كشفة تنفرج عن ابتسامة عريضة ساخرة •• وهي ترتقي الافق •• تتهادى معتلية القبة الزرقاء •• كانت عينا حليمة المحمرة وأجفانها المقرحة تنفتح بفزع •• ولم تتذكر نعجاتها •• ولم تشعل نارا •• بل كانت تنظر الى أمام وخيالها يصور لها مخاوفها ويبرزها أمامها مجسمة •• ملطخة بالدم •• طفلاها يصرخان •• وكمن تتذكر لتوها •• نهضت من فورها مرتدة الى داخل البيت •• واستخرجت من خلال طيات الاطمار البالية خنجرا قديما •• قد علا نصله بعض الصدأ •• وراحت تجلوه بكل ما بقيت في يديها من قوة حتى جعلته يبرق وكأنه يتوعد الناس بالموت والدمار ••

هزته في يدها •• ثم تسللت خارجة وقد أخفته في ثنيات عباءتها قاصدة بيت أبي حسين •• اقتله •• انفذه في صدره حتى مقبضه •• لسوف أريه كيف يخدع بنات الناس •• كيف ضحك على حليمة واستلبها عزها وشرفها •• الكلب •• وصرت على أسنانها دون ان تفكر بالعقبى •• وما ستقوله للناس •• بل توسعت عيناها تشعان ببريق الغضب والحقد المكبوت ••

متهيأة للانتقام ومص دمائه القذرة •• وخيل لها انه سيصرخ •• تتوسع عيناه رعبا •• ولتمت بعد ان تراه يتهاوى على الارض يتمرغ بدمائه •• « المجرم !! »

كانت تسير مسرعة الخطوات •• تلفت يمينا وشمالا دون ان تترك لأحد الفرصة ليكلمها •• ويدهـا تقبض على الخنجر قريبا من صـدرها مستعدة للانقضاض عليه •• وفجأة •• خارت قواها •• وثقلت رجلاها •• حتى أصبحت أعجز من أن تجر قدما •• وكأن شيئا غريبا انتزع قوتها من جسمها •• وبقايا الدار تلوح امامها •• تفغر فاها ساخرا •• « اذن فقد رحـل !! هرب الحقير •• » وأحست بأصابع قاسية تعتصـر روحها •• وانفاسها تبهت مبهورة •• وما يزال الخنجر مشرعا بيدها •• نصله الى صدرها •• وكأن الدنيا اضطربت •• والارض مادت تحت قدميها سقطت كمن تتعثر بحجارة تصدم قدمها •• وغابت عن وعيها ••

وارتفعت أصوات •• وتناثر صراخ حاد هنا وهناك •• وسـرعان ما تجمع أهل القرية حول جسد حليمة المسجى •• وبركة كبيرة من الدماء تتجمع قرب صدرها •• وهرعت النسوة •• ونبحت الكلاب وكأنها بكي ناعية •• ثم حدثت حركة بين الناس •• وتطلعوا •• فاذا بالزاير يسير بلا وعي •• يشق الناس بيديه الموحلتين وفي أثره ابنه هاشم •• والفزع يطل من أحداقهما •• وتصايحت عدة أفواه وهي تهرع « ماذا ••؟ ماذا ؟ » وسرعان ما كان الزاير يقف أزاءها وملامحه تنقبض انقباضا مريعا •• وكأنه يبكي •• وهاشم قربه ينظر الى جسمها بذهول •• وامتدت يد الزاير فقلبتها •• وانطلقت صيحات الفزع •• وهـم يرون الخنجر مغروسا في صدرها الى المقبض •• وقد اصفر وجهها •• وابيضت شفتاها واختلاجة

خفيفة تسري في جسدها الواهن والتفت الزاير حواليه والالم يقطع بياط قلبه •• وبدا وكأنه في سبيله للانهيار •• وكان الرعاة قد أسرعوا بأغنامهم ليستطلعوا الخبر •• وانطلقت أصوات النساء •• « يا مصيبة •• يا مصيبة نزلت علينا •• » وتساءل الرجال مغمغمين عمن فعل هذا ••!! وكل يتطلع الى وجه الآخر •• يحاول ان يتذكر من منهم يمكن أن يقدم على هذه الجريمة •• وقال آخرون •• « يبدو أنها هي التي قتلت نفسها •• فهذا الخنجر خنجر زوجها •• » ولكن أحدا منهم لم يصدق شيئا مما يسمع •• حتى هواجسهم باتت انغاما غريبة لا تستطيع بلوغ اليقين منهم •

ثم حملت اثنتان من النساء جثمانها •• وكانت قد أسلمت الروح •• وضعتاها في بيتها •• وانطلقت الاصوات تبكي الصبيين اليتيمين •• بينا فزعاهما أول الامر •• ثم طفقا يبكيان بعويل مر « ماما •• ماما •• يا ماما •• »

وحينما حملت حليمة الى قبرها •• كانت في العيون أشياء كثيرة لا تستطيع ان تفصح عنها •• أخذت تحركها في محاجرها بقلق •• بينما كان الزاير قد أمسك بيدي الطفلين •• وأخذهما الى بيته وخلفه يسير ابنه هاشم مطأطأ الرأس •• زائغ البصر •• تمور في نفسه أشياء أكثر مما في نفوسهم جميعا •• وبدا وكأنه يحادث نفسه في صموته المطبق •• ولم تلتق عيناه الا بعيني زهرة حينما عادت في المساء •• وكأن كل واحد منهما يقول للآخر « لقد ماتت •• لقد ماتت •• » وروحاهما تبثان من خلال تعابير وجهيهما ما تضطرب نفوسهما بها من أسرار !!

وصارت هموم الزاير أكثر من أن تحتمل •• وبدأت ملامحه تبكي بتعبيرات أليمة مخنوقة •• فهاهو الجفاف يكتسح كل شيء أمامه •• وشموس أحلامه

تأفل •• وليس غير ظلام دامس يحط عليه في وضح النهار •• والرياح تذرو آماله •• وتقوض أركان حياته •• وقد هز موت حليمة جذور أعماقه •• واحتفر هوة عميقة عند قدميه •• فصلته فصلا عما كان يرنو اليه من حياة •• ولاول مرة بعمره الطويل استشعر ضعفه التام أزاء مجريات الامور •• وأحس وكأنه قطعة قش في رياح عاتية وتساءل بمرارة وهو يرسل نظراته الخابية الى الافق المظلم أمامه « أين ستلقي بي هذه الرياح ••؟ أين يكون آخر المطاف ••؟ ومتى ؟ وهل ثمة ما يجعلني أرفع يدي وأعمل شيئا وهي تصفر بأذني بقسوتها هذه ••؟ لا أدري ••!! ولكن الذي أدريه انني في سبيلي الى السقوط •• وأصابع الزمن الدائبة الحركة تدفع بي رويدا •• رويدا الى الهاوية بينما تغشي عيني بغشاوة خادعة •• ولابد أن يأتي اليوم الذي تتمزق الغشاوة لأطل على الهوة البعيدة القرار •• واذاً فما جدوى حياتي ••؟ ما جدواها ••؟؟ »

كان يفكر بهذه والظلام يمتد في أعماقه •• كثيفا •• يحجب كل حقائق الحياة ويجعل مشاعره تتضارب بعنف •• وامتد الى عينيه فغدتا ترميان نظرات منطفئة •• كابية •• وكأن موت حليمة مزق ضوء حياته وابتلع وهج الشمس •• وتركه •• والكون •• وجميع الاشياء في ظلام شامل •• وعرى الجمود كل شيء حوله •• فهذا ابنه هاشم ينظر اليه نظرات مهتزة دون ان يبادله كلمة •• وزهرة تردد نظراتها الكسيرة المتوجسة بين هاشم وبينه •• فكأنهم أموات بارحوا المقبرة لتوهم •• وشحوب وجوههم جعل وجه الحياة شاحبا •• جامدا جمود الكون من حوله وصموته !!

وامتدت نظرات هاشم الى أبيه متسائلة •• « هه أبي •• أما زلت تصر

على الحفر ..؟ » وكانت زهرة قد خرجت بغنمها الى المرعى .. ولم يتحرك خشية ان ينبهه فيرجعا الى العمل المرهق .. وبقي يرهف الحس حذرا .. وفجأة .. وبأسى قال الاب :

ـ نرحل .. نرحل ...

وكأنه يقول في نفسه « لم يعد لدي ما أعيش لاجله .. انتهى كل شيء .. وضاع العمر .. » بينما نظر هاشم الى أبيه متعجبا .. « اذاً كنت لا تحلم بغير حليمة .. وهي تمارس قتل نفسها في أحضان الوغد حسين ..!! » وتابع الأب :

ـ البقاء هنا .. في هذه الارض الجافة يعني الموت .. موتنا نحن ..

وبدا من تغير تعبيرات وجهه انه يفكر فيما حدث لحليمة المسكينة .. « فمن يقدم على قتلها ..؟ ولِمَ تقتل نفسها هي ...؟ هي المرأة التي لا تعرف ان تذبح دجاجة تقتل نفسها ..؟ لا .. لا .. ولكن من قتلها ..؟ كلهم هرعوا على صوت الصراخ .. لكنهم تجمعوا مثلي .. ولكن !! يا هذه الامور .. لا أحد يدري أين هي الحقيقة ..!! كل ما نفكر فيه يصفعنا بقسوة .. ويدير وجوهنا بعنف .. كل شيء يفقأ عيوننا ويخرسنا اذا ما حاولنا التجرؤ والنظر .. يا رب ما أضعف الانسان .. ما أصغر شأنه ازاء أشياء الدنيا المظلمة هذي ..!! »

وتحرك وأنظار أبنه تتعلق به .. وابتسم هاشم وهو يراه يعقد كفيه خلف ظهره يسير بجسم مهزوز .. وتبعه .. وحينما تجاوزا الخيام سائرين ناحية الحقول .. قال الابن :

ـ الى أين يا أبي ..؟

ـ الى الحقل ..

قالها بحزن شديد •• فسأل الابن :

ــ والبشر ••؟

وامتد صمت ثقيل للحظات •• أجاب بعده :

ــ سئمت الحفر في أرض يحرق أعماقها العطش •• جهد ضائع يا ابني ••

فغمغم « جهد ضائع •• الآن فقط عرفته ؟! » وبصوت عال :

ــ كان يجب أن تعرف هذا من زمان !!

ــ ومن يدريني ••؟ كل الاشياء تخدع •• وكل الناس ينخدعون

ــ لا يا أبي •• أنا أعرف هذا من زمان ••

وصمت الاب مرة ثانية •• وفيما كانا يشقان طريقهما صوب الحقل •• وقد لاح حقلا هامل وأبي حسين •• أرض جرداء •• كلطخة كالحة وسط اللون الشاحب المديد •• توقف الاب •• وهز يده يزفر من أعماقه •• ثم قال :

ــ ليت الله يظهر قاتل حليمة •• اذاً لمزقته ••

ــ هي قتلت نفسها يا أبي ••

ــ هي ••؟ من قال لك ••؟

ــ الخنجر خنجر زوجها يا أبي •• ولا يمكن ان يقتلها أحدا أبدا •

ــ لا •• لا •• أبداً •• انها لا تقتل نفسها •• وما الذي يحدو بها لقتل نفسها ••؟

ــ ومن يدريني •• كل انسان عنده ما لا يفكر به غيره ••

وهز الاب وجها شائخا •• ثم تمتم :

ــ الله أعلم •• الله أعلم ••

وتردد الاب •• ثم تقدم الى ناحية البئر •• وما ان أشرف عليه حتى الفاه ممتلئا بالمياه الى ربعه •• وفغرفاه أول الامر ثم قال بفتور :

ـ امتلأ بالماء •• منذ ان تركناه أمس ••

وبقي واقفا ينقل نظراته بألم •• ثم تحرك وجسمه يرتعش •• محاولا النزول •• وما ان وضع قدمه على حافة البئر حتى ارتد قائلا :

ـ لا •• لست أنا •• انزل أنت يا هاشم •• انزل أنت ••

ورمق هاشم أباه بنظرات هازئة •• ثم بدأ ينزل •• « وهل تريدها أحسن من تلك ••؟! أرض واحدة يا أبي •• ومياه واحدة •• ولكنك كأي انسان •• يغمض عينيه نصف اغماضة ويصنع سرابه •• فلولاه لما عاش منذ ذلك اليوم ولا بقي رجل واحد هنا •• ولكننا بشر •• كل حياتنا خدعة •• ورجاؤنا وهم •• وعيوننا لا ترى غير ما نأمل ونود •• والا •• لكان أبي قد كف منذ البئر الاولى •• وكنت قد تزوجت زهره •• فما كان لي أن انخدع بحسنه !! » وحينما لامست أصابع رجله المياه الباردة سرت في جسده رعدة •• وانحنى وأصوات ساخرة تصخب في أعماقه •• ومد كفـه وهو ينحني •• ثم رفع رشـفة الى شفتيه وعيناه ترمقان أباه بسخرية •• وبغتة تبدلت نظراته وصاح :

ـ أبي •• انه عذب •• هذا الماء عذب ••

ولفرط اضطرابه زلت قدمه وسقط في قاع البئر وبدأ يخوض فيه •• وصاح الاب بصوت عال :

ـ هه •• عذب ؟! الماء عذب ••!!

وارتجف صوته باندهاش عظيم ناسيا كل شيء •• وأشرف على فوهة البئر وكأنه يهم بالقاء نفسه أو اغتراف غرفة منه •• واسرع هاشم يرفع له

غرفة من الماء •• سرعان ما تبددت وهو يحاول التشبث بمدرجات البئر على جانبيه •• وأسرع الاب ينزل •• ورشف رشفة منه •• وخيل له أن ليس هناك ما هو أكثر حلاوة وعذوبة من هذا الماء •• وقال بفرح :

ـ آه لو كنا قد عمقناه أكثر ••

ولم يتريث •• بل سار بخطوات واسعة جعلها السرور تضطرب •• ولم ينتظر أن يصل الى القرية ، بل صاح من بعيد :

ـ البئر •• البئر •• ماء عذب كثير في البئر ••

فترك الجميع خيامهم •• وتحلقوا حوله •• وود لو يكون عنده منه •• وسرعان ما أتوه بدلو وذهبوا اليه •• وحينما ارتفع بالماء •• بدأ الناس يرشفون كالمسحورين •• وقال أحدهم :

ـ صار عندنا ماء •• ماء عذب هنا ••!!

وصاح آخر بحماسة :

ـ اذاً لن نرحل •••

ورددوا كلهم :

ـ نعم لن نرحل •• لن نرحل •• فقد صار عندنا ماء ••

وتكلم الزاير والانبساط يعود الى ملامحه لاول مرة والنور يشع من عينيه :

ـ وعلينا ان نتعاون لحفر آبار أخرى •

ـ نعم نحفر آبارا أخرى ••

ـ حمدا لك يا رب •• شكرا لك ••

ولمحوا شخصا يركض نحوهم بقوة •• فمه مفتوح يلهث •• ثم تبينوا به العطار •• وصاحوا بوجهه :

ـ ماء •• ماء عذب ••

ـ أحقا •• نجحت بئرك يا زاير •• يا لفرحتنا ••!!

وحينما طافوا بأنظارهم في الحقول •• ووجوههم تشرق بالامل •• أطلت نظرات الاسى من الاحداق وهي ترنو الىأرض الراحلين الجرداء •• وعينا الزاير تهمس « الآن •• الآن يا رب ؟! بعد ان ••!! » وكأنه استشعر اثمه •• قال بصوت مسموع : « حمدا لك •• شكرا •• »

وحينما عادوا الى البيت •• كانت عينا زهرة تبحث عن عيني هاشم •• حتى التقتا بعناق حالم •• طويل •• ثم اقترب منها •• والآمال تزهو على شفتيه •• وتطفح الفرحة من عينيه •• وأمسك بيدها بحنان •• ودخلا معا الى داخل الخيمة •••

★ ★ ★

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والارشاد المطبوعات التالية :

اولا ـ سلسلة كتب التراث

	الثمن فلس	دينار
١ ـ الدر النقي في علم الموسيقي : للقادري الرفاعي الموصلي وتحقيق الشيخ جلال الحنفي	٥٠	ـ
٢ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد محمد عبدالجبار المعيبد	٣٠٠	ـ
٣ ـ مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء لياسين بن خيرالله العمري ـ تحقيق السيد رجاء السامرائي	٣٠٠	ـ
٤ ـ اصحاب بدر : منظومة الشيخ حسين الغلامي تحقيق وشرح الاستاذ محمد رؤوف الغلامي	٣٥٠	ـ

ثانيا ـ سلسلة الكتب المترجمة

	فلس	دينار
١ ـ الاصطلاحات الموسيقية : تاليف أ. كاظم نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
ملحق ـ١ـ المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية : للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي	١٠٠	ـ
٢ ـ رحلة تيبور الى العراق في القرن الثامن عشر نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي	٢٠٠	ـ

ثالثا ـ سلسلة الكتب الحديثة

	فلس	دينار
١ ـ رائد الموسيقى العربية : تاليف عبدالحميد العلوجي	٢٠٠	ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تاليف الدكتور حسين على محفوظ	٣٠٠	ـ

	الثمن	
	فلس	دينار
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية: تاليف الاستاذ ميخائيل خليل‌الله ويردي	٥٠	ـ
٤ ـ الحرية : تاليف الاستاذ ابراهيم الخال	١٠٠	ـ
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٥٠	ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتاميم في القانون العراقي : تاليف الاستاذ حامد مصطفى	٣٥٠	ـ
٨ ـ علي محمود طه ... الشاعر والانسان : تاليف المرحوم الاستاذ أنور المعداوي	٢٠٠	ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تاليف عبدالحميد العلوچي	٢٥٠	ـ
١٠ـ أبو تمام الطائي : تاليف الاستاذ خضر الطائي	١٥٠	ـ
١١ ـ من شعرائنا المنسيين : تاليف الاستاذ عبدالله الجبوري	٢٠٠	ـ
١٢ـ محمد كرد علي : تاليف الاستاذ جمال‌الدين الآلوسي	٣٠٠	ـ
١٣ـ أدباء المؤتمر : للاستاذ عبدالرزاق الهلالي	٢٠٠	ـ
١٤ـ بدر شاكر السياب : للاستاذ عبدالجبار داود البصري	١٥٠	ـ
١٥ـ الواقعية في الادب : تاليف الاستاذ عباس خضر	٢٠٠	ـ
١٦ـ شعراء الواحدة : للاستاذ نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠	ـ
١٧ـ لقاء عند بوابة مندلبوم : تاليف أحمد فوزي عبدالجبار	٢٠٠	ـ

رابعا ـ سلسلة الثقافة العامة

	فلس	دينار
١ ـ المواسم الادبية عند العرب : تاليف عبدالحميد العلوچي	١٠٠	ـ
٢ ـ الادباء العراقيون المعاصرون واتجاهاتهم : تاليف السيد سعدون الريس	٥٠	ـ
٣ ـ تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تاليف الدكتور لؤي بحري (نفدت نسخه)	٥٠	ـ
٤ ـ العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ	٥٠	ـ

	الثمن فلس	دينار
خامسا ـ سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث		
١ ـ اللهب المقفى ـ شعر حافظ جميل	٣٥٠	ـ
٢ ـ غفران ـ شعر محمد جميل شلش	٢٥٠	ـ
سادسا ـ سلسلة القصة والمسرحية		
١ ـ الظامئون : للاستاذ عبدالرزاق المطلبي	٢٥٠	ـ

سلسلة القصة والمسرحية

صدر في هذه السلسلة

الظامئون	.. .. ..	تأليف عبدالرزاق المطلبي

وسيصدر قريبا

عمان لن تموت	.. .. ..	تأليف عبدالوهاب النعيمي
من مناهل الحياة	.. .. ..	تأليف الياس قنصل
رماد الليل	.. ..	تأليف عامر رشيد السامرائي
الهارب	.. ..	تأليف شاكر جابر
خارج من الجحيم	.. .. ..	تأليف صادق راجي



وزارة الثقافة والإرشاد

الثمن ٢٥٠ فلساً

دار الجمهورية – بغداد
١٣٨٧هـ/١٩٦٧م

تصميم : جميل حمودي